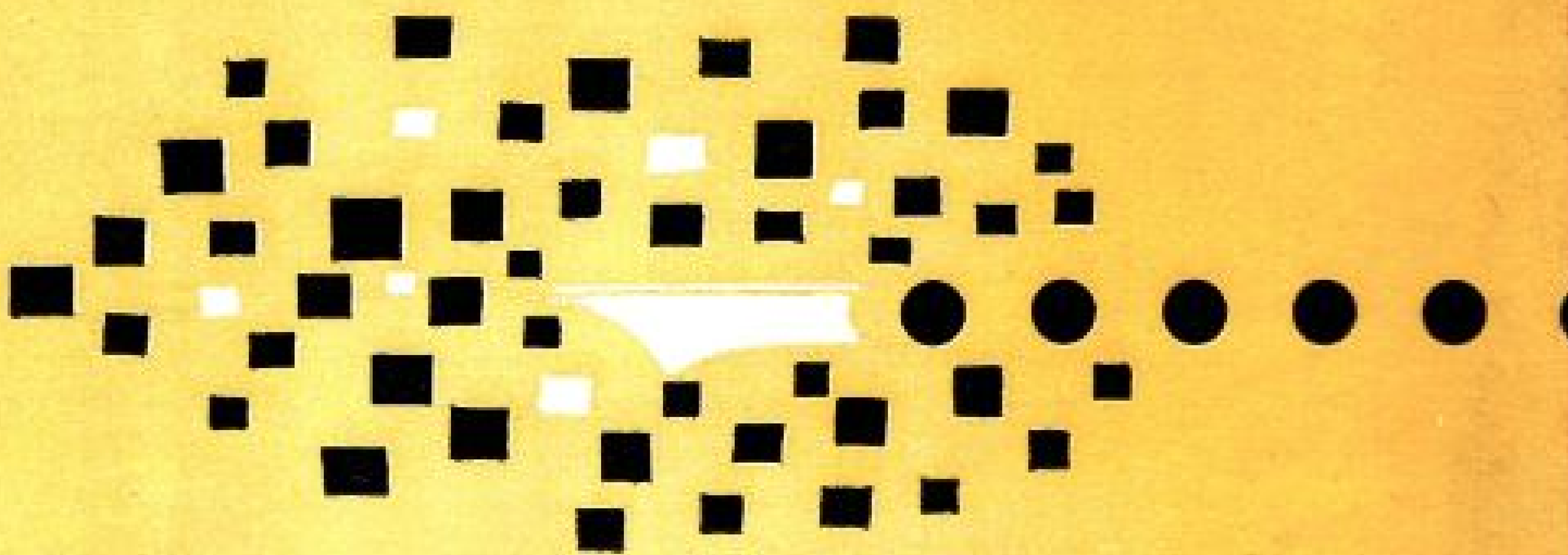
محمد النويهي

شخصية بشار



مكتبة الخانجي

دار الفكر
بيروت

محمد النويهي

شخصية بشار

مكتبة الخانجي

دار الفكر
بيروت

الطبعة الثانية
بيروت : ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م

كتب أخرى للمؤلف

في دراسة الشعر القديم :

- ثقافة الناقد الأدبي
- الشعر الجاهلي : منهج في دراسته وتقويمه (جزآن)
- نفسية أبي نواس

في دراسة الشعر الحديث :

- الاتجاهات الشعرية في السودان
- قضية الشعر الجديد

في قضايا النقد :

- طبيعة الفن ومسئولية الفنان
- وظيفة الأدب : بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي

مقدمة الطبعة الاولى

«تحليل الشخصية» تعبير يروج كثيراً بين متعلمي الأدب ومعلميهم ، فله رنة فخمة تكسب مستعمله اعتباراً وزهواً ، أو لا تنبىء عن إتقان للدراسة العصرية ، وتمكن من طرق النقد الحديث ؟ فالتلامذة يدبجون موضوعات إنشائية يسمونها «تحليل» شخصية هذا الأديب أو ذاك، ومعلموهم «يحللون» لهم شخصيات أربعين أديباً في السنة الدراسية الواحدة ، وواضعو كتب تاريخ الأدب المدرسية «يحللون» شخصيات كل أدباء العربية ، شعراء وناثرين ، من أقدم العصور إلى أحدثها ، بين دفتي كتاب واحد . وشيوخ المدرسة القديمة في الأزهر أو في دار العلوم يأبون أن يقصروا عن ميدان «النقد العصري» الذي يتسابق فيه الجميع ، فيطلعون علينا بأسفار محبّرة يقومون فيها هم أيضاً بـ «التحليل» . ولم لا يفعلون ؟ ألم يصر جامعهم الأزهر جامعة أزهرية ودار علومهم كلية دار ؟

وكل محاولاتهم تلك في «تحليل الشخصية» تثير الضحك والأسى معاً ، فهي لا تومىء إلى بصر صحيح بهذا الموضوع الصعب المعقد، لا يظنون هذا « التحليل» شيئاً سوى لم أشتات مخلطة من أخبار الأديب ، لا تنتج إلا ثوباً مرقعاً عجيب التنافر لا يخفي هلهلته وبلاه ما أضافوا إليه من خرق مستعارة فتنهم بريقها العصري . والأسلوب الذي يتخذونه أسلوب إنشائي منمق العبارة مكتظ بالتراكيب

البدوية الضخمة أو محشو بالمحسنات العباسية المتظرفة، أو يجمع في محاولته البلهاء تقليد أساليب القدماء بين هذين العنصرين الشديدي التضارب . وليس يعنينا الآن ما ينتج عن هذا المزج الكريه من أسلوب يقزّ منه الذوق السليم ، لكن يعنينا أنهم يخدعون أنفسهم باصطلاح طنّان لا يفقهون له معنى . فليس هؤلاء يفهمون المعنى الصحيح لـ «تحليل الشخصية » .

أما نقادنا المحدثون ممن نشأوا بعد الثلاثة العظام فمنصرفون عن الدراسة المجدية للأدب العربي بانهماكهم في تطبيق مقاييس النقد الأوربي على هذا الأدب المسكين ، وعزوفون عن التحقيق الصحيح لشخصيات أدبائه في جهادهم في تقسيم هؤلاء الأدباء بين واقعيين ومثاليين ، وطبيعيين ورمزيين ، وكلاسيكيين ورومانتيكيين ، إلى آخر ما يلصقون بتراثنا العربي من اصطلاحات يجدونها متداولة في النقد الغربي وهي لا تمت إلى أدبنا القديم بصلة قريبة ولا بعيدة .

حملتني هذه الحقائق المحزنة على أن أتوخى في وضع هذا الكتاب أن يكون شرحا للخطوات التي يخطوها دارس الشخصية الأدبية ، كيف يتفهمها ويقلب النظر فيها ويتعرف جوانبها المختلفة ويحاول استكشاف الدوافع والقوى التي تعاونت على إنتاج عناصرها المتعددة المتضاربة ويضم كل هذه العناصر على تنافرها في وحدة حيوية مؤتلفة . لذلك لم أكتف بعرض النتائج التي انتهيت إليها من دراستي لشخصية الشاعر الذي اخترته بالدراسة ، بل حاولت أن أبين للقارىء كيف توصلت إلى هذه النتائج من قراءتي لأخباره وأشعاره . على أن القارىء لن يجدني أعرض لمسائل الدراسة الشخصية بالشرح النظري والمناقشة العقلية المجردة ووضع الأحكام والأصول والمقاييس ، فهذه طريقة قليلة الجدوى في تبصير المتعلم وتدريبه . إنما الوسيلة التي ألجأ إليها هي أن أتناول الشاعر الذي اخترته بالدراسة المباشرة ، فأدرسه مع القارىء ، في خطوات تدريجية متمهلة ، فأبني معه مرحلة بعد مرحلة صورتي الشاملة للشخصية التي أدرسها ، ثم أنتهز هذه الدراسة التطبيقية لأشرح له واحدة بعد واحدة طائفة من أهم الحقائق في الدراسة الشخصية .

هذه في نظري هي الطريقة المجدية . أما الكتب التي تتناول قواعد النقد

الأدبي وطرق الدراسة الأدبية بالشرح النظري والمناقشة العقلية ، فقد يقرأ المتعلم منها عشرات دون أن تعود عليه بجدوى ذات بال .

ولكن إن أردنا أن نحسن دراسة الشخصية الأدبية فلا بد لنا أولا من أن نعرف : عم تنتج الشخصية الانسانية ؟

هي تنتج عن عوامل كثيرة عظيمة التنوع والاختلاف ، ولكننا نستطيع أن نقسمها قسمين عامين : عوامل التكوين الفردي ، وعوامل البيئة .

أما القسم الأول فنعني به طبيعة الفرد نفسه ، أو جبلته التي خلق عليها ، وما به من استعدادات ونزعات ومحاسن ومساوىء فطرته عليها عوامل التكوين الوراثي ، من التكوين العقلي، وطبيعة الجهاز العصبي ، وطبيعة الجهاز الجنسي ، وغير هذين من الأجهزة الجسمانية ، ونصيبه من قوة البنية أو ضعفها ، وقدرة جسمه على مقاومة العلل أو استعداده لتقبلها . وهذه كلها عوامل عظيمة الأثر في تكوين الشخصية ، ولكننا لن نخصها هنا بالحديث ، فقد تناولناها بالشرح المفصل في كتاب سابق .(١)

أما القسم الثاني ، فهو عوامل البيئة ، وتأثير ظروفها الزمانية والمكانية . في أي عصر ولد هذا الفرد ، وفي أي مكان ، وما حالة عصره وموطنه من الوجهة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والخلقية ، والثقافية . وفي أي بيت ولد ، ولأي أبوين ، ومن كانوا رفاق صباه وأخدان شبابه ، وكيف كان تأثره بهم ، وأي نصيب ظفر به من ثروة عصره المادية أو الفكرية ، وبأي أوساط خاصة اختلط ، وأي أحداث حدثت له في مراحل حياته المتعاقبة فجعلته ينزع منزعاً خاصا في السلوك أو التفكير .

وهذه أيضا عوامل عظيمة الأهمية ، إلا أن الشخصية لا تتكون عنها وحدها ، كما أنها لا تتكون عن عوامل التكوين الطبيعي وحدها ، بل هي نتاج تفاعل هاتين الناحيتين . وفي بعض الشخصيات يتساوى أثرهما ، وفي بعضها يزيد أثر هذه

---

(١) ثقافه الناقد الأدبي .

الناحية أو تلك . وقد رأينا في كتابنا الذي أشرنا إليه شاعرا زاد فيه تأثير التكوين الطبيعي ، وهو ابن الرومي ، فكانت دراسته مجالا لاستجلاء هذه الناحية من تكوين الشخصية . أما في هذا الكتاب فسندرس شاعرا زادت فيه عوامل البيئة ،وهو بشار بن برد ، فتكون دراسته فرصة نتبين فيها أهمية هذه العوامل ونصيبها الصحيح في تكوين كثير من الشخصيات الأدبية ، وتكون أيضا نوعا من التصحيح والموازنة للكفة الأخرى التي رأيناها رجحت في تحقيقنا لشخصية ابن الرومي .

فشخصية ابن الرومي ، لطغيان العوامل الوراثية عليها ، لم تكن لتتغير تغيرا جوهريا لو وجد في بيئة مختلفة ،أما شخصية بشار فكانت حرية بأن تتغير تغيراً عظيماً.

وهذا هو السبب الأول الذي دفعني إلى اختيار بشار ، ولكن هناك أسبابا أخرى ، منها أن شخصيته عظيمة النضج شديدة التعقد وعناصرها كثيرة التضارب ، فمحاولة حلها تقدم لنا ميدانا واسعا تجبهنا فيه أهم المشكلات والصعوبات التي يواجهها دارس الشخصية الأدبية . ومنها أن مؤلف هذا الكتاب يعتقد أن نقادنا أخطأوا في فهم شخصيته ، فدراسته مجال طيب للمقارنة بين اختلاف الآراء في فهم الشخصية الواحدة ، ثم للقارىء أن يفضل منها ما يفضل، وهو على أي حال سيجد في وجهات النظر المتعارضة ما يساعده على أن يحدد وجهة نظره الخاصة ويكون رأيه في التناول الصحيح للشخصية الأدبية .

وقد فرضت في وضعي هذا الكتاب أن قارئه قد ألم بأهم ما قيل عن بشار في القديم والحديث ، فإن أراد القارىء أن يعيد النظر فيه قبل أن يمضي في قراءة الكتاب فإليه ثبتا بأهم المراجع عن بشار .

أوفى هذه المراجع سيرته في الجزء الثالث من الأغاني ، ومنها تستمد معظم المراجع القديمة الأخرى . ولكن بالأغاني فصلين آخرين فيهما من أخباره وأشعاره ما لا يوجد في سيرته الرئيسية ، أحدهما في الجزء السادس تحت عنوان « أخبار بشار وعبدة خاصة» ، والثاني هو سيرة حماد عجرد ، وهو شاعر طال تهاجيه مع بشار ، في الجزء الثالث عشر .

يلي هذا في الأهمية سيرته في «طبقات الشعراء المحدثين» لابن المعتز . أما ما عدا هذا من المراجع القديمة فلا تكاد تضيف إلى أخباره شيئاً جديداً .

كذلك شعره، أهم ما بقي لنا منه هو ما نجده في أخباره في الأغاني . إلا أن بكتاب «المختار من شعر بشار» اختيار الخالديين ، بضع مقطوعات أخرى لها أهميتها .

وما يرد في كتابي هذا من أخباره وأشعاره غير محال إلى مصدر فهو مأخوذ من سيرته في الجزء الثالث من الأغاني . إلا أنني في رواية بعض أبياته آثرت قراءات وجدتها في غير الأغاني ، أو أضفت إلى ما يرويه الأغاني أبياتاً تعطيها مصادر أخرى .

أما الدراسات التي وضعت عنه في نقدنا الحديث فأهمها ما كتبه طه حسين في «حديث الأربعاء» وما كتبه العقاد في «مراجعات في الآداب والفنون» وما كتبه المازني رحمه الله في كتاب مستقل عن بشار نشر في سلسلة «أعلام الإسلام». والمازني في كتابه هذا يبذل جهدا مشكورا في تصحيح النظرة الشائعة إليه ، وإن لم يعطه الإنصاف الذي نظنه جديرا به ، ولكن محاولته صادقة ، وهي عندي خير ما كتب عن بشار في نقدنا الحديث .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

الخرطوم في ١٥ مارس ١٩٥١

محمد النويهي
رئيس قسم اللغة العربية
كلية الخرطوم الجامعية

مقدمة الطبعة الثانية

بينما كنت أكتب هذا الكتاب في سنة ١٩٥٠ ، وأعده لطبعته الأولى التي صدرت في مارس ١٩٥١ ، كان الأستاذ الجليل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، شيخ جامع الزيتونة الأعظم في تونس ، قد قام بكشف عظيم في خزانة كتبه اذ احتوت على قسم كبير من ديوان بشار الذي كان مفقوداً ، والذي تشير اليه المراجع القديمة إشارات متعددة . واشتمل ذلك القسم على ٢٥٥ قصيدة ومقطوعة ، يبلغ عدد أبياتها ٦٦٢٨ بيتاً ، من قوافي الهمزة والألف والباء والتاء والثاء والجيم والحاء والدال ومعظم الراء . وقبل ذلك الكشف كان كتاب الأغاني هو أهم مرجع لما بقي من شعر بشار ، وقد احتوى منه على ما يقرب من ٦٠٠ بيت .

ونشر الأستاذ الشيخ عاشور ما استكشف من ديوان بشار ، مصححاً ومصحوباً بشرح منه ، وتعليق من الأستاذين الفاضلين محمد رفعت فتح الله ومحمد شوقي أمين ، في ثلاثة أجزاء ، ألحق بها جزءاً رابعاً يضم ما احتوته مجموعات الأدب مما خلت منه تلك الأجزاء . وصدرت الأجزاء الأربعة عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٦٦ .

هذا الكشف المهم اقتضى إضافات كثيرة أضفتها إلى هذه الطبعة ، كما

أن بعض فصول الكتاب قد أعدت كتابتها من جديد . وحيث استعمل كلمة « الديوان » او « شرح الديوان » فأنا أشير إلى هذا الكشف بأجزائه الأربعة . فها أنذا يسرني أن أقدم هذه الطبعة الثانية ، المصححة الموسعة ، آملاً أن تنال ما نالته الطبعة الأولى من رضى القراء .

لمست هذا الرضى في رسائل تفضل بإرسالها إلي عدد من القراء من مختلف اقطار العروبة ، وعبر عنه كثيرون ممن كرموني بلقائهم في زياراتي لهذه الأقطار ، كما ظهر في عدد من المقالات النقدية التي تقبلت الكتاب بقبول حسن ، ما عدا واحدة ، أنكرت ادعائي أن الصورة المرتسمة في أذهان الناس عن شخصية بشار صورة مظلمة ، ورمتني بأني اختلقت هذه الصورة حتى يكون لي فضل تصحيحها لأول مرة . ثم رمتني بأني حين حاولت تصحيح تلك الصورة المزعومة بالغت في الجانب الطرف النقيض ، فاستبدلت بالظلام نوراً .

فإلى أي حد تصح هاتان التهمتان على هذا الكتاب ؟ لست انكر أن أسلوب الكتاب على نصيب من الحدة في كثير من المواضع ، وهي حدة صدرت عن حمية الشباب ، لكنها صدرت ايضاً عن إيمان مخلص بالقضية التي أعرضها ، وكان عدل الميزان المختل يقتضيها . ولو أنني كتبت هذا الكتاب الآن — وأنا في الخمسينات من عمري — وكانت الصورة الشائعة عن بشار لا تزال كما كانت، لما استطعت أن أخفف من تلك الحدة كثيراً . ولكن هل تلك التهمتان صحيحتان ؟

اما عن اختلاقي لتلك الصورة المظلمة حتى يكون لي فضل تصحيحها لأول مرة ، فلن أرد بالاستشهاد بكل النقاد الذين لا تنال شخصية بشار منهم الا الذم الخالص ، ولا بما غصت به الكتب المدرسية — وسيأتي عليه مثال فظيع فيما قاله احدها عن مقتل بشار وإلقاء جثته — بل أكتفى هنا بالإحالة إلى مصدر واحد ، هو ما قاله كبير نقادنا المحدثين ، الأستاذ الدكتور طه حسين ، عن بشار في كتابه « حديث الأربعاء » . فإليك هذه الفقرات أنقلها منه :

« رجل ثقيل الظل . رجل لم يخلص لإنسان . يزدري الناس ويسرف في بغضهم . من أشد الناس إيثاراً لنفسه ، يرى أن الخير يجب أن يكون موقوفاً عليه . اتصف بالجبن . أشد الناس في عصره جبناً وفرقاً . كان طويل اللسان مسرفاً في الهجاء الا أن يبدو له ما يخيفه فاذا بدا له فهو ذليل منكسر. كان يخاف كل شيء ، كان يخاف السيف وكان يخاف السوط وكان يخاف اللسان وكان يخاف غير ذلك كله . كان مسرفاً في النفاق . كان من أشد الناس إلحاداً في الدين وتهالكاً على اللذة . كان منافقاً في سيرته . لم يعلن إلحاده بل أضمره وأخفاه واحتمى بالنفاق. كان يدفع عن نفسه تهمة الزندقة بهذه الطريق التي يسلكها الجبناء وأنذال الناس فيتهم بها غيره من خصومه ومن أصدقائه ايضاً . أسرف في اتهام حماد بن عجرد بالزندقة . مهما تكن لبشار الأشعار الجياد البارعة فأنا لا أحبه ولا أميل اليه . كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحببه الينا ولا يعطفنا عليه ، فهو ثقيل حين يضحك وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحك ويرضيك وهو مر في جميع مواقفه . كان غليظاً فظاً قاسياً . لم يكن بشار بخيلاً ولا محباً للبخلاء، وانما كان كريماً ، لا لأنه يحب الناس ويعطف عليهم بكرمه وجوده بل لأنه كان يزدري المال كما يزدري الناس . كان فاجراً مفطوراً على الفجور . لم يكن محبباً ولا جذاباً ولا ليناً رقيق الطبع والحاشية . »

هذه هي النعوت التي عددها الدكتور طه حسين على بشار ، لم أترك منها نعتاً واحداً . فما رأي القارىء في هذه الأحكام الماحقة التي تكثر من استعمال أفعل التفضيل ومن استعمال « كل » او « جميع » ؟ وكم خصلة حسنة وجدها الدكتور طه بين كل هذه النعوت ؟ فضيلة واحدة لا ثاني لها يسلم بها لبشار ، فضيلة الكرم ، حتى هذه يأبى إلا أن يعللها تعليلاً يفقدها اغلب مزيتها . فهل بعد هذا أتهم بأني اخترعت من مخيلتي صورة مظلمة لا وجود لها ؟ وما الصورة المظلمة إن لم تكن هذه صورة مظلمة ؟ .

هذه الفقرات [1] بلورت ثم دعمت الصورة الشائعة عن بشار ، فمضى سائر النقاد ، ومؤلفو الكتب المدرسية في تاريخ الأدب العربي ، والمدرسون ، ينقلونها عن عميد الأدب العربي .

لست أدعي أن الدكتور طه حسين كان مخطئاً كل الخطأ في كل ما قال ، ولا أنا أدعي أن كل نعت نعت به بشاراً كان على غير أساس . وعملي في هذا الكتاب أن أميز في هذه النعوت بين صحيحها ومخطئها ومسرفها ، ثم أن أدقق البحث في الأسباب والظروف التي أنتجت في شخصية بشار ما صح منها عليه . لكن الواضح الذي لا خفاء فيه هو أن أستاذنا الكبير شديد التحامل على بشار بسبب بغضه له . بل هو يعترف بهذا البغض الشخصي في أمانة طريفة حين يقول : « مهما تكن لبشار الأشعار الجياد البارعة فأنا لا أحبه ولا أميل اليه . » وحين يقول : « كل — لاحظ (كل) هذه — ما حفظ لنا عن بشار لا يحببه الينا ولا يعطفنا عليه . » هو اذن لا يكرهه ولا ينفر منه فحسب ، بل هو لا يشعر بذرة من العطف عليه .

بقي علينا أن نسأل : لم أبغض الدكتور طه حسين شخص بشار كل هذا البغض ونفر منه إلى هذا الحد من النفور ؟ هذا سؤال لا تصعب الاجابة عليه اذا فكرنا فيه بعض التفكير ، وبخاصة اذا قارنّا موقف طه حسين من بشار بموقفه من شاعر آخر ابتلي بنفس الآفة الطبيعية ، نعني أبا العلاء المعري . فطه حسين يحب أبا العلاء حباً عميقاً حاراً ، ويعطف عليه عطفاً تام المشاركة العاطفية ، لأن أبا العلاء كان رجلاً فاضلاً ظفر باحترام الناس وإجلالهم ، وتحمل آفته بصبر وحكمة ، فكان مثلاً مشرفاً للمكفوفين . اما بشار فقد اختلفت شخصيته ، واختلف موقفه من آفته ، فلم يزد الناس الا احتقاراً له ، وسخراً منه ، ونيلاً من كرامته ، ولهذا السبب يبغضه طه حسين . ولا يحاول أقل محاولة أن يلتمس له الأعذار المخففة .

---

(١) سيرى القارىء أني في وصفي للصورة الشائعة اقتبست من كلام الدكتور طه حسين بنفس ألفاظه .

هذا مثال يرينا كيف يكون التشارك في نفس الرزء مدعاة للنفور والكره وانعدام العطف . وقد رأينا مثالاً جلياً على هذه الحقيقة حين رأينا موقف ابن الرومي من كل ذي عاهة جسمانية (١) . وأنا أذكر من أيام صباي في قريتي المصرية فتى كفيفاً — رحمه الله رحمة واسعة — كان مغرماً بالمداعبات الماجنة ، وكان يبلغ فيها في بعض الاحيان مدى مسرفاً ، اذ يفعلها في مسجد القرية الجامع نفسه . لكن اهل القرية كانوا يلقونه بكثير من السماح وسعة الصدر والعطف . ولعلهم كانوا يدركون ادراكاً بديهياً السبب الدفين الذي كان يدفعه إلى تلك المساخر المسرفة ، وهو سخطه على الحرمان الطبيعي الذي مني به ومحاولته التعويض عنه . لهذا كانوا يسامحونه ولا يشتدون عليه في المؤاخذة — ما عدا واحداً كان شديد الضيق به ، والحملة عليه ، والتحريض على التشدد في معاقبته . وهو — تغمده الله ايضاً برحمته الواسعة — شيخ فاضل كبير الفضل من فقهاء القرية المكفوفين .

اما دعوى أنني في تصحيح تلك الصورة أسرفت في الحد النقيض ، فجعلت شخصية بشار كلها نوراً ، فسيستطيع القارىء أن يتبين حقيقة الأمر فيها حين يقرأ هذا الكتاب ، ويرى كم عددت على بشار من مساوىء لم احاول إنكارها ولا التهوين من شناعتها . ويرى أن الدرس الأول الذي أردت شرحه في الكتاب هو أن شخصية أحد من البشر ليست كلها ظلاماً وليست كلها نوراً . ولم أكتف بذكر غرضي هذا في الصفحات الأولى حتى كررته مراراً في مختلف الصفحات ، وحتى لأخشى أن يمل القارىء هذا التكرار . ثم خصصت له فصلاً قائماً بذاته عنوانه « البيئة وشخصية الأديب » . وفي افتتاحي لدراستي لشعره بعد أن درست شخصه كانت جملتي الأولى هي : « لم يكن مناص من ان يمثل شعر بشار كلا الجانبين في شخصيته ، جانب الظلام وجانب النور . « ثم مضيت أستقصي جانب الظلام قبل أن آتي إلى جانب النور ، وفي هذا المجال حللت رائيته « قد

(١) أنظر تعليلي لجودة الهجاء عند ابن الرومي ، ص ٣٢٦ — ٣٣٠ من كتاب « ثقافة الناقد الأدبي » .

لامني في خليلتي عمر » تحليلاً مفصلاً كشف الغطاء عن كل ما تخفيه من عناصر الفجور والقسوة ، وسبر غور بشاعتها الأخلاقية على أتمها . وهو تحليل لم أجد أحداً من النقاد قد ماثله في تفصيله وفي صراحته .

والآن ، ما مغزى السطر الأخير الذي ختمت به الطبعة الأولى من هذا الكتاب ؟ هذا السطر هو استشهادي بالآية القرآنية الكريمة : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم » ...

وبعد ، فالكتاب بين يدي القارىء ، فليحكم بعد قراءته المتأنية هل تعصبت لبشار وأسرفت في الدفاع عنه .

القاهرة في ١ مايو ١٩٧١

محمد النويهي
أستاذ الأدب العربي
ورئيس هيئة التدريس
الجامعة الامريكية بالقاهرة

القسم الأوّل

الرجـــل

الجانب الأول : ظلام

الصورة الشائعة

رجل غليظ القلب قاس لا يرحم ، يزدري الناس ويسرف في بغضهم ولا يتمنى لهم إلا الشر ، يتلذذ بإيذائهم ويفحش في هجائهم ، لاذع اللسان سفيه سريع إلى الشر ، رجل داعر عظيم الافساد لا يعرف التعفف ، فاجر مفطور على الفجور ، شديد التهالك على النساء هاتك للحرمات لا يردعه دين أو خلق أو استحياء ، عنيف الشهوة غليظها لم تعد شهوته شهوة انسانية بل صارت اندفاعاً حيوانياً شنيعاً يشمئز منه الذوق فضلاً عن الخلق — ثم لا يكتفي بدعارته هو بل يحرض الشبان على الفسق ويغري النساء بالفاحشة .

رجل ثقيل الظل بغيض لاحظ له من لطف الشعور أو خفة الروح ، ليس محبباً ولا جذاباً ولا ليناً رقيق الطبع والحاشية ، بل هو غليظ جهم متبذل مبتذل . رجل مغرور تياه شديد الجبروت والغطرسة ، وهو مع ذلك في صميمه جبان يرتعد فرقاً أمام التهديد فيصير ذليلاً منكسراً ، بل هو أشد الناس في عصره جبناً وفرقاً ، يخاف كل شيء ، يخاف السيف ويخاف السوط ويخاف اللسان .

رجل دنيء خسيس النفس لئيم الطبع ، متلون الرأي ، يمدح ثم لا يلبث أن يهجو ، يهدد الأغنياء بالهجاء إن لم يجودوا عليه ولا يعرف في تهديده معنى للخجل ، غدار خوان لم يخلص لإنسان، يخون أصدقاءه ؛ يشاركهم الالحاد ثم

يهجوهم بالحادهم ، ولا يكتفي بهذا فيدفع عن نفسه تهمة الزندقة بالطريق التي يسلكها الجبناء وأنذال الناس فيتهم بها غيره من خصومه ومن أصدقائه أيضاً — رجل كاذب منافق مسرف في النفاق ، طماع زائد الجشع ، أناني عظيم الأنانية ، يرى أن الخير يجب أن يكون موقوفاً عليه .

أضف إلى هذا كله أموراً ثلاثة : أنه زنديق فاسد الرأي خبيث العقيدة ، وأنه شعوبي يحقد على العرب ولا يخفي حقده ، وأن فظاعته لم تقتصر على الناحية الخلقية بل تجلت في تكوينه الجسمي كذلك ، فقد كان في جسمه أقرب إلى الوحش ، كان ضخم الجثة غليظاً اعمى قبيح العمى بشع الوجه كريه المنظر — فأي صورة تكونها كل هذه العناصر ؟

صورة حالكة تامة الحلكة . ليس فيها بصيص من نور ، صورة إنسان خليق بالاحتقار والمقت الشديد ، لا يستحق قدراً تافهاً من الاشفاق أو التسامح أو المغفرة ، فقد خرج هذا المخلوق عن نطاق الانسانية فليس له أن ينتظر منها صفحاً ولا قبولاً .

فان كنت في شك من هذا فيكفيك أن تعرف أن معاصريه جميعاً كرهوه كرها خالصاً ، حتى إذا مات تباشروا وهنأ بعضهم بعضاً وحمدوا الله وتصدقوا ، وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح ، أفبعد هذا تحتاج إلى تدليل ؟

هذه هي صورة بشار الشائعة لدى أساتذة الأدب ومتعلميه ، وهي صورة مخطئة ، ظالمة ، وعملي في كتابي هذا أن أحاول إثبات خطأها ، ورسم صورة مغايرة أظنها أقرب إلى الصحة وإلى الأنصاف .

ولكني قبل أن أبدأ مناقشتي المفصلة ألفت القارىء إلى حقيقة هامة كان ينبغي أن تكون كافية لحملنا على الشك في هذه الصورة الشائعة ، وهي هذه : إننا لا نستطيع أن نصدق أن إنساناً يبلغ هذا الحد من الشر الكامل الذي لا يخالطه ذرة هينة من الخير ، فهذه الصورة الحالكة التامة الحلكة التي لا نجد فيها

بصيصاً من نور لا يمكن بحال أن تتحقق في إنسان حقيقي من دم ولحم يعيش فعلا في المجتمع الانساني .

نحن بشر ، ليس أحدنا ملكاً ، وليس أحدنا وحشاً ، فان قرأنا عن شخصية ما دراسة تصورها كأنها مجموعة من الفضائل التي لاشية فيها شككنا في هذه الدراسة ، فمثل هذا الفرد الكامل لا وجود له في حقيقة الحياة ، إنما يوجد في الأساطير الشعبية أو قصص المغامرات الرخيصة التي تروج لدى العامة ، والتي تتخذ لحوادثها بطلا يجمع كل المحاسن ويتنزه عن جميع المساوىء ، فيفوز من قراء القصة السذج العقول بأكمل الحب وأتم الأعجاب .

وإن قرأنا عن شخصية أخرى دراسة تصورها كأنها مجموعة من الرذائل التي لا تقترن بنصيب هين من الخير شككنا فيها كذلك ، فمثل هذا الشيطان لا يوجد في واقع الحياة إنما يوجد في نفس الأساطير والمغامرات الخيالية التي أشرنا إليها ، فانها تجمع إلى بطلها الذي يتحلى بكل الفضائل مجرماً أثيماً يتصف بكل المساوىء وتصدر عنه جرائم القصة ومصائبها فيصب عليه قراؤها كل كرههم واحتقارهم .

فهذه الصورة المبالغة في فساد بشار وشره تحملنا — حتى قبل أن نحققها — على الظن بأن الناس قد أخطأوا فهم بشار فتحاملوا عليه ، قدماءهم ومحدثيهم معاً، فعملنا ليس أن نحقق الصورة فحسب، بل أن نبحث عن الأسباب التي دفعتهم إلى هذا الكره التام ، فلعل بحثنا هذا يعيننا بدوره في محاولتنا استكشاف الصورة الصحيحة .

أعمى

العنصر الأول الذي تكونت منه نفسية بشار هو عماه .

نحن المبصرين نتحدث كثيراً عن نعمة البصر وعن مصيبة فقده . ولكن

معظم حديثنا هذا كلام شفاه ، قل منا من يدرك هذه النعمة أو ضخامة فقدها حق الادراك ، اللهم إلا إذا حدث ما يهدد بصرنا نحن بالفقد أو بصر عزيز علينـــا .

وسبب هذا أن معظمنا لا يفكر في هذا الأمر تفكيراً جدياً ، تفكيراً حقيقياً مخلصاً . أغلب ظني أني لو طلبت إلى القراء أن يتدبروا هذه المسألة لابتسم أكثرهم هازئين (١) ، وقالوا هذا شيء بديهي يستطيعه صبي المدارس ويحسن الحديث فيه حين يكلف بأن يكتب موضوعاً انشائياً عنوانه « تصور حال رجل حرم نعمة البصر » ، فانظر أي وصف بليغ يستطيعه ذلك الصبي ، وأي تصوير باك متحسر ، عنيف ثائر .

ولكن هذا عين ما لا أريده ، لا أريد الوصف « البليغ » ولا التصوير الباكي العنيف ، فهذا لن يقود إلى إدراك صادق بل كل ما يؤدي إليه هو الانفعال الكاذب المائع الذي يلجأ إلى حشد عبارات الإنشاء المحفوظة وأكليشهات البلاغة المرصوصة يستعيض بها عن التفكير الشخصي الجاد . ومعظمنا في

(١) وليس هذا مجرد ظن مني ، ففي كتاب سابق حاولت في أحد فصوله أن أطلع القارىء على مدى حزن الوالد الذي يفقد ولده ، وكانت طريقتي أن أقص على القارىء قصصاً واقعية عن آباء وأمهات عرفتهم وأن أسجل ما قالوا وما فعلوا . فكتب مدرس للغة العربية باحدى المدارس الثانوية مقالا عن الكتاب يقول فيه ان هذه الأمور « بدهيات لا تغيب عن عامة الناس » ويقول « وكنت أود من المؤلف قبل أن يقدم على هذه الطريقة أن يكلف الطلاب كتابة موضوع انشائي (عن تصوير حال أم فقدت ولدها) ثم ينظر بعد ذلك في الآفاق التي امتدت إليها أقلامهم » . وهذا دليل محزن على نصيب أغلبنا من فهم الحياة وفهم الأدب ، فهل ادعاؤه صحيح ؟ حين يكلف الطالب بمثل هذا الموضوع لا يجلس أولا يفكر في أحداث حياته هو وحياة أبويه وأقاربه ثم يحاول أن يسطرها بصدق وبساطة ، بل يبادر إلى الأسلوب البلاغي الصاخب الكاذب الذي يحمله عليه مدرسوه الثانويون ، فيحشدلهم حيل البلاغة حشداً ، ويبدي براعته برص التشبيهات والاستعارات والكنايات ، ويحذلق في تنميق العبارات عن فداحة الخطب وهول المصاب ويصف اضطراب الأكوان وهوى النجوم وزلزلة الجبال حزناً على المفقود . وما أبعد هذا كله عن الألفاظ البسيطة الصادقة المؤثرة التي أوردتها عن أم تستغرب موت ولدها وتأبى أن تصدقه . هذه ألفاظ تقطع قلوبنا إرباً ان كنا ممن يهتز للكلام الصادق المعبر عن عاطفة حقيقية ، أما تلك فشعوذة وألاعيب حواة .

بلدانا العربية لا يزال للأسف الشديد يقنع في كل مسائل الحياة والأدب بحشد هذه التعبيرات المنمقة التقليدية لا يحاول تفكيراً حقيقياً من عنده هو ، والنتيجة المحزنة هي أن معظمنا عاجز في معظم أوقاته عن تفهم مصائب الآخرين تفهماً صادقاً ، ومعنى هذا أنه يظل مغلقاً في دائرة نفسه لا يكاد يدرك صلته بالحياة الانسانية الشاملة له ولسواه من بني البشر .

ليس هذا الأسلوب الانفعالي الكاذب هو ما أريده ، بل أن يجلس القارىء جلسة هادئة فيفكر تفكيراً متزناً متمهلاً في كل النعم والملذات والمنافع التي يستطيعها لأنه مبصر ، والتي يحرمها من لا يرى ، ولو فعل ذلك ساعة أو بعض ساعة لأدرك أي رعب حقيقي يستولى عليه من مجرد التفكير في احتمال فقده بصره ، رعب لا تستطيع استثارة معشار معشاره تلك البلاغيات الكاذبة والخطابيات المهرجة ، وليبدأ يتفهم مقدار اللوعة الحقة ، مقدار الحسرة والسخط والأسى ، الذي يداخل نفس كل أعمى .

كل أعمى فهو لا يخلو طول حياته من الحسرة ، ولكن العميان يختلفون في نصيبهم من الحكمة والرضوخ للواقع وقبول ما لا يمكن تغييره . فمنهم من ينتهي إلى كبت حسرته فلا تزيد في معظم أوقاته عن أن تكون أسى دفيناً مختزناً لا يهيج ويشتد الا بين الفينة والفينة ، ومن هذا النوع كان أبو العلاء .

ولكن منهم من يظل هائجاً ساخطاً طول حياته ، وفي كل يوم من أيام عمره ، لا يستطيع أبداً أن يرضى أو يرضخ للأمر الواقع . كل ما يحدث له منذ أن يهب من نومه في الصباح إلى أن يأوى إلى فراشه في المساء يذكره بمصابه ، يذكره بهذه النعمة التي يستمتع بها غيره وهو قد حرمها . ومن هذا النوع كان بشار لسوء حظه .

من هذا النوع كان بشار . ما قبل عماه قط ، بل ظل طول حياته برماً به مغتاظاً ثائراً ، ويكاد هذا يتجلى في كل خبر من أخباره التي بلغتنا ، ولكن قبل أن نتأمل فيها نشير إلى عوامل أخرى اقترنت بعماه فضاعفت عليه من جسامة هذا الرزء .

فأولها أن بشارا لم يكن أعمى عادياً . لم يكن فرداً من سوقة الناس . بل كان ــ كما سترى بعد ــ إنساناً ممتازاً ، مفكراً عميق التفكير واسع الثقافة ، فناناً حاد الاحساس ، شاعراً بارعاً من الطراز الأول . يتأمل هذا الرجل الممتاز في نفسه ، فيرى أنه برغم كل امتيازه ، برغم فكره وثقافته وشاعريته ، قد ضنت عليه الطبيعة بما أسدت إلى غيره من الناس . ثم يتأمل في هؤلاء فيرى أكثرهم رعاعاً أوشاباً أغبياء ، يراهم مخلوقات أقرب في بلادتها وغبائها إلى الحيوان الأعجم. ولكن الطبيعة قد تكرمت عليهم بما بخلت عليه به. أي عدل هذا؟ وهو لو رزق البصر لاستعمله واستفاد منه أضعاف ما يستطيعون، وهم لو حُرموه لما زادهم انحطاطاً أن يزدادوا إلى عمى القلوب التي في الصدور عمى الأبصار التي في الرؤوس .

وثانيها أن بشارا كان مولى، اضطُهد كثيراً من أجل أصله الأعجمي وتعذب صنوفاً من العذاب بسببه . ففكر كيف انضم عماه إلى أعجمية أصله ليزيدا في محنته . ولو كان اعمى عربياً لخف بلاؤه ، أو لو كان مولى مبصراً .

ولنفكر أخيراً في البيئة التي وجد فيها بشار ، وهي بيئة كان يعد فيها العمى نقصاً شديداً بالرجل، لست أعني أنه كان يعد نقصاً جسمانياً فحسب، بل كان يعد نقصاً خلقياً أيضاً . ولكنك لن تحتاج في هذا إلى تفكير طويل، فنحن لا نزال نجد في ريفنا وباديتنا مثل هذه البيئة الساذجة التي تعد عاهة الفرد ذنباً عليه ، تعدها شيئاً مشيناً ، وتستنكرها استنكاراً خلقياً ، وتقرن بين العمى أو العرج أو العور أو غيرها من العاهات وبين رذائل أخلاقية تعتبرها لازمة لها ، وتعتقد أن هذا الفرد لم يبتل بعاهته إلا عقاباً عادلا من الله على إثم لا بد أنه أتاه ، وتنفر من كل ذوي العاهات، لا نفوراً جمالياً فحسب، بل نفوراً خلقياً كذلك .

مثل هذه البيئة تحتقر ذا العاهة وتذمه وتكرهه ، ثم يدفعها هذا إلى أن يؤذيه رعاعها وينالوا منه بالسب بل بالأيذاء الجسمي في كثير من الأحيان ، لأنها لم تصل بعد في صحة التفكير إلى المدى الذي يريها أن ذا العاهة لا ذنب له في

عاهته ، ولم تبلغ بعد في التمييز بين الحكم الجمالي والحكم الخلقي إلى الحد الذي يهديها إلى أن ذا العاهة الجسمية لا يكون بالضرورة وغداً من شرار الناس .

ولعل خير شاهد على هذا أن لفظ « أعمى » لا يزال في لغتنا صفة ذم ، لا نصف بها امرءاً إلا إذا أردنا شتمه ، أما إذا أردنا مجرد ذكر الحقيقة أنه لا يبصر فأننا نلجأ إلى تعبيرات أخرى ، فنقول فلان الكفيف أو فلان الضرير ، أو فلان المتطبع بغيره ، وما إلى هذا من المهارب التي نفر إليها من كلمة « أعمى » . ويزداد هذا وضوحاً إذا قارنت « أعمى » العربية بنظيرتها (Blind) الانجليزية . فنظيرتها الإنجليزية لا تحمل بالضرورة رنة السباب التي تحملها الكلمة العربية . فلك في الأسلوب الأنجليزي أن تتحدث عن معاصر فتذكر أنه (Blind) دون أن يكون في هذا إيذاء له أو نيل منه . ولا أزال أذكر دهشتي وألمي حين قرأت في صحيفة إنكليزية راقية وصفاً لأديب مصري كبير قيل فيه « هذا الأديب المصري الأعمى العظيم » لأني كنت لا أزال أقرن بين اللفظ وبين رنة السباب المقترنة به في العربية .

من هذا كله كان رزء بشار في عماه عظيما ، فلو أنه كان أعمى عاديا لا امتياز له في العقل أو الثقافة أو الذوق الفني لما تعذب كل عذابه . ولو أنه عاش في عصرنا هذا في وسط راق مهذب لما ناله ما ناله من ألوان الأذى بسبب عماه . لست أعني أن هذا الوسط الراقي يرحمه ويغض النظر عن عاهته ولا يسبه بها ، لست أعني هذا وحده ، بل أهم من هذا أن مثل هذا الوسط المتحضر لا يحتقره لعاهته ولا يعدها عليه ذنبا ولا يأخذ نقصه الجسمي عليه جريرة أخلاقية ولا يعتقد أنه لا بد مقترن برذيلة نفسانية .

لا عجب إذن أن نرى بشارا في أخباره التي يرويها القدماء دائم السخط دائب الهياج ، لا يفتأ يتذكر عماه يذكره به كل حدث من أحداث عيشته ، ويذكره به الناس لسبب ولغير سبب ، عن قصد أو عن غير قصد .

فيزيد بن منصور الحميري الذي دخل على المهدي وبشار بين يديه ينشده

قصيدة امتدحه بها ، ثم أقبل عليه بعد أن فرغ منها فقال له : يا شيخ ، ما صناعتك ؟ فأجابه بشار : أثقب اللؤلؤ ! — يزيد هذا لم يكن يتعمد إيذاءه أو تذكيره بعاهته، إنما كان — كما يقولون — شيخا به غفلة. ولكن بشار غاظه هذا السؤال الغبي وتأذى منه كما لو كان الايذاء متعمدا ، فأجابه بهذا التهكم اللاذع . يقولون : — فضحك المهدي ثم قال لبشار : أعزب ويلك ، أتتنادر على خالي ؟ فقال له : وما أصنع به ! يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعرا ويسأله عن صناعته !

وغلامه الذي رفع إليه في حساب نفقته جلاء مرآة عشرة دراهم ، فصاح به بشار وقال : والله ما في الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم . والله لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم — هذا الغلام لا بد أنه دهش من هذه الثورة وتألم لها كثيراً ، فهو لم يذنب ذنباً يبرر هذا الأسلوب الهائج . والحق أن بشارا ليس ساخطاً بالغلام ، ولا هو متأفف من المبلغ الذي عليه أن يدفعه ، إنما هو ساخط على عماه ، ساخط على «الدنيا» و «العالم» و «الشمس»، ساخط على ظلمته التي تحرمه شمس الدنيا ونور العالم ، وتحرمه القدرة على أن ينظر في هذه المرآة فيرى نفسه ، وتهب في نفس الوقت هذه القدرة لخادمه .

وقصة الجام [1] التي تروى عنه :

« كان بالبصرة رجل يقال له حمدان الخراط ، فاتخذ جاماً لإنسان كان بشار عنده . فسأله بشار أن يتخذ له جاما فيه صور طير تطير . فاتخذه له وجاءه به . فقال له : ما في هذا الجام ؟ فقال : صور طير تطير . فقال له قد كان ينبغي أن تتخذ فوق هذه الطير طائراً من الجوارح كأنه يريد صيدها ، فانه كان أحسن . قال : لم أعلم . قال : بلى قد علمت ولكن علمت أني أعمى لا أبصر شيئاً » .

---

(١) الجام : إناء الفضة .

واضح أيضاً في هذه القصة أي سبب حقيقي أغضب بشارا : انه لا يستطيع أن يرى هذه الطير التي صورها الخراط [1] .

وبقية هذه القصة : علام تدل ؟ تستمر القصة :

« وتهدده بالهجاء . فقال له حمدان : لا تفعل فانك تندم . قال : أو تهددني أيضاً ؟ قال: نعم . قال: فأي شيء تستطيع أن تصنع بي ان هجوتك؟ قال : أصورك على باب داري بصورتك هذه وأجعل من خلفك قرداً ينكحك حتى يراك الصادر والوارد . قال بشار : اللهم اخزه ! أمازحه وهو يأبى إلا الجد ! »

يستدل بها النقاد على جبن بشار ولؤمه . وقد نستدل بها نحن على شيء آخر حين نزداد لنفسيته فهما : على عظم إدراكه لبليته في عماه وقبح خلقته ، وشدة تأذيه من إشارة الناس إليها ، تأذياً ليس يصدر عن جبن بل عن فرط حساسيته وإرهاف شعوره .

أما تعمد الناس إيذاءه بذكر عماه فكان كثيراً . يروى صاحب الأغاني لشاعر يهجوه اسمه أبو هشام الباهلي بيتاً شنيعاً لا نستطيع روايته [2] مضمونه أنه يدعى أن سبب عمى بشار هو أن عبداً لأبي هشام اتصل بأم بشار وهو جنين ، ففقأ عينيه وهو في الرحم . وقوة هذا الهجاء تغيب عليك إن لم تدرك أن الناس في عصره كانوا يعتقدون ان هذا ممكن ان يكون ، فهم لم يكونوا يعرفون ما نعرفه الآن من تكوين الجنين وتغليفه ووضعه في الرحم واستحالة حدوث ما يدعيه

---

(١) ولكن نسأل : لم اختار بشار صور طير تطير دون غيرها مما كان يستطيع طلبه من التحلية ؟ لعل عالما نفسانياً لو قرأ هذه القصة لرأى في الطير التي تطير (لاحظ أنها ليست جاثمة على الأرض) محاولة من بشار دون أن يدري في الارتفاع على نقائصه والتحليق فوق همومه ، فلما صورها الصانع فلم يستطع رؤيتها لم يجد بها كفاء ، بل ذكرته مرة أخرى بنقصه الأعظم ، فعاد يتطلب جارحاً يغلبها ويقهرها جميعاً ، ولسنا نحتاج إلى أن نكون علماء نفسانيين لندرك أن هذا الجارح هو بشار نفسه .

(٢) أغاني دار الكتب ١٤١/٣ .

ذلك الشاعر . فلا غرو أن يروي صاحب الأغاني أن بشارا لم يزل منذ قيل فيه هذا الشعر منكسراً .[1]

ولكنك قد تقول : شاعر بذيء يهجو خصماً له بالهجاء العربي المعهود البذاءة ، ولا يستدل بهذا على سائر أهل عصره . فما رأيك في عالم جليل فاضل هو واصل بن عطاء يغيظه من بشار زيغه الديني فيأبى إلا أن يقحم عماه أيضاً فيقول : ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد . ويقول في خطبة خطبها يحرض بها الناس عليه : أما لهذا الأعمى الملحد ، أما لهذا المشنف المكني بأبي معاذ من يقتله ؟ .. الى آخر ذلك التحريض الكريه .

بل هم حين يريدون امتداحه يأبون إلا أن يذكروه بعماه . يقول بشار شعراً جميلاً فيستكثرونه على أعمى . عن الأصمعي قال :

« ولد بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط . وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله . فقيل له يوماً وقد أنشد قوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها » .

---

(١) في مجلة أمريكية تتخصص في أخبار الجنس والجريمة (National Bulletin ، عدد ١٨ مارس ١٩٦٨) ، خبر عن زوج أمريكي من مدينة واشنطن ، كانت زوجته حاملا في شهرها الثامن ، أبت أن تسمح له بمباشرتها برغم تضرعه الكثير ، قائلة : « أخشى أن تفقأ عيني طفلنا أو تبقر بطنه ! » . ولما ألح عليها في أحد الأيام أصرت على الرفض قائلة : « لن أسمح لك بأن تطعن طفلنا ! » فلما ضاق به الأمر اندفع إلى غدارته ، وأطلق رصاصها على بطن زوجته ، فحملت إلى المستشفى حيث استخرجوا الجنين بعملية قيصرية ، ووجدوا وجهه مصابا بالرصاص ، ومات بعد استخراجه بساعتين .

وهكذا نجد في الغرب المعاصر – الغرب الراقي المتقدم – من لا يزالون على نفس الجهل الذي كان عليه بشار ومعاصروه منذ اثني عشر قرناً !

فيجيب بشار جواباً شديد التأثير في نفوسنا ، أو ينبغي أن يكون ، لا يحتد فيه ولا يثور ، ظاهره أنه يشرح لهم المسألة التي سألوها ، وحقيقته أنه يعزي نفسه عن مصابه :

« فقال : إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفر حسه وتذكو قريحته » . ثم ينشدهم قوله :

عميت جنيناً والذكاء من العمى   فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا   لقلب إذا ما ضيع الناس حصلا
وشعر كنور الروض لاءمت بينه   بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا

محاولته تعزية نفسه في هذه الأبيات ظاهرة . والحسرة الكامنة فيها لا تحتاج إلى امعان كثير لكي نتبينها . وقوله «إذا ما ضيع الناس» فيه حنق على القدر الظالم الذي حرمه نعمة أعطاها سائر الناس وهم لبلادتهم وغبائهم ليسوا بها جديرين . يعزي نفسه بثلاثة أشياء : أولها ما يعبر عنه بقوله « عجيب الظن » وهو تعبير فذ ، ويعني « بالظن » ما نسميه الآن ملكة الخيال ، أي القدرة على التخيل الواسع العميق المبتكر .

ويصف خياله هذا بأنه خيال « عجيب » ، وهو وصف جد جميل ، ويعلل هذا الوصف بأنه لما حرم البصر اضطر إلى اشتقاق صور فنية أخرى لا تقوم على هذه الحاسة ليعبر بها عن خواطره فاستكشف وسائل للتعبير جديدة غريبة على المبصرين . وثاني ما يعزي به نفسه أنه جيد الذاكرة « للعلم موئلاً » . ويشرح هذا في البيت الثاني شرحاً لا نحتاج بعده إلى تفصيل . أما ثالث عزاء له فهو شعره ، ومن الطريف أن نلاحظ هنا أنه لا يفخر بشعره التقليدي الذي يجاري به فخامة القدماء ومتانة أساليبهم ، بل يفخر بشعره الحديث المجدد ، شعره السهل المتعمد السهولة . فبشار إذن كان يدرك ميزته الحقة في تاريخ الشعر العربي ؛ ليست فيما بارى به أساليب القدماء فلم يقصر عن شأوهم ، بل هي فيما أتى به من شعر تجديدي سهل .

ولكن هذا كله محاولة في التعزي ان دلت على شيء فعلى فداحة شعوره برزئه . وهي نفس المحاولة التي نجدها فيما يروون عنه إذ يقولون : كان من أشد الناس تبرماً بالناس ، وكان يقول : الحمد لله الذي ذهب ببصري . فقيل له : ولم يا أبا معاذ ؟ قال : لئلا أرى من أبغض .

حتى أصدقاؤه حين يريدون أن يمازحوه :

«قال هلال الرأي، وهو هلال بن عطية، لبشار وكان صديقاً يمازحه: ان الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه بشيء ، فما عوضك ؟ قال : الطويل العريض . قال : وما هذا ؟ قال : ألاّ أراك ولا أمثالك من الثقلاء » .

والأمير العربي عقبة بن سلم ، الذي مدحه بشار بمقطوعات من أروع المديح العربي ، والذي لم يبق لنا ذكره إلا ما قاله بشار فيه من شعر أريحي تهتزله النفوس ، يغضب على بشار لا لسبب سوى صمته في مجلسه . فيقول له في رواية : مالك يا أعمى لا تتكلم ! أعمى الله قلبك !

بل بنية له تؤذيه دون أن تدري . تقول له : يا أبت مالك يعرفك الناس ولا تعرفهم . قال : هكذا الأمير يا بنية . تأمل ما في جوابه من حزن مكظوم ومن حنان ورأفة على طفلته الجاهلة .

ولنختم هذا الموضوع ببيت يستعر حسرة وسخطا ، بيت واحد يضمنه بشار كل تبرمه وغيظه ، وينفس به عن حنقه على القدر الذي حرمه ما وهبه سفلة الناس . وهو البيت الوارد في القصة الآتية :

« كنا مع بشار فأتاه رجل فسأله عن منزل رجل ذكره له ، فجعل يفهمه ولا يفهم ، فأخذ بيده وقام يقوده إلى منزل الرجل وهو يقول :

أعمى يقود بصيراً لا أبالكمــو قد ضل من كانت العميان تهديه

حتى صار به إلى منزل الرجل، ثم قال له : هذا هو منزله يا أعمى .»

فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

من العميان من لا أثر لعماه في تشويه منظره، فعيناه لا تزيدان على أن تكونا مطبقتين كأنه قد أغمضهما ليستسلم إلى النعاس ، أو هما مفتوحتان عاديتا الشكل يخيل إليك أنهما تريان لولا خلوهما من البريق الحي الذي ينعكس في العين المبصرة ، وفي كلا الحالين لا يكون للأعمى منظر كريه تنفر منه النفس.

ولكن بشارا لنكد طالعه لم يكن من أحد الصنفين ، بل كان كما يروي القدماء « جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر ، فكان أقبح الناس عمى وأفظعه منظراً » .

ولم يقتصر خطبه على هذا العمى الشنيع ، بل كان وجهه أيضاً كريه المنظر بما تغشاه من آثار الجدري ، فان كنت رأيت وجه رجل مجدور فانك تعرف مبلغ الدمامة دون حاجة إلى الشرح .

وكأن هذا أيضاً لم يكن كافياً ، فان جسمه كان مفرط الضخامة زائد الطول . فاقرن الآن بين عماه الكريه وبين هذا الجسم الضخم الطويل ، يتبين لك كيف كره معاصروه منظره وخافوه و عبوا منه ، ورأوه أقرب إلى « الوحش » منه إلى الانسان . فهو « كالبعبع » الرهيب الذي تخيف به الأمهات أولادهن . جثة عالية كأنها المارد الجبار ، ضخمة كأنها الفيل العظيم ، فان تطلعت إليها وجدت عليها وجهاً مجدوراً بشعاً وعينين لا نطيل في وصفهما ..

ولسنا نلوم معاصريه لنفورهم الذوقي من مثل هذا الخَلْق ، فهو لسوء حظ صاحبه لا يثير إلا الاشمئزاز والكراهية الجمالية ، ولو وجد في عصرنا لنفرنا منه أيضاً . ولكن المصاب الأجل هو أنهم تعدوا النفور الذوقي إلى النفور الخلقي ، فاعتقدوا أن مثل هذا « الوحش » الممسوخ لا بد أن يكون « وحشاً » من الناحية الخلقية أيضاً . ولو كان بشار أعمى ضئيل الجسم أو عاديّه ، أو ضخم الجثة مبصراً ، لما اجتمع في خلقه ما رأى فيه معاصروه من القبح والتخويف . أما وقد

جمع بين الصفتين ، العمى الكريه والضخامة المفرطة ، فقد وصل سوء حظه إلى نهايته .

وقد طالما عيّره معاصروه بكراهة منظره . يروون عن أحد الكوفيين يقول « مررت ببشار وهو متبطح في دهليزه كأنه جاموس . فقلت له : يا أبا معاذ ، من القائل .

في حلّتي جسم فتى ناحـــــل   لو هبت الريح به طاحـــا

قال : أنا . قلت : فما حملك على هذا الكذب ؟ والله إني لأرى أن لو بعث الله الرياح التي أهلك بها الأمم ما حركتك من موضعك ! فقال بشار : من أين أنت ؟ قلت : من أهل الكوفة . فقال : يا أهل الكوفة لا تدعون ثقلكم ومقتكم على كل حال » .

هذه القصة تبين شيئين : أولهما سوء أدب الكوفي ، يتعرض لبشار بالسباب دون اثارة أو داع وبشار هادىء قار في عقر داره مسالم ، ويأخذ عليه أنه نظم معنى عادياً مألوفاً تراوحه الشعراء واستحلوه جميعاً ضخاماً كانوا أو نحافاً . وثانيهما صبر بشار وكبته غيظه واكتفاؤه بذلك التأنيب المكظوم ، وهو صبر كثيراً ما لجأ إليه .

بل أصدقاؤه أيضاً يثخنون في إيلامه :

« جلس إلى بشار أصدقاء من أهل الكوفة كانوا على مذهبه . فسألوه أن ينشدهم شيئاً مما أحدثه ، فانشدهم قوله :

أني دعـــاه الشـــوق فارتاحـــا   من بعد ما أصبح جحجاحـــا

حتى أتى على قوله :

في حلّتي جسم فتى ناحـــــل   لو هبت الريح به طاحـــا

فقالوا : يا ابن الزانية ، تقول ذلك وأنت كأنك فيل عرضك أكثر من

طولك ! فقال : قوموا عني يا بني الزناء فاني مشغول القلب لست أنشط اليوم لمشاتمتكم . »

تأمل في هذه القصة نفس الحقيقتين اللتين رأيتهما في القصة الماضية .

لكن هناك عاملاً آخر أريد أن أشرحه الآن، زاد من تبرم بشار بعماه ودمامته . وذلك أن بشارا كان – كما سنرى بعد – شديد الشهوة الجنسية ، ثم اجتمعت أسباب مختلفة كثيرة على جعل التلذذ الجنسي ضرورة ألزم له مما تكون للفرد العادي . فكانت عاهته وقبحه عقبة عسيرة دون استمتاعه بمن هويهن من النساء في أحيان كثيرة . وقد سبّب له هذا حسرة شديدة. ونكتفي في هذا الموضوع بقصة واحدة :

« كان النساء المتظرفات يدخلن إلى بشار في كل جمعة يومين ، فيجتمعن عنده ويسمعن شعره . فسمع كلام امرأة منهن فعلقها قلبه وراسلها يسألها أن تواصله . فقالت لرسوله : وأي معنى فيك لي أو لك فيّ ، وأنت أعمى لا تراني فتعرف حسني ومقداره ، وأنت قبيح الوجه فلا حظ لي فيك ، فليت شعري لأي شيء تطلب وصال مثلي. وجعلت تهزأ به في المخاطبة . فأدى الرسول الرسالة، فقال له : عد إليها فقل لها ... »

ويلي ذلك أبيات شديدة الشناعة [1] ، ولست أحاول أن أبرر قول بشار إياها أو أسامحه عليها . ولكن شناعتها ينبغي ألا تنسينا سوء أدب تلك المرأة ، فما كانت تحتاج إلى كل هذا البذاء والتجريح في رفض طلبه . لاحظ أولا أنها لم تكن امرأة شريفة ، فهذه المرأة « المتظرفة » لا ترفض وصال بشار لأن هذا فسق محرم ، بل لأن بشارا أعمى قبيح الوجه . ولو كانت امرأة شريفة لما أطالت كل هذه الأطالة على أي حال ، فانك تكاد تراها في كلامها تنثني وتتخلع في وقاحة جنسية سافرة .

---

(١) أغاني دار الكتب ٣/٢٠٢ .

قالت امرأة لبشار ، وواضح من الرواية أنها بدأته دون ما سبب : ما أدري لم يهابك الناس مع قبح وجهك ! فقال : ليس من حسنه يهاب الأسد ! وهو جواب مفحم نرجو ألا تكون براعته ضاعت على تلك المرأة الصفيقة .

والعجيب أن معاصريه لم ينكروا عليه أن يستمتع بوصال النساء فحسب ، بل أنكروا عليه أن يحب وأن يتغزل في شعره وهو أعمى . وله شعر كثير يحاول أن يرد عليهم وأن يثبت لهم أن الأعمى يستطيع تقدير الجمال والاهتزاز له ، وسنعرض لهذا الشعر بعد قليل .

مولى

كان بشار مولى اضطهده العرب كما اضطهدوا كل الموالي . وهذا عنصر مهما نقل عن أثره في تكوين شخصيته فلن نبالغ . وهو بعد عنصر يستطيع قرائي أن يفهموه دون صعوبة كبيرة إذا أخلصوا التفكير ، فبعض الأمم العربية لا يزال يرزح تحت نير الحكم الأجنبي ، وبعضها لم يتحرر إلا من مدة قريبة ، وجميعها لا يزال يذكر العسف والمهانة التي يوقعها الحكم الأجنبي بالمحكومين . ولكن ما لقيه بشار وسائر الموالي من إذلال العرب واضطهادهم الاجتماعي لا تزال تجد له النظائر في المعاملة التي يلقاها الزنوج من الأمريكيين في الولايات المتحدة ، وتلقاها الأجناس الملونة من البيض في جنوب أفريقيا .

كان العرب في جاهليتهم قوماً شديدي الرعونة والعنجهية ، يعدون ما سواهم من الأمم « أعاجم » أي مخلوقات بكماء لا تتكلم بالكلام البشري ، ثم كانوا شديدي الاعتزاز بالنسب فيما بينهم . ثم جاءهم دين سمح عادل يذهب عنهم حميتهم ويصدهم عن التفاخر بالأنساب . ولقد كان قصد هذا الدين منذ بدايته أن يخلطهم بالأجانب في دعوته الدينية ، فاحترس لهذا أعظم الاحتراس، ومضى يثبطهم عن التعالي على سائر الأجناس البشرية، ويؤكد لهم تساوي هذه الأجناس كلها جميعاً . ولكن العرب بعد أن قبلوا هذا الدين المسوي

لم يراعوا مبادئه بل ضربوا بتعاليمه في هذه المسألة عرض الحائط وأبوا أن يصيروا مسلمين وفضلوا أن يظلوا عرباً .

أبى العرب أن يصيروا مسلمين وفضلوا أن يظلوا أعراباً جاهليين . فالذي لا شك فيه أبداً هو أن الاسلام دين التسوية ، التسوية التامة المطلقة بين جميع معتنقيه ، لا يفرق فيهم بين لون ولون أو بين سلالة وسلالة . وكل قارىء من قرائي يعرف الآيـــات القرآنية والأحـــاديث المتعددة التي ترد في هـــذا الموضوع . من قوله تعالى إنما المؤمنون إخوة (لم يقل إنما العرب إخوة) . وقوله : إن أكرمكم عند الله أتقاكم (لم يقل أعربكم) . وقول رسوله الكريم : كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . وقوله : المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم (تأمل جيداً في كل حكم من هذه الأحكام الثلاثة) . وغيرها من الآيات والأحاديث القاطعة التي لا تحتمل تأويلاً والتي ليس بعد تصريحها تصريح ، فالخطاب في الآيات إلى البشر جميعاً لا إلى العرب وحدهم ، بدليل قوله تعالى : يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

والرسول الأمين على وحي ربه زاد الأمر تفصيلاً باستعماله كلمة « آدم » ، فأحكامه تنطبق على بنيه جميعاً ، ثم ختم حكمه باستعماله كلمتي « عربي » و «عجمي» فقطع آخر مبعث للشك .

فكيف أطاع العرب هذه التعاليم القاطعة ؟ هنا أواجه صعوبة شديدة ، منشأها الحقيقي — إن أراد القارىء مني المصارحة التامة — هو أن الكثيرين منا لا يزالون في صميمهم متشبعين بالروح الجاهلية يغلبونها على روح الاسلام ، فينتصرون للعرب في كل سلوك صدر عنهم وإن كانت به مخالفة بينة لتعاليم الاسلام . فأغلب الفضائل التي لا نزال نعطيها الصدارة في معيارنا الأخلاقي هي الفضائل الجاهلية ، من الأخذ بالثأر ، واعتبار الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى يراق الدم على جوانبه (كم منا استشهد بهذا البيت الوحشي في

مختلف أطوار حياته !) والتفاخر بالكرم الجنوني المسرف الذي ينشأ عن التطاول الاجتماعي لا عن العطف القلبي الصادق ، وأمثالها مما كان الجاهليون يعدونه فضائل ولا نزال نغلبها على مقاييس الاسلام من الصفح والعفو والمرحمة ، والتواضع والرفق وخفض الجناح والصوت ، والاقتصاد والتعقل في الانفاق والتوسط بين الغل الكامل والبسط الكامل (كم من أهل قرانا وباديتنا لا يزالون يسرفون في إكرام الضيف ويفخرون بهذا الاسراف وإن أصاب أهليهم بالضرر البليغ !) ولكنا نكف عن هذا الحديث فلسنا في مجال الوعظ الديني ، إنما نكتفي بأن نقول : إن من أجود الأمثلة على إصرارنا على النعرة الجاهلية انحياز الكثيرين منا إلى صف العرب فيما صدر عنهم من ظلم الموالي .

لا شك عندي أن كثيرين من القراء سينفرون من هذا اللفظ الذي وصفت به العرب ، « الظلم » ، فهم قد قرأوا كثيراً وسمعوا كثيراً عن عدل العرب ، وسيبادرون إلى تذكيري بالوقائع التاريخية التي تبين أن العرب جلبوا إلى الأمم المفتوحة من العدل ما لم تعرفه قبل الفتح العربي بقرون طويلة . وكل هذه الوقائع ثابت لا شك فيه ، ولكن « الظلم » الذي أتحدث عنه وأعنيه هو نوع لا ينفيه « العدل » الذي تدل هذه الوقائع عليه ، فالذي أعنيه هو الظلم الاجتماعي ، أي معاملة العرب كأشخاص لأفراد الرعايا التي دخلت تحت نفوذهم كأفراد بشريين . أما العدل الذي تصوره تلك الوقائع التاريخية فهو العدل القضائي المحض . فلو قتل عربي أعجمياً لاقتص منه القاضي كما لو قتل عربياً مثله ، ولو أصابه بإيذاء جسمي ، أو سرق منه مالا ، أو غمطه في حق من حقوق الملك . فشكاه الأعجمي إلى القاضي ، لأعطاه القاضي نصيبه الوافي من الانصاف دون أن يراعي أعجميته أو عروبة خصمه .

فهذا نوع العدل الذي حققه العرب ، وهو — بالمناسبة — نوع العدل الذي تفتخر بعض الأمم الأوربية الحديثة بأنها حققته في مستعمراتها ، ولكن هل حققوا العدل بالمعنى الشامل الذي أعنيه ؟ أكانوا يعاملون الأعاجم كأنهم بشر مساوون لهم في البشرية ؟ أكانوا يلقونهم في مجالسهم وحفلاتهم ومجتمعاتهم

وأنديتهم على قدم المساواة ؟ أكانوا يعطونهم من الاحترام والأدب ما هو حق كل مخلوق بشري يسمو على الدرك الحيواني ؟ .

أما مبادىء الاسلام في هذا الموضوع فقد رأيتها صريحة قاطعة ، فإن أردت أن تعرف مدى استماع العرب لهذه المبادىء الرفيعة فيكفيك أن تقرأ في الجزء الثاني من العقد الفريد الفصول الأربعة التي يختم بها كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب ، لترى شيئين : كيف عامل العرب الموالي ، سواء من العرب عامتهم وخاصتهم ، رعاعهم وفضلاؤهم ، سوقتهم وحكامهم . وكيف حاول بعض مفكري العرب أن يؤولوا الآيات والأحاديث كي يتخلصوا من أحكام الإسلام في التسوية المطلقة بين الأجناس بالسفسطة المحضة . وإلا فما ترى في القطعة الآتية ؟ أليست سفسطة خالصة ؟ :

« رد ابن قتيبة على الشعوبية . قال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب : وأما أهل التسوية فان منهم قوماً أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث ، فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه . فذهبوا إلى قوله عز وجل : يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . وقوله : إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، وإلى قول النبي عليه الصلاة والسلام في خطبته في حجة الوداع : أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالاباء ليس لعربي على أعجمي فخر إلا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب . وقوله المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم . وإنما المعنى في هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواء في طريق الأحكام والمنزلة عند الله عز وجل والدار الآخرة !! لو كان الناس كلهم سواء في أمور الدنيا ليس لأحد فضل إلا بأمر الآخرة لم يكن في الدنيا شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول !!! الخ ... » .

أما معاملة العرب للموالي فيكفي في توضيحها أن أنقل هذه الفقرات من العقد الفريد ، ويجب ان تلاحظ انها ليست مظالم اخترعها الموالي وألصقوها

بالعرب ، بل هي ما يقره العرب أنفسهم بل هم يسوقونها فخورين بهذا الإذلال الذي كالوه للموالي :

« وقدم نافع بن جبير بن مطعم رجلاً من أهل الموالي يصلي به ، فقالوا له في ذلك ، فقال انما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه . وكان نافع بن جبير هذا إذا مرت به جنازة قال من هذا ؟ فاذا قالوا قرشي قال واقوماه ، وإذا قالوا عربي قال وابلدتاه ، وإذا قالوا مولى قال هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء . وكانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى . وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون في الصف معهم ولا يتقدمونهم في الموكب ، وان حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ، وان أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه في طرف الخوان لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب . ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان الذي يحضر غريرا . وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها وانما يخطبها إلى مواليها فان رضي زوج والا رد ، فان زوج الأب أو الأخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح ، وان كان قد دخل بها كان سفاحاً غير نكاح ... وروى أن عامر بن عبد القيس في نسكه وزهده وتقشفه وإخباته وعبادته كلمة حمران مولى عثمان بن عفان عند عبدالله بن عامر صاحب العراق في تشنيع عامر على عثمان وطعنه عليه ، فأنكر ذلك ، فقال له حمران : لا كثر الله فينا مثلك ، فقال له عامر : بل كثر الله فينا مثلك . فقيل له : أيدعو عليك وتدعو له ؟ قال : نعم ، يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحركون ثيابنا ، فاستوى ابن عامر جالساً وكان متكئاً فقال : ما كنت أظنك تعرف هذا الباب لفضلك وزهادتك ، فقال : ليس كل ما ظننت أني لا أعرفه لا اعرفه ... » .

يتجلى في هذه الفقرات مقدار استهانة العرب بالموالي ، فهم لم يعاملوهم كأنهم خدم أو عبيد بل عاملوهم كأنهم حيوانات أحط من جنس الانسان فسووهم بالحمار وبالكلب . ويتضح أن الذين اضطهدوا الموالي لم يكونوا رعاع العرب وحدهم بل نفر من جلة علمائهم وأفاضل عبادهم ونساكهم . ويتبدى أيضا أنهم لم

يقصروا احتقارهم على سوقة الموالي بل أنزلوه برجال الفضل والعلم منهم . فإن يكن منا من يقر هذه المعاملة ويرى مطابقتها لروح الإسلام ونصوصه فهو متعصب أعمته النعرة البغيضة فآثر تعصبه الجاهلي على دينه الاسلامي .

وإليك نصا آخر ينقله [1] الأستاذ أحمد أمين عن الأصفهاني : « كانت العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية إذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه . وكان إذا لقيه راكبا وأراد أن ينزل فعل». وتصور مولى جليلا فاضلا راسخ القدر في العلم يلقاه وضيع من أوشاب العرب فيجرعه هذه المهانة . تصور ماذا يكون شعوره .

فإن أردت نظيراً لهذه المعاملة في عصرنا الحديث فاقرأ القطعة الآتية أترجمها لك من مقالة نشرت بصحيفة انجليزية [2] يتحدث فيها الكاتب عن اضطهاد الأوربيين للشعوب الملونة في جنوب أفريقيا ، فيصف جهود الحكومة في العزل التام بين الأجناس البيضاء والأجناس الملونة كأن هذه نجس يتحاشى البيض أن يدنسهم :

«محطات السكك الحديدية لها أبواب منفصلة وشبابيك للتذاكر منفصلة ، والقطارات بها عربات معزولة ، وبالمحطات كراسي معزولة بل في داري البرلمان كراسي معزولة أيضاً . وفي دور البريد شبابيك منفصلة وأكشاك التليفون أيضاً فيها فصل ؛ وفي العربات العمومية (أتوبيس)مقاعد معزولة . وغير الأوربيين لا يسمح لهم بالاستحمام على شاطىء البحر إلا في «بلاجات»منفصلة تكون في العادة قذرة ، ويحرم عليهم دخول البلاجات الواسعة الجميلة المخصصة للبيض . وفي الألعاب الرياضية بجميع أنواعها يحشد غير الأوربيين في حظيرة منفصلة ولا يسمح لهم أبداً بمباراة الأوربيين ... كذلك الفنادق ، والمطاعم ، والمقاهي ، وكل دور

(١) ضحى الاسلام طبعة ثالثة ١/٢٦ ، وليرجع القارىء إلى هذا الفصل الجيد ففيه أمثلة أخرى كثيرة.
(٢) New Statesman and Nation عدد ٥ أغسطس سنة ١٩٥٠ صفحة ١٤٤ .

السينما الراقية ، ومعظم المسارح ، تغلق أبوابها إغلاقا تاما دون غير الأوربيين »[1] .

والعجيب أننا إذ نقرأ هذا الكلام يغلي دمنا غضبا وسخطا على اضطهاد البيض للملونين ، ونصرخ بأعلى صوتنا ضد الاستعمار وآثام الاستعمار وظلم الاستعمار ، ثم يقرأ بعضنا عن استذلال العرب لغير العرب فيرضون به ويبررونه ولا يستثير فيهم غضباً ولا استنكارا . والحقيقة أنه إن كانت النعرة الجنسية قبيحة فهي كذلك بجميع أنواعها ، والذي يستنكر نعرة الأوربيين ولا يستنكر نعرة العرب رجل ما أبعده عن الأنصاف .

ولكن دعك من الانصاف والعدل والأنسانية . إن رضى أحدنا بانتهاكها فهل يرضى أيضاً بتحدي قوانين الشريعة الأسلامية في مثل المسألة الّتي تدور حولها القصة الشنيعة الآتية ؟ يرويها صاحب الأغاني في سيرة الشاعر البدوي الأموي محمد بن بشير الخارجي [2] :

« قدم أعراب من بني سليم أقحمتهم السنة إلى الروحاء فخطب إلى بعضهم رجل من الموالي من أهل الروحاء فزوجه ، وركب محمد بن بشير الخارجي الى المدينة وواليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن اسماعيل بن هشام بن المغيرة ، فاستعداه الخارجي على المولى ، فأرسل إليه ابراهيم والى النفر المسلمين ففرق بين المولى وزوجه وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه . »

فيمدحه محمد بن بشير بقصيدة يقول فيها : قضيت بسنة وحكمت عدلا . قضى بسنة وحكم عدلا ! أي سنة قضى بها وأي عدل حكم ؟

---

(١) لو سمح لنا الفراغ لنقلنا أوصافا أخرى كثيرة لما يحدث في جنوب أفريقيا وما يحدث في أمريكا ، وهناك عزل أشنع لم يذكره الكاتب وهو الذي يحدث في الكنائس ! حتى في العبادة أمام الله رب الناس جميعاً لا يسمحون للزنجي أو الملون بمخالطة سادته البيض ، ومن يدرينا لعل القس يقوم على منبره فيتلو عبارات الإنجيل في العدل والمساواة . ونظير هذا فعله العرب حين كانوا يقدمون العربي الغرير على المولى المسن في الصلاة على الجنائز .

(٢) أغاني ساسي ١٤/١٤٤

ولكن دعك من العدل فمقاييسه قد تختلف وقد يتجادل فيها وخبرني هل يجيز الاسلام مثل هذا التفريق في زيجة شرعية صحيحة ؟ أو يحرم الأسلام زواج العربيةالمسلمة بالمولى المسلم لمجرد أنه مولىإن لم تكن هناكمبطلات أخرىللزواج؟[1] بل نظير هذا تجده في القانون الذي سنته حكومة جنوب أفريقيا سنة ١٩٥٠ تحرم فيه زواج البيض والملونين .

ولو سمح لي حجم الكتاب لملأت خمسين صفحة أخرى بأمثال هذه الشواهد ، ولكني أكتفي بما تقدم وبإحالة القارىء إلى المرجع الذي ذكرته فسيجد فيه أمورا أخرى .

كان من الموالي أفراد استكانوا للظلم العربي ، كما أنه كان منا أفراد رضوا بالظلم الأوربي وصاروا للاستعمار أذنابا . ولكن الموالي كان منهم أيضاً رجال أبت

---

(١) في الإجابة على هذا السؤال اقتبس السطور الآتية من مقالة بعنوان « المجتمع الاشتراكي والتفرقة العنصرية » ، كتبها الدكتور عبد العزيز كامل في مجلة « الرسالة » ، القاهرة ١٩٦٥/٣/٤ .
بعد أن ذكر ما جاء في هذا الموضوع من الآيات البينة والأحاديث النبوية القاطعة ، قال :
« وجاءت حياة الصدر الأول من أصحاب نبينا تطبيقات عملية على هذه الأصول العريضة .
فعمر بن الخطاب يقول : « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فان من قصر به عمله لم يسرع به نسبه . » وتزوجت اخت عبد الرحمن بن بن عوف — من اشراف قريش — من بلال بن رباح ، وكان رقيقا اشتراه ابو بكر ثم اعتقه .
وفي هذا يذكر الامام ابن حزم في كتابه المحلي « واهل الاسلام كلهم اخوة ، لا يحرم على ابن من زنجية نكاح ابنة الخليفة الهاشمي » ، ثم قال بعد ان عرض اقوال الفقهاء : والحجة في ذلك قول الله ... انما المؤمنون اخوة . وقال الامام مالك : « الكفاءة في الدين لا غير » .
والأئمة يستندون في تكافؤ المسلمين إلى اصول هذا الدين ، ومن هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام : « اذا اتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير . » رواه الترمذي . وقال الامام الشافعي : « لم يثبت في أعتبار الكفاءة بالنسب حديث . »
ويمكن لمن شاء التوسع في هذا الموضوع ان يرجع اليه في امهات كتب الفقه كالمحلي لا بن حزم في الجزء العاشر ، وفي نيل الأوطار للشوكاني في الجزء السادس . »

فأين من هذا كله تفريق ذلك الوالي بين المولى وزوجته وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ؟ واين منه قول ذلك الشاعر في عمل الوالي « قضيت بسنة وحكمت عدلا » ؟

كرامتهم البشرية أن يعاملوا كالكلاب والحمير ، أبوا أن يذلوا لهذا التعدي فثاروا عليه ولقوا في ثورتهم هذه صنوف الاضطهاد . ومن هؤلاء بشار .

وهنا أنبه القارىء إلى أن جزءاً عظيماً من الكراهية التي أثارها بشار في نفوس معاصريه كان راجعاً إلى اصراره على المحافظة على كرامته البشرية ، ورفضه أن يرضخ لتلك المهانة .

ولا بد أن يدرك القارىء أن بشاراً لم يبادىء العرب بالخصومة والتعالي ، بل هو قد بذل جهداً كبيراً في مجاملتهم إلى الحد الذي ترضى به كرامته ، فلما اتضح له من طول ازدرائهم به وتغطرسهم عليه أنهم لن يكتفوا بذلك ، اذ ذاك ثار وأعلن ثورته .

فالقدماء يروون له شعرا يجامل فيه العرب ولا يطعن فيهم . يروي راوية بشار عنه :

«قال . لما دخلت على المهدي قال لي : فيمن تعتد يا بشار ؟ فقلت : أما اللسان والزي فعربيان ، وأما الأصل فعجمي ، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

ونبئت قوماً بهم إحنة ... يقولون من ذا وكنت العلم
الا أيها السائلي جاهدا ... ليعرفني أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بني عامر ... فروعي وأصلي قريش العجم
فإني لأغني مقام الفتى ... وأصبي الفتاة فما تعتصم »

لاحظ أولا هذا السؤال الذي يجبهه به المهدي دون ما مسبب : فيمن تعتد يا بشار ؟ وأقل ما يقال فيه أنه سؤال عديم اللباقة ، فهو يعرف جيد المعرفة أنه مولى ، هذا ان لم يكن يتعمد النيل منه ، وهو فرض قد يؤيده مخاطبته إياه باسمه دون كنية . ثم لاحظ تأدب بشار في الجواب ، ومجاملته العرب في رده النثري وفي شعره ، يعتز بأصله الأعجمي ولكنه لا يغمط مولليه العامريين حقهم من الثناء . ثم

أقرأ بقية القصة [1] لتدرك مدى تمسكه بعزة نفسه حتى أمام المهدي لا يخشاه ، حتى هابه المهدي فلم يرد عليه .

ويروون له شعراً آخر [2] يمدح فيه قيس عيلان ، والعجيب أنهم يسوقون هذا الشعر شاهدا على تلونه ونفاقه ! ولكن بشارا ما فتئت تحدث له أمثال الحادثة الآتية :

« دخل أعرابي على مجزأة بن ثور السدوسي وبشار عنده وعليه بزة الشعراء . فقال الاعرابي : من الرجل ؟ فقالوا : رجل شاعر . فقال : أمولى هو أم عربي ؟ قالوا : بل مولى . فقال الاعرابي : وما للموالي وللشعر ! فغضب بشار وسكت هنيهة ، ثم قال : أتأذن لي يا أبا ثور ؟ قال : قل ما شئت يا أبا معاذ . فأنشأ بشار يقول : [3]

١ ــ خليلي لا أنــام على اقتسار ولا آبَى على مــولى وجــار

بقوله «خليلي» يوجه الخطاب الى الأمير العربي ، مبالغة منه في التأدب . ولعلك لاحظت أن الأمير قد كنى بشارا بكنيته ولم يسمه باسمه ، أدبا منه . يقول بشار : لا أصبر على ضيم يراد إرغامي عليه ، لكن ليس معنى هذا انني شخص متكبر ، فأني أخفض جناحي لمولاي وجاري .

٢ ــ سأخبر فاخر الأعراب عني وعنــه حين تــأذن بالفخــار

يسجل أن ذلك الأعرابي كان البادىء بالفخر ، ويكرر أنه لا يرد عليه فخره إلا بعد أن أذن الأمير السدوسي .

٣ ــ أنا ابن الأكرمين أبا وأمــا تـنازَعني المَرازِبُ مــن طُخار

---

(١) أغاني دار الكتب ١٨٣/٣

(٢) انظر قصيدته الطويلة « جفا وده فازور أو مال صاحبه » الديوان ٣٠٥/١

(٣) نقلنا القصيدة من الديوان ٢٢٩/٣ ، والأغاني لا يحتوي الا عشرة أبيات منها ، الا اننا فضلنا رواية الأغاني في بعض المواضع ، كما اننا أبدلنا الفاعل والمفعول به في رواية الديوان للشطر الثاني من البيت السادس .

تنازعني أن تنافسوا في نسبتي اليهم لفضلي . المرازب جمع مرزبان وهو الرئيس من الفرس . طخار اسم القبيل أو الشعب الذي يسكن طخار متان .

٤ ــ نُغاذَى الدَّرْمَكَ المنفوط عزّاً   ونشرب في اللُجَيْن وفي النُضار

نطعم الدقيق الفاخر المطبوخ في القدر ، ونشرب في أوان من الفضة والذهب . إشارة إلى فقر البدو في طعامهم وماعونهم .

٥ــ ونركب في الفريد إلىالندامى   وفي الديباج ، للحرب ، الحِبار

الفريد الجوهرة النفيسة ، والدر إذا نظم وفصل بغيره . الديباج الحرير الموشى . الحبار جمع حبرة (بكسر الحاء وفتح الباء) نوع من برود اليمن : يمضون في هذه الثياب النفيسة إلى مجالس الشراب وإلى الحرب على سواء .

٦ــأُسِرْتُ، وكم تقدمَمنأسير   يزيّن وجهَه عقدُ الإســـار

يشير بأسره إلى فتح العرب لفارس . ويقول إن الأسر لا يشين البطل لأنه يدل على ثباته في المعركة وعدم هربه ، بل هو يزينه . وسيستشهد في البيت التالي بأمثلة من تاريخ العرب أنفسهم .

٧ــ ككعبٍ أو كبِسطام بنقيس   أُصيبا ثم ما دَنِســا بعــار

يقترح شرح الديوان كعب بن زهير بن جشم التغلبي أحد فرسان أيام البسوس ، لكنه لا يؤكده ، ولم نستطع تحقيقه . بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني من بكر بن وائل ، فارس بكر وسيدها كلها ، أسر يوم الغبيط في غارة له على بني مالك بن حنظلة ، من تميم . وافتدى بأربعمائة بعير وثلاثين فارسا .

٨ ــ فكيف ينالني ما لم ينلهم ؟   أَعِدْ نظرا فإن الحق عــاري

عاري أي واضح مكشوف لا يغطيه شيء .

٩ ــ إذا انقلب الزمان علا لعبد   وسفّل بــالبطــاريق الكبــار

البطريق قائد الجيش الرومي ، واستعمله العرب للرجل المختال المزهو .

١٠ ــملكناكم فغطّينا عليكــم ولم نَنْصِبكمو غرضـا لزاري

يشير إلى سيادة الفرس على عرب الحيرة وما يجاورها قبل الاسلام ، ويقول انهم كانوا يعاملون العرب المحكومين معاملة كريمة ، ويسترون عوراتهم ؛ ولا يجعلون منهم هدفا لزار يزري عليهم أي عائب يعيبهم . فكيف يعاملهم العرب الآن ؟

١١ ــ أحين كُسيتَ بعد العري خزّاً ونادمتَ الكرامَ على العُقـــار

واضح أنه يعني بخطابه الأعراب وحدهم ، وواضح أيضا أنه يعني بالكرام، لا الفرس فحسب ، بل المتحضرين المهذبين من العرب .

١٢ ــ ونلت من الشبارق والقلايـا وأعطيت البنفسج في الخمـــار

الشبارق ما اقتطع من اللحم صغارا وطبخ. القلايا جمع قلية (بفتح فكسر) اللحم المقلي. في الخمار اي لمداواة الخمار ،وهو ما يصيب شارب الخمر من صداع ، كانوا يداوونه بشراب يصنعونه من زهر البنفسج .

١٣ ــ تفاخر ــ يا بن راعية وراع ــ بني الأحرار ؟ حسبك من خسار

كان الفرس يتسمون ببني الأحرار . وقد زاد بشار ايضاحا أنه يعني البدو وحدهم .

١٤ ــ لعمر أبي لقد بُدّلْتَ عيشا بعيشك ، والأمور إلى مجـاري

كذلك تجري أمور الدهر ولا تبقى على حال .

١٥ ــوكنتَ إذا ظَمِئتَ إلى قَراح شَرِكت الكلبَ في وَلْغ الإطار

القراح الماء الصافي . الإطار يعني به كل ما كان يحفر حول البيت لتصريف المياه القذرة . والبدو يضطرون إلى مشاركة الدواب في شرب الماء بأي حفرة لقتله في صحرائهم .

١٦ ــ تُريغ بخُطبة كَسْرَ الموالي وترقص للعصير وللسمـــار

أراغ أراد وطلب ، والمعنى انك تظن أنك تستطيع اذلال الموالي بمقالة تقولها . العصير الخمر المعصورة من العنب . السمار جمع سامر وهو المسامر في مجلس الليل . ومعنى الشطر الثاني أنك لا تستطيع أن تحتفظ بوقارك حين تشرب الخمر في مجلس السمر ، وذلك لأنك محدث النعمة ، وهذا برغم كل ما تبديه الآن من تعاظم عليّ .

١٧ـ وتَقضَم هامةَ الجُعَل المصلّي   ولا تُعنَى بدُرّاج الديـــار

تأكل بشهية رأس الخنفساء السوداء بعد أن تشويها على النار ، أما الدراج المربى في البيوت (كالحمام) فلا تحفل بأكله . لأنه لم يتعود أكله إلا ذوو النعمة المترفهون . وفي سيرة الراجز رؤبة بن العجاج (أغاني ج ٢١) أنه ليم على أكله الفأر ، فقال : « هو والله أنظف من دواجنكم ودجاجكم اللواتي يأكلن القذر ، وهل يأكل الفأر إلا نقى البر ولباب الطعام ! » والأعراب لفقرهم يكادون يأكلون كل شيء تصل اليه أيديهم ، من الجرذ والضب والثعابين الخ .

١٨ ـ وتُدْلِج للقنـافذ تدَّريهـا   ويُنسيك المكارمَ صيدُ فـــار

تنتهز مجيء الليل لتسير متخفيا إلى القنافذ حتى تصيدها ختلا .

١٩ ـ وتَغبِط شاويَ الحِرباء حتى   تروح اليــه من حُب القُتــار

تغبط تحسد . القتار رائحة الشواء .

٢٠ ـ وتَرتعد النِقادَ أو البُكاعَى   مسارقةً ، وترضى بالصَغـــار

ترتعد مسارقة أي تدخل متلصصا وأنت ترتجف خوفاً لتسرق النقاد ، جمع نقد (بفتحتين) وهو صنف من الغنم قبيح الشكل . والبكاعى جمع بكعاء وهي الشاة القطعاء أي التي قطع عضو من أعضائها .

٢١ ـ وتغدو في الكِراء لنيـل زاد   وليس بسيد القوم المُكـــارى

الكراء المؤاجرة . والمكاري من يأخذ أجرا على استعمال مطيته .

٢٢ —مقامك بيننـا دَنَس علينا فليتك غائب في حَرِّ نـــار

٢٣ —وفخرك بين يربـوع وضبٍّ على مثلي من الحَدَث الكبـار !

هنا فضلنا رواية الديوان . ورواية الأغاني : بين خنزير وكلب .

هذه قصيدة تفيض بالسخرية اللاذعة وتتلظى بالغضب المستعر . ولكن أي غضب هو ؟ هو غضب النفس الأبية لا تقبل الهوان ، والرجولة الحقة ترفض الإذلال . لاحظ أولا من البادىء في هذه القصة . هذا بشار يجلس في مجلس الأمير العربي آمنا مسالما ، فيدخل عليه ذلك الأعرابي الجلف الأرعن ، ويأبى إلا اساءته دون ما استفزاز . ثم لاحظ أدب بشار ، يستأذن الأمير العربي أولا ، فلما أذن له قصر ذمه ، حتى في هذه الحالة النفسية الهائجة ، على الأعراب ولم يعمم الحديث على العرب .

فإن أردت أن تفهم عاطفة هذه القصيدة حق الفهم فلا بد أن تتذكر أن بشارا لم يكن مولى عاديا ، بل كان مفكرا ممتازا ومثقفا واسع الثقافة ، وكان شاعرا في اللغة العربية من أقطاب شعرائها . والذي لا شك فيه أن اتقانه للسان العربي ، وبصره باللغة وأسرارها ، وامتلاكه للأسلوب العربي وقدرته على تصريفه ، وعلمه بتاريخ العرب وأخبارهم ، وحفظه لنثرهم وشعرهم ، واتقانه للعلوم الإسلامية وعلم الكلام بخاصة ، كان أعظم بكثير مما أتيح لذلك الأعرابي الجاهلي الشرس المعتز بمجرد عروبته ، والذي لم يحفظ التاريخ مجرد اسمه . ولعل أجادته للثقافة العربية الأصيلة أجدر بأن يعتز هو بها من ذلك الأعرابي القح وإن كان أصله نصف فارسي ونصف عربي .

وهذا هو الذي يغيظ بشارا أكبر الغيظ ، أن يفخر عليه مثل هذا البدوي الجاهل الخشن . لو فخر عليه عربي مثقف لما آلمه بهذه الدرجة من الإيلام (١) .

(١) تذكرني هذه القصة بما حدث لي في سني اقامتي بالسودان ، حين كان لا يزال تحت الحكم البريطاني . اذ أهانني أحد الانجليز دون ما سبب صدر مني . وكان كلامه ينبىء بأنه احد « الكوكنيز » ، وهم الطبقة الجاهلة من سكان لندن ، الذين يرتكبون في حديثهم شنائع الأخطاء النحوية ويسيئون نطق الحروف الصامتة والصائتة. وفي حرارة غضبي كتبت شكوى إلى أحد كبار المسئولين، لم —

لا غرابة أن ينتهي بشار إلى كره العرب جميعا ، إذ تكررت عليه أمثال تلك الإهانات طوال حياته . نحن لا نبرر ما صار اليه من حقد شعوبي على العرب كجنس من الأجناس البشرية ، لكن نقول فقط أنه أمر مفهوم وغير غريب .

لكن بشارا لم يتسرع إلى ذلك الحقد . فالقصيدة الآتية [1] ، وإن كان الفخر فيها موجها إلى «جميع العرب» ، تقتصر هي الأخرى على ذم الأعراب وحدهم ، كما أنها في القسم الأخير منها تفخر بأن الفرس هم الذين أعادوا الملك إلى مستحقيه من « أهل النبي العربي» ، وبأنهم يغضبون لله وللاسلام أعظم الغضب . ولا شك أن أكثر الفرس الذين أسلموا قد حسن إسلامهم ، بل «تعصبوا» له بما يفوق ما حدث من كثيرين من العرب :

١ ــ هــــل مـــن رسول مخبر — عني جميع العــــــــرب
٢ ــ من كـــان حيـــا منهمو — ومــــــن ثــوى في التُرُب
٣ ــ بــــأنني ذو حسب — عـــــال على ذي الحسب
٤ ــ جدي الذي أسمو بــــه — كسرى ، وســاســان أبي
٥ ــ وقيصرٌ خـــــالي إذا — عددت يومـــــــاً نسبي

هنا يتطرف بشار في فخره ، فلا وجه لانتسابه إلى الروم ، فقد كانت أمه عربية من بني عقيل بن كعب بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان من مضر . إلا أن يكون أحد آبائه قد تزوج بامرأة رومية ، وهو ما لم يثبت . ولعله انما يجمع بين الفرس والروم بجامع الملك والحضارة الذي سبقوا اليه العرب .

٦ ــ كم لي وكم لي مـــن أب — بتـــاجـــــه معتصِب

= أسأله فيها معاقبة ذلك الرجل ، بل سألته أن يجمع بيني وبينه في امتحان لنصيب كل منا في من اتقان اللغة الانجليزية قراءة وكتابة ونطقا ، والالمام بآدابها ومعارفها ، وقلت : كفاني هذا اثباتا لعدم جدارته بأن يفخر علي بكونه انجليزيا !

(١) الديوان ١/٣٧٧ . وشرح الديوان لهذه القصيدة ، وللقصيدة السابقة ، يبدو لنا مخطئا في بعض المواضع ، ناقصا في الكثير منها ، كما أنه يهمل تماما أبياتا نظنها غامضة تحتاج إلى تفسير .

كثيراً ما افتخر بشار بأن آباءه كانوا من ملوك الفرس ، وقد اصطنع – أو اصطنع له الشعوبيون – نسبا طويلا يحتوي على عدد من أعظم ملوك الفرس القدامى وأشهرهم في تاريخ الفرس وأساطيرهم . وهو واضح التزوير ، فما كان الفرس يعنون بالأنساب عناية القبائل البدوية بها . وملوكهم الساسانيون أنفسهم – وهم ملوكهم عند مجيء الاسلام – لم يتصلوا بصلة نسب حقيقية بأولئك الملوك القدامى . وهذه من بشار محاولة خليقة بالرثاء له ، فإلى هذا الحد اضطره فخار العرب عليه .

٧ – أَشْوَسُ في مجلسه يُجْثَى له بالرُّكب

أشوس : ذو كبرياء . بالركب : على الركب .

٨ – يغدو إلى مجلسه في الجوهر الملتهب

يعني الياقوت الأحمر ، وهو شديد التوهج ، وهو من أنفس الجواهر جميعاً .

٩ – مُستفضِل في فَنَك وقائم في الحُجُب

مستفضل : يلبس أردية طويلة فضفاضة . الفنك حيوان صغير يشبه الثعلب كانوا يعدون فروته اطيب انواع الفراء يلبسها الملوك والسادة .

١٠ – يسعى الهَبانيق له بآنيات الذهب

الهبانيق جمع هبنق (بضم فسكون) وهبنوق وهبنيق ، وهو وصيف الملك .

١١ – لم يُسْقَ أَقطابَ سِقىً يشربها في العُلَب

اقطاب جمع قطيب وهو الشراب الممزوج . سقى جمع سقية (بكسر فسكون) ويعني بها ما يشرب من شراب . اي يشرب الخمر الصرف الخالصة غير المخلوطة . العلب جمع علبة وهي قدح ضخم من جلود الابل او الخشب يحلب فيها ، والمعنى انه لم يكن يشرب اللبن كالبدو ، وسيأتي ابو نواس فيذم الأعراب بأن شرابهم اللبن لا الخمر .

١٢ – ولا حدا قط أبي خلفَ بعيرٍ جَرِب

١٣ ـ ولا أتـى حَنظلـة بثقبهـا مـن سَغَـب

الحنظل ثمر شجر صحراوي شديد المرارة لا يأكلونه الا في المجاعة . يثقبها يكسر قشرها ليستخرج حبها من داخله .

١٤ ـ ولا أتـى عُرْفُطـة يَخبِطهـا بالخَشـب

العرفط نبت ترعاه النحل فتعطى عسلا كريه الرائحة . وقد حرمها النبي عليه السلام على نفسه في حديث مشهور . يخبطها ليطرد النحل ثم يأكل منها .

١٥ ـ ولا شَوَينـا وَرَلاً مُنَضْنِضـا بالذَّنَب

الورل ضب ضخم سام . نضنض الضب ذنبه والثعبان لسانه حركه . يعني انه يقاومهم بذنبه وهم يحاولون الإمساك به .

١٦ ـ ولا تَقصَّعـتُ ولا أكلـت ضبَّ الحِـزَب

التقصع حفر التراب من جحر اليربوع لاستخراجه من جحره المسمى قاصعاء . الحزب جمع حزب وحزباءة (بكسر في كلتيهما) وهي الأرض الغليظة .

١٧ ـ ولا اصطـلي قـطُّ أبى مُفَحِّجـاً للَّهَب

التفحج التفريج بين الرجلين .

١٨ ـ ولـم بايـد نميـا ولا هـوى للنُصُـب

يبدو أن بالشطر الأول تحريفاً كبيراً لم نستطع حزر تصحيحه . اما الشطر الثاني فيفخر بأن الفرس لم يكونوا من عبدة الأنصاب كالعرب في جاهليتهم .

١٩ ـ كلاّ ، ولا كـان أبـى يركب شَرْجَيْ قَتَـب

الشرجان قطعتا الخشب تشرج احداهما بالأخرى اي تضم اليها لصنع القتب وهو ما يوضع على ظهر البعير ليركب عليه .

٢٠ — إنّا ملـــوك لــم نزل في سالفــات الحقَــــب
٢١ — نحــن جلبنــا الخيل من بَلْخٍ بغيــــر الكــذب

يبدأ هنا الفخر بأن الفرس هم الذين نصروا الدولة العباسية . بلخ دار الامارة في خراسان ، وفي خراسان بدأت الدعوة العباسية ، وقويت على يد رجل من بلخ .

٢٢ — حتى سقيناهـــــا ومــا نُبْدَهُ نهــرَيْ حلَب

يصف تتبع الجيش العباسي لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في هربه . ما نبده اي ما يفاجئنا الاعداء . في حلب نهر واحد هو نهر قويق ، لكن العرب تثنى اسم المكان كثيراً دون ان تعني تثنية ، الا ان تكون الرواية تحريفاً لـ « نهر » ، وبالمفرد يصح الوزن ايضاً مع دخول الخبن (حذف الحرف الثاني الساكن من التفعيلة) .

٢٣ — حتى اذا مــا دوّخــت بالشــام أرض الصلُــب
٢٤ — سرنــا إلى مصرَ بهــا في جحفــلٍ ذي لَجَــب

بلغوا مصر في تتبعهم لمروان الهارب . الجحفل الجيش الكثير . اللجب الجلبة والصياح واضطراب موج البحر .

٢٥ — حتى استلمنــا مُلْكَهــا بمُلكنــــا المستلــب

لا شك ان « نا » هنا يعني بها الفرس لا العباسيين . انظر كيف يصرح بأنهم عدوا استيلاءهم على مصر تعويضاً عن ملكهم المسلوب .

٢٦ — وجــادت الخيــلُ بنــا طَنْجَةَ ذات العَجَــب

جاد الفرس في عدوه جد فيه . طنجة اسم متنزه بمصر .

٢٧ — حتى رددنــا المُلْكَ في أهل النبي العربــــي

لا شك أن الفرس كانوا ينظرون إلى اقامتهم للدولة العباسية نظرة مزدوجة

لا يرون فيها تنافراً . فهي من ناحية انتقام من العرب الذين هدموا ملكهم ، ومن الأمويين بخاصة ، الذين اسرفوا في تحقيرهم واضطهادهم . وهي من ناحية اخرى اعادة للملك إلى الجديرين به من بني هاشم ، بعد ان اغتصبه الأمويون منهم .

٢٨ — يهز أبـا الفضل بهـا أَوْلَى قريش بالنبـي

الكلمة الأولى واضحة التحريف . وشارح الديوان يقترح أن تقرأ « فاهنأ » او « يهنأ » . وابو الفضل كنية العباس بن عبد المطلب .

٢٩ — من ذا الذي عادَى الهدى والدِينَ لـم يُستلَـب؟
٣٠ — ومـن ومـن عانـده أو جارَ لـم يُنتهـب ؟
٣١ — نغضـب لله وللـ إسلام أَشْرَى الغضـب

أشراه اشده واكثره لحاجة .

٣٢ — أنـا ابن فرعَيْ فـارس عنهـا المحامـي العَصَب

العصب مضاف اليه . اي الذي يحمي عصبها .

٣٣ — نحن ذوو التيجـان والـ ـملك الأشـمّ الأغلب

هذه قصيدة واضحة الصدق العاطفي ، لكنها شديدة التفاوت الفني ، وفي ابياتها الأخيرة بنوع خاص ركاكة قل ان توجد في شعر بشار ، ويبدو انه قد استمر ينظم حتى بعد ان اتم غرضه الفني ، ولم يعرف متى ينبغي ان يقف ، وقد كان خليقاً بأن يعود إلى قصيدته بالتهذيب والحذف . اضف إلى هذا أننا وإن كنا نستجيب لسخرها من الأعراب ، ونراهم يستحقونه — اولئك الأعراب الذين خرجوا على تعاليم دينهم ، والذين دمغهم القرآن الكريم نفسه في اكثر من سورة ، ووصمهم بأنهم لما يدخل الايمان في قلوبهم ، وبأنهم اشد كفراً ونفاقاً واجدر ألا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله ، وسجل حوادث نفاقهم وتخلفهم عن نصرة الدين في آيات كثيرة ، كما سجل عنجهيتهم وغلظتهم وسوء ادبهم وجفاوتهم على الرسول نفسه — لا نستجيب لفخرها الفارسي ، ولا نظن

هذا مجرد بقية دفينة من تعصب عربي فينا ، بل هو لإيماننا بأن التعصب الجنسي لا يقابل بتعصب جنسي مضاد . انما الدواء الصحيح هو الارتفاع على العصبيات الجنسية كلها جميعاً ، والانتماء إلى الانسانية العليا التي تضم كل البشر ، والتي جاء الاسلام يوثق اواصرها ، ويحض العرب عليها . واذا كان الاسلام لا يعلي عرباً على فرس ، فهو لا يعلي فرساً على عرب ، ولا يعلي جنساً بشرياً كائناً ما كان على جنس آخر ، بل لا ينظر في الأصل السلالي ابداً ، وانما ينظر في الفرد نفسه ، ليحكم على درجته هو من الاقتراب من المثل الذي يرسمه .

لكننا نصل الآن إلى المقطوعة العليا التي بلغ فيها بشار ذروته في هذا الموضوع ، لأنه بلغ ذروة النظرة الانسانية الشاملة ، فجاءت ابياته عظيمة التأثير ، رائعة النبل . وهي ابياته :

أصبحتُ مولى ذي الجلال ، وبعضهم
مولى العُرَيب ، فخذ بفضلك فافخرِ
مولاك أكرم من تميم كلها
أهل الفعال ، ومن قريش المَشْعَرِ
فارجع إلى مولاك غير مدافع
سبحان مولاك الأجلّ الأكبر

لست اعرف في الشعر العربي كله ما يفوق هذه الأبيات في جلالها ، ولا اعرف ما يماثلها في مناداتها بالكرامة الانسانية واصرارها على العزة البشرية . حقاً انه لا يزال يحمل على عرب عصره ، فيصغر اسمهم للتحقير ، لكن سببه أنهم — في مجموعهم ، وباستثناء افراد منهم — لم يرتفعوا إلى ما يرسمه في ابياته هذه من الانسانية العليا ، وما جاء الاسلام يدعوهم اليه فيلح في دعوته ، والأبيات واضحة التأثر بالأسلوب الاسلامي . وحقاً انه ينبذ ولاءه للعرب ، ويحرض غيره من الموالي على نبذ ولائها ، لكن التفكير الهادىء ينتهي بنا إلى الاجابة الصحيحة على هذا السؤال : هل اثبت العرب بمعاملتهم للموالي، التي رأينا امثلة منها ، أنهم يستحقون هذا الولاء ؟

ثم لاحظ قوله « اصبحت » ، فهو يدل على انه لم يبدأ بمعاداة العرب ونبذ ولأئهم ، انما انتهى إلى هذا بعد ان اعيته محاولته في مجاملتهم والاحتفاظ بمستلزمات المودة والتحاب معهم ، واتضح له انهم لن يرضوا بغير الخضوع الذليل ، ثم لاحظ ايضاً انه ليس يفخر هنا — كما فخر في شعره السابق — بأصله الفارسي ، انما يفخر بانسانيته ، يفخر ببشريته العزيزة التي وهبها الله له ، وجعلها من حقه كانسان . فهو هنا لا يغلب فرساً على عرب ، ولا يدعو الموالي إلى انتباذ ولاء العرب كي يعتزوا بأصلهم الفارسي ، انما يدعوهم إلى ان يعتزوا ببشريتهم ، هذا القبس السامي الذي وضعه الخالق جل وعلا في بني آدم فكرمهم به . واينا يستطيع ان ينكر بيته الثاني ، ان الله اكرم من تميم كلها ومن قريش نفسها ؟ بل هو وحده الكريم على الحقيقة ، ومنه استمددنا كرامتنا الانسانية حين خلقنا ارفع المخلوقات . وهو وحده مولانا ومولى الناس جميعاً ، تعنو وجوهنا له ، ولا تعنو الا له ؛ نعم المولى ونعم النصير . (١)

---

(١) هناك حقيقة مهمة أحب أن أنبه اليها القارىء . وهي ان اضطهاد العرب للموالي لم ينته بانتهاء الحكم الأموي ، فقد بقي بعد هذا زمنا طويلا برغم أن السلطة الفعلية زالت من أيديهم بانقضاء ذلك الحكم . والحوادث التاريخية التي أشرنا اليها وسقنا بعضها تشهد بهذا ، وسببه ليس صعب الفهم ، فان العرب لم يفهموا المغزى الحقيقي لانهيار الحكم الأموي لتو حدوثه ، بل ظنوه مجرد تحول الحكم من بيت قرشي إلى بيت قرشي آخر ، فظلوا في غطرستهم واضطهادهم حتى حوالي عهد المأمون وهو العهد الذي تحقق فيه قدر عظيم من المساواة الجنسية . وشجعهم على هذا أن الخلفاء العباسيين الأول كانوا عربا تعصبوا للعرب ، ونسوا أو تناسوا ان الفرس هم الذين أقاموا لهم دولتهم ، فانقلبوا عليهم . وانما نحن الآن — في دراستنا التاريخية المتعمقة — الذين نستطيع أن نفهم المغزى الحقيقي لزوال العهد الأموي . ونظير هذا نجده في العصر الحديث في الغطرسة التي لا تزال تصدر عن كثير من البريطانيين، الذين لم يفهموا بعد ان عهد التسلط البريطاني قد انتهى، وان امبراطوريتهم قد بدأت فعلا في الانحلال . فبشار اذن لم يضطهد من أجل أصله الأعجمي في زمن الأمويين وحدهم ، بل ظل يضطهد فيما عاشه من حياته تحت العباسيين .

تعقيب (سنة ١٩٧١) : ما قلته عن البريطانيين في هذا الهامش منذ عشرين سنة قد تغير الآن كثيرا . فقد تم ادراكهم أو كاد أنهم قد انتهى عهد تسلطهم ، وهم يعترفون بأنهم لم يعودوا من القوى الكبرى ، فتبخرت عنجهيتهم ، الا في القليلين من أفرادهم .

مضطهد

لن احاول في دراستي هذه ان ابيض صفحة بشار من كل عيب . انما الذي ادعيه هو أن بشارا قد أسيء اليه اكثر مما أساء هو إلى غيره ، وانه لو لقي معاملة خيراً مما لقي لتغيرات شخصيته تماماً . فالحقيقة التي ينبغي ان يدركها القارىء الآن هي أن بشارا ظل طول حياته — منذ صباه إلى مقتله — مضطهداً ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان .

نقرأ مثل هذه القصة :

« عن الحكم بن مخلد بن حازم قال : مررت أنا ورجل من عكل من أبناء سوار بن عبدالله بقصر أوس . فاذا نحن ببشار في ظل القصر وحده ، فقال لي العكلي : لا بد لي من أن أعبث ببشار ، فقلت له : ويحك ! مه لا تعرض بنفسك وعرضك له . فقال : اني لا أجده في وقت أخلى منه في هذا الوقت . قال : فوقفت ناحية ودنا منه فقال : يا بشار ! فقال : من هذا الذي لا يكنيني ويدعوني باسمي ؟ قال : سأخبرك من أنا ، فأخبرني أنت عن أمك ، أولدتك أعمى أم عميت بعد ما ولدتك ؟ قال : وما تريد إلى ذلك ؟ قال : وددت أنه فسح لك في بصرك ساعة لتنظر إلى وجهك في المرآة ، فعسى أن تمسك عن هجاء الناس وتعرف قدرك . فقال : ويحكم ! من هذا ؟ أما أحد يخبرني من هذا ؟ فقال له : على رسلك ! أنا رجل من عكل وخالي يبيع الفحم بالعبلاء ، فما تقدر أن تقول لي ؟ قال : لا شيء ، اذهب بأبي أنت في حفظ الله » .

فنقول : فرد من سفلة الناس يعيث بأعمى كما يعبث أمثاله بالعميان ولا يستشهد به على كل بيئة بشار. ولكننا نعود فنتأمل القصص الأخرى التي رويناها في الصفحات الماضيات ، ونتأمل أمثالها مما تفيض به سيرة بشار . فننتهي مرغمين إلى أن نقرر أن الاضطهاد الذي لقيه بشار كان اضطهاداً عاماً لقيه من مختلف طبقات الناس في عصره . اضطهده سفلتهم لعماه ، واضطهده جميعهم لقبحه وفظاعة منظره ، واضطهده العرب منهم لمولويته واصراره على

كرامته ، واضطهده جميع المسلمين لما اعتقدوه فيه من الزندقة والالحاد . ورجل يلقى مثل هذه المعاملة طول حياته يندر جداً أن يحتفظ على الرغم منها بعاطفة الصفح والمسامحة ، بل يغلب عليه أن يصير عظيم المرارة شديد الحقد على مجتمعه . وان يتسمم شعوره نحو الانسانية عامة . فان انتهى إلى مثل هذا فهل نستطيع منصفين أن نلومه ؟

مبخوس

ولكن الاضطهاد الذي لقيه بشار لم يقتصر على كرامته كرجل ، بل تعداه إلى منزلته كشاعر . وهذا ادعاء مني سيدهش الكثيرين ، فهم يقرأون عن اعجاب القدماء بشعره واعترافهم له بتقدمه طبقات المحدثين فيظنون أنه نال هذا التقدير الاجماعي في حياته . ولكننا ان أنعمنا النظر في هذه الأحكام فسنجد كثرتها الغالبة مما قيل بعد وفاته ، أما في حياته فقد ظل مبخوساً ، فان كان نال نصيباً من التقدير ففي أواخر أيامه ، ولم يكن قط باجماع العلماء ، والذين سلموا له بشيء مما يستحقه انما فعلوا ذلك مضطرين إذ تخوفوا هجاءه ، فثناؤهم ثناء غير مخلص .

وقد كان لذلك البخس الذي مني به شعر بشار أسباب متعددة . منها أن علماء عصره لم يستطيعوا التفريق بين شخصيته البغيضة إليهم وبين قيمة شعره في ذاته ، وهذا عامل لا نستطيع أن نسرف في لومهم من جهته ، فكثيرون من عظام الأدباء لا يظفرون بالتقدير الصحيح الذي يستحقونه في حياتهم ، والحزازات الشخصية كثيراً ما تطغى على نظرة المعاصرين ، نجد هذا لا في الأدب العربي وحده بل في آداب أخرى كذلك ، بل نقادنا الأحياء لا يزالون يظلمون بشارا برغم انقضاء تلك الحزازات وزوال أسباب العداوة الشخصية ، فما بالك بمن عاشروه وآذوه ونالهم منه الأذى.

ومنها النزعة التجديدية الشديدة التي تجلت في الكثير من شعره ، وهي نزعة لم ترض أئمة اللغة والأدب فقد كانوا محافظين ازعجهم هذا الأسلوب الجديد المبالغ في السهولة وظنوه ركاكة وضعفاً ، فالحق انك ان تدبرت سيرة بشار وجدت أن الرواج الذي لقيه شعره في عصره كان مقصوراً على اوساط العامة والشبان والنساء لم يتعدها إلى اوساط العلماء المتخصصين في الرواية والشعر . بل لعل رواجه بين العامة زاد من انتقاص العلماء له ، اما هؤلاء العلماء فقد حملوا عليه حملة طويلة وكثر انتقادهم لما اعتقدوا فيه من التهافت والحشو والركاكة ، ولم يغير بعضهم رأيه إلا بازاء هجاء بشار كما ذكرنا . ولم يبدأ هؤلاء العلماء في تغيير رأيهم عن إخلاص واقتناع إلا بعد وفاته ، حين زالت شخصيته البغيضة التي طالما أقضّت مضاجعهم ، ومضى زمن كاف يتروون فيه وينعمون النظر في شعره ويستكشفون ميزاته الحقة ويقبلون تجديداته ويتغلبون على عدائهم الغريزي لكل جديد . بل بعد وفاته بزمن طويل ظل بعضهم يعيب شعره ويرفضه لخروجه عن جادة الأسلوب البدوي المتين ، فيروى أن اسحق الموصلي كان لا يعتد ببشار ويقول هو كثير التخليط في شعره وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً . ومعنى هذا أنه رفض شعر بشار التجديدي ولم يقبل إلا قصائده التي يقلد فيها أسلوب البدو . ويروي أيضاً أن اسحق هذا كان يقدم على بشار مروان ابن أبي حفصة ويقول هذا أشد استواء شعر منه وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها . وليس بعد جملته هذه حاجة إلى التدليل على سبب رفضه لشعر بشار ، وهو النزعة التقليدية المسرفة . ومن الطريف أن نرى أن اسحق كان يرفض أيضاً أبا نواس ، وهو المجدد الثاني العظيم في الشعر العربي ، فيروي أنه « كان لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى فيه خيراً » .

ومنها أنه مولى ، ولم يكن العرب قد أدركوا بعد أن الثقافة العربية بجميع فروعها لم تعد ارثاً موقوفاً على العرب الأقحاح بل صارت ملكاً مشاعاً لكل الأجناس التي تعلمت العربية ، ولا هم أدركوا أنه قد بدأ عهد سيكون عظام شعرائه وأدبائه من الموالي ، أو أن معظم رجال الفكر والفلسفة والعلوم سيكونون

من غير العرب . ظن بعض معاصري بشار أنه بكونه مولى يستحيل عليه أن يبرز في الشعر والأدب تبريز العرب . وهذا واضح في القصة التي رويناها عن الأعرابي يقول وما للموالي وللشعر . وقد كانت عقيدتهم هذه متولدة عن ظنهم أن في الأصل الجنسي ميزة طبيعية تقرر مدى اتقان الفرد للغة ، لم يدركوا أن الأمر كله محصور في مدى تعلم الفرد للغة وتدربه منذ طفولته على أسلوبها الصحيح . وهذا منهم ظن لا نستطيع أن نبالغ في لومهم عليه فالكثيرون منا في عصرنا هذا لا يزالون يعتقدون أن للأصل الجنسي ميزات ثقافية بطبيعة الوراثة . ومن الطريف أن صاحب الأغاني يروي خبراً عن رجل يتعجب من صحة شعر بشار وسلامته من الأخطاء اللغوية برغم أن العرب أنفسهم أتوا في اشعارهم بألفاظ مشكوك في صحتها . فأجابه بشار : « ومن أين يأتيني الخطأ ؟ ولدت ها هنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت [1] إلى أن أدركت ، فمن أين يأتيني الخطأ ! » ونحن في ضوء علمنا الحديث نسرع إلى قبول احتجاجه هذا ، فالذي ينشأ هذه النشأة وتتوفر له هذه الفرص لتعلم الأسلوب العربي الصحيح يستطيع أن يتقنه بما لا يقل عن إتقان أهله وان يكن أصله غير عربي .

على أن أعجب الأسباب التي حملت معاصريه على الانتقاص من شعره هو عماه . إذ ظنوا أن عاهته تقصر بـه بالضرورة عن شأو المبصرين، واعتقدوا انه ان اجتمع شاعر مبصر وشاعر اعمى فالمبصر بالضرورة اعلى كعباً في الشعر ، فالذي يصف ما يرى يكون اقدر واعظم اتقاناً من الذي يصف مالا يرى . ثم تأملوا فوجدوا معظم شعر بشار في الغزل ، فازدادوا في عقيدتهم هذه يقيناً : او ليس من البديهي ان الغزل فن لا يستطيع ان يجيده إلا الذي يرى النساء ويبصر جمالهن ؟ بل بعض النسوة اللائي احبهن بشار استنكرن عليه ان يحبهن ويتغزل فيهن وهو لا يراهن .

(١) أخرجت إلى البادية .

ولبشار شعر كثير يحاول فيه بإلحاح وتكرار ان يصحح هذه الفكرة الخاطئة ، وأن يثبت أن الأعمى يستطيع أن يتصور وأن يؤدي تصوره هذا . فالأعمى لا يحرمه عماه ملكة الخيال ، بل له ملكة خيال كما للمبصر ملكة خيال ، وإن كانت بالطبع مختلفة . فالخيال عند المبصر مشتق معظمه من البصر والصور المنظورة ، ولكن البصر ليس كل شيء ، فهناك احساسات أخرى وإن يكن هو أعظمها . فالأعمى عنده حاسة السمع وحاسة الشم وحاسة اللمس والذوق ، والأعمى يكوّن لنفسه من هذه الإحساسات صورة ذهنية تتداعي إلى مخيلته حين يفكر في شخص أو في شيء كما يتداعى إلى مخيلة المبصر منظر ذلك الشخص أو الشيء . وهذه الصورة الذهنية تكون جميلة إذا فكر في امرأة جميلة وقبيحة إذا فكر في امرأة قبيحة ، وهو يستطيع أن يصف هذه الصورة ويحاول اداءها وتحديدها بالألفاظ .

ثم يناقش بشار مسألة الحب خاصة . هل صحيح أن المبصر وحده يستطيع تقدير جمال النساء وبالتالي يستطيع أن يغرم بهن ؟ بل الأعمى أيضاً يستطيع أن يقدر المرأة الجميلة ، بما يصل إلى إحساساته من صوتها وعطرها ومس جلدها وذوق شفتيها ، دعك من استماعه لوصف المبصرين لها واستطاعته تمثل هذا الوصف تمثلاً خاصاً . ويضيف بشار إلى هذا كله حقيقة لا شك فيها . أن البصر لدى المبصرين أنفسهم ليس له قيمة كبيرة في تقدير حبهم للمرأة او نفورهم منها . فكم يحبون نساء لسن جميلات الصورة ، وكم يظلون فاترين امام نساء رائعات المنظر ، فالحب لا يمكن تفسيره بجمال المحبوبة المنظور ، بل هو نزعة وجدانية ولهفة جسدية وروحية إلى الأنثى تتكون من عناصر كثيرة ليس البصر سوى احدها .

وشعر بشار في هذا الموضوع مشهور وقد جمعه نقادنا المحدثون ، فنكتفي هنا ببعضه . تأمل قوله :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانـــاً
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم ... الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

هل من دواء لمشغوف بجاريـــــة يلقى بلقيانها روحــاً وريحانــا

فقوله : الأذن كالعين توفي القلب ما كانا ، معناه أن السمع مصدر للمعرفة كما أن البصر مصدر لها . فالموجودات — ويعبر عنها بقوله : ما كانا — تصل إلى ملكتنا العارفة لا عن طريق العين وحدها بل عن طريق الأذن أيضاً . ويستعمل « القلب » حيث نستعمل نحن الذهن أو العقل . وقوله : يلقى بلقيانها روحاً وريحاناً ، معناه : صحيح أني لا أستطيع ان أراها ولكن لها جمالا كثيراً آخر خلاف الجمال المنظور يصلني عن طريق مالي من حواس .

وقوله :

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها قلبي فأضحى به من حبها أثر
أنى ولم ترها تهذي ؟ فقلت لهم ان الفؤاد يرى ما لا يرى البصر

فالشطر الأخير معناه أن الفؤاد ، أو كما نقول نحن الآن العقل أو الذهن ، يستطيع أن يتقبل إحساسات أخرى غير الأحساس البصري ، وأن يتخيل موجودات لم يؤدها إليه البصر .

وقوله :

يزهدني في حــب عبدة معشر قلو بهمو فيهــا مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذنان الا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا وألف بين العشق والعاشق الصب

الأبيات الثلاثة الأولى منها واضحة لا تحتاج إلى شرح . أما البيت الأخير فيزيد على كل الحجج الماضية حجة جديدة ، هي هذه : ليس الحسن الجسدي هو كل شيء في الحب ، فعاطفة الحب لا يستثيرها مجرد جمال المرأة الجسماني ، منظوراً كان أو مسموعاً او ملموساً او مشموماً ، إنما تستثيرها دواع أخرى غريبة مبهمة ، من نشوة الشباب إلى الشباب ، وما ينتج بين المحبوبين

من ألفة روحية عجيبة تزيد على مجرد الاستمتاع الجسدي . فدعاء الشباب إلى الشباب ، وحنين الحبيب إلى الحبيب ، وما إلى هذا من دوافع وجدانية تكون بين المحبين ذلك الشعور المعقد العميق الذي نسميه الحب ، والذي ليس الاستمتاع النظري ، بل ليس الاستمتاع الحسي جميعه ، سوى عنصر واحد من عناصره .

قد نكون أطلنا في هذا الموضوع وان يكن خارجاً عما نحن بسبيله الآن من تحقيق شخصية بشار ، ولكننا اضطررنا إلى هذه الإطالة حتى نؤكد هذه الحقيقة الهامة التي كان لها أثر كبير في تكوين شخصيته ، وهي أنه لم يفز في حياته بما اعتقد انه جدير من التقدير الأدبي . فشاعر يلجأ إلى كل هذا الاحتجاج الطويل المتكرر لا بد انه عانى كثيراً من انتقاص الناس لشعره بسبب عماه . [1]

---

(١) جاء في مقالة نقدية نشرت بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، أنني في هذا الكتاب ، بالغت في تصوير ظلم النـــاس لبشار حتى يكون لي فضل انصافه ، وأن من هذه المبالغة أنني أدعيت ان شعر بشار لم ينل ما يستحقه من التقدير . وهكذا بترت تلك المقالة كلامي في هذا الموضوع بترا يشينه ، واغفلت اغفالا تاما الحدود البينة التي حددت بها دعواي . فقد قلت انني أعني (أولا) التقدير الذي صدر في حياته ، لا الذي ناله شعره بعد وفاته . و (ثانيا) التقدير الذي صدر من العلماء أئمة اللغة والأدب ، لا الذي صدر من العامة . و (ثالثاً) التقدير الذي صدر عن اخلاص واقتناع حقيقي بميزة شعره ، لا الذي ارغم عليه قائلوه تخوفاً من هجاء بشار . ثم عرضت هذه القضايا الأربع : (١ – ان الكثرة الغالبة مما قاله القدماء في تقدير شعره قد قيل بعد وفاته . (٢ – ان ما ناله في حياته من اعجاب حقيقي كان من العامة لا من العلماء . (٣ – ان النصيب الذي ناله في حياته من مديح العلماء انما صدر في اواخر ايامه . (٤ – ان هذا النصيب لم يدفع العلماء عليه الا خوفهم من هجائه ، فهو لا يدل على التفات صادق إلى ميزة شعره . ثم قدمت تعليلات شتى لهذه الاحكام ، منها خلطهم بين شخصيته البغيضة اليهم وبين ما قد يكون لشعره من قيمة فنية في حد ذاته ، ومنها نزعته التجديدية الشديدة التي نفرت عنها اذواقهم المسرفة في المحافظة ، ومنها كونه مولى وهم لم يدركوا بعد ان الموالي قد يبرزون في الشعر العربي بما لا يقل عن تبريز العرب الاقحاح ، ومنها كونه اعمى وهم ينكرون على الشاعر الاعمى ان يلحق بركب المبصرين فضلا عن ان يبزهم .

جائز جداً انني أخطأت في بعض هذه المزاعم الأربعة او في كلها جميعاً . اذن كان على تلك المقالة النقدية ان تفند خطأي هذا ، او كان يكفي ان تثبت انني لم ابرهن عليها برهنة كافية . أما الذي لا يجوز لها فهو ان تتجاهلها تجاهلا تاما ثم تمضي في حشد اقوال للعلماء في تقدير شعر بشار بعضها لا شك ابداً في انه قد صدر بعد وفاته ، متهمة اياي بأنني جهلتها او تعاميت =

الحقيقة التي غابت على معاصري بشار ، والتي غابت على ناقدينا المحدثين ايضاً ، هي ان بشارا برغم غلاظة جسمه وضخامة جثته كان عظيم الحساسية . ما معاصروه في نقص معلوماتهم وثقافتهم فقد نسامحهم ، فهم رأوه ضخماً اهائل الجثة كأنه الفيل او كأنه الجاموس ، فظنوا ان غلاظة الجسم تتبعها غلاظة الحس وبلادة الشعور . واما ناقدونا فلا نسامحهم ، فان لهم من وسائل العلم الحديث ما يريهم ان هذا لا يستتبع بالضرورة هذا . فكم من ضخم رقيق الشعور . وكم من نحيل فاتر بليد الحس .

أما حساسية بشار فكانت في قدر منها الحظ الذي يتاح لكل أعمى من ارهاف الاحساسات الأخرى إذ يضطر إلى استعمالها مستعيضاً بها عن حاسة النظر فتنمو بالاستعمال المكثر . وهذا يتجلى في القصص الآتية التي تُروى عنه :

« مر ابن أخي بشار به ومعه قوم ، فقال لرجل معه : من هذا ؟ فقال : ابن أخيك . قال : أشهد أن أصحابه أنذال . قال : وكيف علمت ؟ قال . ليست لهم نعال » .

= عنها ، وهي تأخذ بعضها مما سقته في كتابي نفسه .

وكان عجيباً ان تطلب إلي المقالة ان اذكر اسم « شاعر ظفر بالاعجاب خالصاً مخلصاً باجماع العلماء » ، وانا لم تبلغ بي الحماقة ان اطالب بهذا الاجماع ، وانما كنت انفي الفكرة الشائعة بأن بشارا نال في حياته اجماع العلماء على الاعجاب به ، كما هو واضح في جملتي التي بترتها المقالة اذ نسبت إلي انني ادعيت ان شعر بشار لم ينل ما يستحقه من التقدير ، وجملتي التي كتبتها هي « فهم يقرأون عن اعجاب القدماء بشعره واعترافهم له بتقدمه طبقات المحدثين فيظنون انه نال هذا التقدير الاجماعي في حياته . » افليس في هذه الجملة اعتراف مني بأنه نال هذا التقدير بعد مماته ؟ او اذا نفيت ان يكون هذا التقدير الاجماعي قد صدر في حياته يكون معنى نفيي هذا أنني اطالب به له او لغيره ؟ هذا منطق عجيب . ثم كيف تنسى المقالة انني حذرت القارىء مراراً من ان يسرف في لوم معاصريه على عدم اعجابهم بشعره ، واعتذرت لهم باعتذارات متعددة ، انظر الصفحات ٥٦ — ٥٨ .

ولكنك لا تقدر مبلغ دلالة هذه القصة على دقة حسه إن لم تعرف أن النعال التي كان يلبسها العرب لم تكن كأحذيتنا الغليظة الثقيلة التي يسمع لها صوت لا يخطأ ، بل كانت رقيقة خفيفة المس جداً تكاد لا تزيد عن وقع القدم الحافية . كذلك الطرق التي كانوا يسيرون عليها في مدنهم ، لم تكن كطرقنا المعبدة التي يرن عليها صوت القدم ، بل كانت رملية وعثة تمتص معظم الصوت . فبشار برغم هذا يسمع صوت أقدامهم فيستطيع أن يحكم بأنهم يمشون حفاة لا نعال لهم .

وقصة أخرى :

« عن أبي دهمان الغلابي قال : مررت ببشار يوماً وهو جالس على بابه وحده وليس معه خلق وبيده مخصرة يلعب بها وقدامه طبق فيه تفاح وأترج . فلما رأيته وليس عنده أحد تاقت نفسي إلى أن أسرق ما بين يديه . فجئت قليلاً قليلاً وهو كاف يده حتى مددت يدي لأتناول منه . فرفع القضيب وضرب به يدي ضربة كاد يكسرها . فقلت له : قطع الله يدك يا بن الفاعلة ! أنت الآن أعمى ! فقال : يا أحمق ! فأين الحس ! » (١) .

والقصة التي رويناها عن بشار يهدي فيها مبصراً إلى منزل لا يعرفه أيضاً على هذا النصيب من الحس الدقيق الذي ينمو في معظم العميان تعويضاً عما فقدوه . ولكن الارهاف الحسي لا يكون كل شيء بل يتبعه في العميان ارهاف نفساني ، فتجد أغلبهم على درجة من قابلية التأثر والانفعال أكبر مما يتوفر لمعظم المبصرين . وهذا ما يغفل عنه المبصرون دائماً ، لا يدركون ان الأعمى يتأذى من أشياء كثيرة يقبلها المبصرون دون تضرر كبير . فالمبصر إذا سقط من يده شيء ، أو أخطأ وضع شيء على مائدة فهوى وتحطم ، أو أخطأ تقريب كوب من فمه فأهرق بعض ما فيه ، أو تعثر في حصاة في الأرض ، أو حدث له ما يشابه هذه الحوادث التي تلم بنا في كل يوم ، لم

(١) ولا تنس أن تتأمل في هذه القصة مثلا جديداً لا ضطهاد الناس إياه بسبب عماه .

يهتم لها كثيراً او ينساها بعد دقائق قليلة ، أما الأعمى فهي تؤلمه ايلاماً لا يستطيع المبصر أن يقدره تمام التقدير . على اننا لم نسق إلا أمثلة قريبة سهلة القبول ، ولكن تجارب الأعمى في حياته لا تقتصر على أمثالها بل تتعداها إلى أشياء كثيرة لا تقوم مباشرة على حاسة النظر .

والعجيب أن المبصرين لا يقتصر الخطب فيهم على أنهم لا يدركون أن الأعمى يزيد عليهم حساسية ، بل هم يظنون أنه لا بد أن يكون بسبب عماه أقل قدرة على التأثر العاطفي والانفعال منهم ! وهذا في أحيان كثيرة هو سبب إرهاقهم للعميان ، لا يصدر هذا عن تعمد للايذاء في كل حال ، بل يصدر أيضاً عن ظن بأن الأعمى لن يتأثر منه كما لو كان مبصراً . ويزيد من رسوخ هذه الفكرة عندهم أن العميان كثيراً ما يضطرون بسبب عجزهم عن الانتقام إلى كظم غيظهم والتجمل بالصبر ، بل يضطر بعضهم إلى الابتسام فيزيد المبصرين اعتقاداً بأنه ليس في حساسيتهم وتأثرهم .

ولكن حساسية بشار كانت أعظم من هذا القدر المعهود لدى العميان ، إذ ضاعفها شعوره بدمامة خلقته وغلاظة جسمه وكراهية الناس لهذه الصفات ممزوجة بعماه . وقد قلنا من قبل أنه لو كان أعمى وسيم الوجه أو عادي البنية لما ناله كل ما ناله من الأذى . أضف إلى هذا كله مولويته وخساسة أبيه وولادته على الرق . لا جرم أن بلغت حساسية بشار حداً زائداً . ونفس هذه الحساسية هي ما أخطأ القدماء فهمه وظنوه جبناً، وتبعهم في خطئهم نقادنا المحدثون ، وهو ليس جبناً بل هو تأثر زائد من خوف الهجاء بسبب عماه . فالقصة التي رويناها عن صانع الجام الذي هدده بأن يصوره على باب داره بخلقته الشنيعة ، ومن خلفه قرد ، ليس انزعاج بشار فيها صادراً عن جبن بل عن احساس زائد بمقدار دمامته وتأذ مفرط من أن يهاجم من هذه الناحية . ومن هذا الصنف أيضاً القصتان التاليتان ان أحسنت تفهمهما :

« كان بشار يعطي أبا الشمقمق في كل سنة مائتي درهم . فأتاه أبو الشمقمق في بعض تلك السنين فقال له : هلم الجزية يا أبا معاذ . فقال : ويحك !

أجزية هي ؟ قال : هو ما تسمع . فقال له بشار يمازحه : أنت أفصح مني ؟ قال لا . قال : فأعلم مني بمثالب الناس ؟ قال : لا . قال : فأشعر مني ؟ قال : لا . فقال فلم أعطيك ؟ قال : لئلا أهجوك . فقال له : إن هجوتني هجوتك . فقال له أبو الشمقمق (شعرا لا نستطيع روايته) ... فوثب بشار فأمسك فاه وقال : أراد والله أن يشتمني ! ثم دفع إليه مائتي درهم ثم قال له : لا يسمعن منك هذا الصبيان يا أبا الشمقمق » .

قد يكون بشار أفصح من أبي الشمقمق وأعلم منه بمثالب الناس وأشعر منه ، ولكن أبا الشمقمق يستطيع أن يناله من حيث لا يستطيع بشار أن يناله ، من دمامته وعماه ومن خسة اصله . والقصة الثانية عن أبي الشمقمق أيضاً :

« امر عقبة بن سلم لبشار بعشرة آلاف درهم ، فأُخبر ابو الشمقمق بذلك فوافى بشارا فقال له : يا ابا معاذ ، إني مررت بصبيان فسمعتهم ينشدون :

هلّلينَهْ هلّلينه طعن قناة لتينـــه
إن بشـــار بـــن بـــرد تيس اعمـــى في سفينـــه

فأخرج اليه بشار مائتي درهم فقال: خذ هذه ولا تكن اورية الصبيان يا أبا الشمقمق !»

وليس ادل على ما نقول من القصة التي تروى في تهاجيه مع حماد عجرد ، وهي وحدها في هذا الموضوع قاطعة . فهم يروون أنه لما هجاه حماد ببيته :

ويا اقبح مـــن قـــــرد إذا مـــا عمي القـــرد

بلغ تأثر بشار ان بكى ، فقيل له أتبكي من هجاء حماد ؟ فقال : والله ما ابكي من هجائه ولكني أبكي لأنه يراني ولا اراه فيصفني ولا أصفه .

ولكن حساسية بشار لم تكن مقتصرة على هذا القدر الناجم عن العمى أو عن الشعور بالدمامة أو النقص الذي أحس به بسبب أصله الأعجمي وخساسة أبيه . بل كانت اعمق من هذا بكثير . لم تكن حساسية مكتسبة بل

كانت حساسية أصيلة وجدت في طبيعة تكوينه . كانت حساسية من النوع الممتاز النادر الذي يوجد لبعض الأفراد ولو كانوا مبصرين أو ملاح الوجوه . كانت حساسية الفنان الممتاز ، هذا الارهاف الشعوري والعاطفي والذوقي الذي يتاح لبعض الأفراد فيجعلهم من عظماء الشعراء أو الرسامين أو الموسيقيين او غيرهم من أصناف الفنانين . وهي صفة ستتجلى لنا حين ندرس شعر بشار في القسم الثاني من هذا الكتاب ، فسنرى في هذا الشعر دليلنا النهائي على انه لم يكن غليظ الحس او جهم الشعور .

أبـيٌّ

كما أخطأ معاصروه فهم حساسيته فظنوه لضخامة جسمه غليظ الشعور ، كذلك اخطأوا فهم عزته النفسية وتمسكه بكرامته وظنوهما صلفاً بغيضاً وغروراً . فقد صعب عليهم ان يفهموا أنفة هذا الأعمى القبيح وعهدهم بالعميان رضوخين صابرين كاظمين ، وأحنقهم ان يجدوا هذا المولى الذي ولد على الرق يأبى ان يعطي سادته العرب ما يتطلبون من التذلل والخنوع .

ولكن ان كان معاصروه قد التبس عليهم الأمر فخلطوا بين الإباء والغطرسة ، وبين الشمم والصلف ، وبين الاعتداد بالنفس والغرور ، فان هذا ينبغي أن لا يختلط علينا نحن الذين تفصلنا عنهم وعنه مئات السنين ، ضاعت فيها كل تلك الأحقاد الشخصية وزال أصل تلك النعرات الجنسية . فالحق أن كل ما نجده لبشار فيما يرويه عنه القدماء لا يخرج عن إصرار رجل أبي على المحافظة على كبريائه البشرية ، فان زاد عن هذا فهو مجرد مبالغة في الادعاء من رجل اضطر إلى هذه المبالغة اضطراراً لما لقيه من الاضطهاد والمهانة . وهي مبالغة خليق بها أن تحملنا على العطف والرثاء لا على الكراهية والذم .

هذه بقية القصة التي رويناها عن بشار أمام المهدي . بعد أن أنشد أبياته الأربعة :

ونبئت قومـاً بهـم إحنـة يقولون من ذا وكنت العلـم
ألا أيهـا السائـلي جاهـداً ليعرفني أنا أنف الـكرم
نمت في الـكرام بني عـامر فروعي وأصلي قريش العجـم
فاني لأغني مقـام الفتـى وأصبي الفتاة فمـا تعتصـم

تستمر القصة :

« وكان أبو دلامة حاضراً فقال : كلا ! لوجهك أقبح من ذلك ووجهي مع وجهك . فقلت : كلا ! والله ما رأيت رجلاً أصدق على نفسه وأكذب على جليسه منك . والله إني لطويل القامة عظيم الهامة ، تام الألواح أسجح الخدين ، ولرب مسترخي المذروين [1] للعين فيه مراد قد جلس من الفتاة حجرة [2] وجاست منها حيث أريد . فأنت مثلي يامرضعان [3] ؟ قال: فسكت عني . ثم قال لي المهدي : فمن أي العجم أصلك ؟ فقلت من أكثرها في الفرسان ، وأشدها على الأقران ، أهل طخارستان . فقال بعض القوم : أولئك الصغد . فقلت : لا ، الصغد تجار . فلم يردد ذلك المهدي . »

أفترى فيها شيئاً سوى أنفة مشروعة ؟

وتأمل أيضاً في القصة الآتية :

« أنشد بشار جعفر بن سليمان :

أقلي فإنـا لاحقون وإنمـا يؤخرنا أنـا يُعدّ لنا عـدا
وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر رأى المال لا يبقى فأبقى به حمدا

فقال له جعفر بن سليمان : من ابن جعفر ؟ قال: الطيار [4] في الجنة .

---

(١) المذروان : طرفا الأليتين ، ويريد شابا سمينا منعما حسن المنظر .
(٢) حجرة : ناحية ، أي لم تقربه منها .
(٣) المرضعان : اللئيم .
(٤) الطيار : لقب جعفر بن أبي طالب ، عوض عن يديه اللتين قطعتا في غزوة مؤتة جناحين يطير بهما مع الملائكة .

فقال : لقد ساميت غير مسامي ! فقال : والله ما يقعدني عن شأوه بعد النسب ، لكن قلة النشب ، واني لأجود بالقليل وان لم يكن عندي الكثير ، وما على من جاد بما يملك ألا يهب البدور . فقال له جعفر : لقد هززت أبا معاذ ! ودعا بكيس فدفعه إليه . »

هذه القصة أيضاً ليس فيها سوى اصرار من الرجل على إبائه ، وما فيها من فخر بالكرم صادق كل الصدق كما ستتبين فيما بعد . ولكن ان كان جعفر ابن سليمان قد أعجبه قول بشار وأثابه عليه ، فان غيره من معاصريه كان يغيظهم مثل هذا الاعتداد بالنفس ويعدونه غطرسة لا تطاق بل لعلهم عدوه إلحاداً وكفراً ! أولا يسامي هذا الأعجمي الخسيس رجلاً من صميم البيت النبوي ؟

أما القصة الآتية :

« محمد بن الحجاج قال : قلت لبشار : اني أنشدت فلانا قولك :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربـــه

فقال لي : ما كنت أظنه إلا لرجل كبير . فقال لي بشار : ويلك ! أفلا قلت له هو والله لأكبر الجن والأنس ! »

فأي شيء فيها سوى تزيد في الفخر ناشيء عن رد فعل شديد إذ رمي بأنه رجل صغير . كذلك ما يروى أنه سمع جارية تغني في شعر له فطرب وقال هذا والله أحسن من سورة الحشر . أو طرب وقال هذا والله أحسن من فلج يوم القيامة . ليس فيها سوى جموح في التعبير دفعه إليه طول ما لقيه من مساءة واذلال لشخصه ، وانتقاص لقيمة شعره . أفيؤاخذ مؤاخذة عسيرة إذا جمح لسانه حين طرب فنطق بمثل هذه الدعاوى ؟ أم تظن أن بشارا كان في

صميمه يعتقد حقاً أن شعره أحسن من سورة الحشر أو أنه أكبر الجن والأنس ؟ ان استطعت إثبات هذا فقد أثبت عليه الغرور والصلف ، والا فلا .

مشاكس

لكني لا أريد أن ادعى ان بشارا كان بطبعه رحب الصدر أو واسع الصبر وان الناس هم الذين بدأوه بالأيذاء في كل حادثة حدثت له . فلا شك انه كان على قدر من ضيق الخلق وشراسة الطبع والنزق والمشاكسة والسرعة إلى الغضب . بل الذي أدعيه هو أنه لولا ما لقي من الاضطهاد الطويل لما زاد حظه من هذا على النصيب العادي الذي يوجد في الكثيرين منا ويظلون برغمه أعضاء مقبولين في المجتمع . انما الذي هوّل الأمر وضخمه هو ما وصفنا من شدة الإساءة التي لقيها طول حياته .

أما ضيق خلقه وسرعة غضبه فأمر تشهد عليه قصص كثيرة . فهو يُسأل مثلاً عن ابن قنان الذي ذكره في قوله : غني للغريض يا بن قنان . قيل له : من ابن قنان هذا لسنا نعرفه من مغني البصرة ؟ فيجيب بحدة ظاهرة : وما عليكم منه ! ألكم قبله دين فتطالبوه به ؟ أم ثأر تريدون ان تدركوه ؟ أو تكفلت اكم به فاذا غاب طالبتموني باحضاره ؟ فيقولون فزعين : ليس بيننا وبينه شيء من هذا ، وانما أردنا أن نعرفه . فيجيبهم : هو رجل يغني لي ولا يخرج من بيتي ! فقالوا : إلى متى ؟ قال : منذ يوم ولد وإلى يوم يموت !

فالذين يسألونه واضح أنهم لا يريدون إحراجاً بل هم مخلصون في طلب المعرفة ، لكنه يرد عليهم بهذا النزق الشديد . وكذلك حين سئل عن « البردان » في قوله « ووافاني هلال السماء في البردان » . سألوه : يا أبا معاذ أين البردان هذا ؟ لسنا نعرفه بالبصرة . واضح أيضاً من تسميتهم اياه بكنيته أنهم يسألونه في لطف وأدب . فيجيب : هو بيت في بيتي سميته البردان ، أفعليكم من

تسميّي داري وبيوتها شيء فتسألوني عنه ؟

كذلك حين سأله رجل عن قوله « دسست إليها أبا مجلز » قائلاً : ومن أبو مجلز هذا يا أبا معاذ ؟ قال : وما حاجتك إليه ؟ لك عليه دين ؟ أو تطالبه بطائلة ؟ هو رجل يتردد بيني وبين معارفي في رسائل .

كذلك القصة الآتية :

« أنشد بشار قوله :

يروعــه السرار بكــــل أرض　　مخافة أن يكــون به الســرار

فقال له رجل أظنك أخذت هذا من قول أشعب : ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننت أنهما يأمران لي بشيء . فقال : ان كنت أخذت هذا من قول أشعب فانك أخذت ثقل الروح والمقت من الناس جميعاً فانفردت به دونهم ! ثم قام فدخل وتركنا » .

ولكن لعلك لاحظت ان بشارا في كل هذه القصص يعارض في شعره ، وقد كان به شديد الاعتزاز ، لا لما له من قيمة صحيحة فحسب ، بل لأنه كان من الأشياء القليلة التي كان يستطيع أن يجد فيها عزاء وسلوى بين محنه الكثيرة .

سليط

بل أزيد على ضيق خلقه وشكسه فأقرر أنه كان على قدر غير قليل من السلاطة وبذاءة اللسان . استمع إلى القصة الآتية :

« أبو معاذ النميري قال : قلت لبشار : لم مدحت يزيد بن حاتم ثم هجوته ؟ قال : سألني أن (أفعل به) فلم أفعل . فضحكت ثم قلت : فهو كان ينبغي

له أن يغضب ، فما موضع الهجاء ! فقال ، أظنك تحب أن تكون شريكه ؟ فقلت : أعوذ بالله من ذلك ويلك ! » .

كما أنني لا أدعي أنه لم يهج إلاّ حين بدىء بالإساءة. فانه يبدو من أخباره أنه كان في أحيان كثيرة مغرماً بالهجاء لمجرد اللذة التي يجدها فيه . حتى لم يسلم من هجائه بعض أصدقائه . فيروى عنه مثلاً :

« كان بشار كثير الولوع بديسم العنزي وكان صديقاً له وهو مع ذلك يكثر هجاءه . وكان ديسم لا يزال يحفظ شيئاً من شعر حماد وابي هشام الباهلي في بشار . فبلغه ذلك فقال فيه :

أديسم يا بن الذئب من نجل زارع أتروي هجائي سادراً غير مقصر »

وأدل من هذا على سلاطته وولعه بالهجاء القصة الآتية ، وبها بيت لا بد من روايته كاملاً برغم إفحاشه . وإلا كنا نتخير محاسنه ، ونتجاهل مساوئه :

« نهق حمار ذات يوم بقرب بشار . فخطر بباله بيت فقال :

ما قام أير حمار فامتلا شبقاً إلا تحرك عرق في است تسنيم

قال : ولم يرد تسنيماً بالهجاء ، ولكنه لما بلغ إلى قوله « إلا تحرك عرق » قال : في است من ؟ ومر به تسنيم بن الحواري وكان صديقه ، فسلم عليه وضحك فقال : في است تسنيم علم الله ! فقال له : أيش ويحك ! فأنشده البيت . فقال له : عليك لعنة الله ! فما عندك فرق بين صديقك وعدوك . أي شيء حملك على هذا ! ألا قلت في است حماد ، الذي هجاك وفضحك وأعياك ، وليست قافيتك على الميم فأعذرك ! قال : صدقت والله في هذا كله . ولكني ما زلت أقول : في است من ؟ في است من ؟ ولا يخطر ببالي أحد حتى مررت وسلمت فرزقته . فقال له تسنيم : إذا كان هذا جواب السلام عليك فلا سلم الله عليك ولا عليّ حين سلمت عليك . وجعل بشار يضحك ويصفق بيديه وتسنيم يشتمه » .

واضح من هذه القصة أن بشارا وجد لذة خبيثة في الهجاء دون ما مبرر .

فهو يريد أن يتم البيت في هجاء أي انسان ولا يهمه من . ولهذا لا أظن القدماء كاذبين حين قالوا : « وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ثم بلغ الحلم وهو مخشي معرة لسانه » .

بكل هذا اسلم ، فغرضي من دراستي هذه ان أحقق شخصية بشار على صحتها ، لا ان ابرئه من كل عيب ، وما يحتاج بشار في محنه الكثيرة وفي مصائبه من الطبيعة ومن الناس إلى أن نبالغ في تبييض صحيفته لنحمل الناس على الرثاء له . ولكني اعود فأقول : انه لولا ما لقي من الاساءة والاحتقار ، ومن الانتقاص والاضطهاد لما وصل شره إلى ما وصل ، لا شك انه كانت به نزعة طبيعية نحو البذاءة والهجاء ، ولكن لا شك ايضاً ان الذي نماها فيه إلى ذلك الحد المفرط هو ما لقيه من البيئة التي وجد فيها منذ صباه .

فاجر

رذيلة أخرى ببشار لا بد أن نسلم بها ، هي شهوانيته المفرطة . وسيرته فيها بضع قصص تبين مقدار تهالكه على النساء وتتبعه لهن حتى يرضين بمواصلته او يشكونه إلى ازواجهن . وقد سئل بشار اي متاع الدنيا آثر عندك ؟ فأجاب : طعام مز وشراب مر وبنت عشرين بكر . ويبدو لنا من اخباره ومن شعره انه برغم قبحه وعاهته لم يكن كاسد السوق على النساء . ولا نتحير طويلاً في استكشاف سبب رواجه لديهن ، فظرفه وحسن حديثه وفكاهته ولذة منادمته كانت تعوض جزءاً غير قليل من دمامته ، وأهم من ذلك انه يبدو كأنه قد كانت لديه قوة جنسية عظيمة افتتن بها بعض النساء فتحدثن بها إلى غيرهن فأُغري بها هؤلاء ايضاً .

ورواج بشار لدى الكثيرات من نساء عصره كان مما أحنق رجال عصره عليه وزادهم عليه حقداً . ولكن استنكارهم لهذه الناحية منه لم يقتصر على سلوكه ، بل أغضبهم أيضاً شدة تأثير شعره الداعر وحضه الفتيان والفتيات على

سبل الفسق . سئل أبو عبيدة عن السبب الذي من أجله نهى المهدى بشارا عن ذكر النساء فقال : كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره ، حتى قال سوار بن عبدالله الأكبر ومالك ابن دينار ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة من الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وما زالا يعظانه .

وليست هذه دعوى من القدماء لا دليل عليها ، فان لبشار قصيدة غاية في الشناعة الخلقية سنعرض لها حين ندرس شعره . وله أيضاً بضعة أبيات متفرقة لا بد أن تأثيرها في إغراء الشباب كان شديداً . فالبيت الثالث من قوله :

لا خير في العيش ان كنا كذا أبداً   لا نلتقي وسبيل الملتقى نهج
قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم   ما في التلاقي ولا في قبلة حرج
من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج (١)

لا بد أنه شجع بعض الفتيان والفتيات ممن هموا بالمنكر وأمسكوا عنه خوفاً . وكذلك البيتان الواردان في القصة الآتية ، والقصة نفسها دليل قوي ، يتحدث بعض الشعراء فيقول :

« أتيت بشارا الأعمى وبين يديه مائتا دينار . فقال لي : خذ منها ما شئت . أو تدري ما سببها ؟ قلت : لا . قال جاءني فتى فقال لي : أنت بشار ؟ فقلت : نعم . فقال : إني آليت أن أدفع إليك مائتي دينار ، وذلك أني عشقت امرأة فجئت إليها فكلمتها فلم تلتفت إلي ، فهممت أن أتركها فذكرت قولك :

لا يؤيسنك من مخبأة   قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة   والصعب يمكن بعد ما جمحا

فعدت اليها فلازمتها حتى بلغت منها حاجتي . »

ولا نظن هذه كانت الحادثة الوحيدة من نوعها .

---

(١) اللهج : الذي يغرى بالشيء فيثابر عليه ويلح في طلبه .

ولكن الدارس إذا أراد ألا يكون بحثه مجرد وصف سطحي فانه ينبغي عليه ألا يقرر النقص ويكتفي ، بل عليه بعد ذلك أن يفتش عن أسبابه فيستجليها . فما أسباب هذه الدعارة في بشار ؟

سببها الأساسي دون شك أنه كان على حدة جنسية عظيمة بطبيعة تكوينه . ولكن هذا لم يكن كل شيء ، فلولا عوامل بيئته لبقيت هذه الحدة تتلمس منافذها في حدود الحلال وما يقره الخلق والمجتمع ، ولكن عوامل البيئة زادتها حدة وإفراطاً ودفعت بها إلى الاستهتار السافر . فأول ما يبدو لنا أن بشارا كان ذا قوة جسدية وصحة كاملة مزدهرة ، لا نعرف انه شكا مرضاً او ضعفاً طول حياته . وهذه القوة الجسمانية إذا وجدت في المبصرين لم يكن الإرضاء الجنسي متنفسها الوحيد ، بل تجد منصرفاً في الحركة الدائمة التي يقومون بها ، من الحرفة اليدوية والرياضة البدنية والركوب والسباحة أو مجرد المشي الكثير ، ومن التلهي بمختلف الملاهي التي يستطيعها المبصر . أما بشار فقد حده عماه بحدود عظيمة فحرمه فرص التنفيس العادي عن حيويته الموفورة ، فلم يبق إلا نشاطه الجنسي تتدفق فيه صحته وقوته .

وهذا نجده عند كثير من العميان ، ولكنه لم يكن في حالة بشار كل شيء ، بل لا شك أن إفراطه الجنسي كان إلى حد عظيم تعويضاً عن شعوره بقبحه الزائد . كان قبيح العمى كريه المنظر فأراد أن يقنع غيره وأن يقنع نفسه أيضاً أنه برغم ذلك يستطيع أن يكون محبباً إلى النساء رائجاً لديهن . وكان إفراطه كذلك تعويضاً عما لقيه من المحن والاضطهاد بسبب مولويته . كلما زادوه اضطهاداً ازداد في فجوره تحدياً وعناداً ومكايدة ، كأنه ينتقم من رجال عصره بإغراء نسائهم .

وليس هذا مجرد تخمين منا ، فانك إذا رجعت إلى القصة التي رويناها عن فخره أمام المهدي تبدي لك فيها شيء عجيب . هو أنه يفخر فيها ، لا بأصله الفارسي أو ولائه العامري فحسب ، بل بقوة اغرائه للنساء ايضاً :

فاني لأغنـــي مقـــام الفتـــى　　　وأصبي الفتـــاة　فما تعتصم

وهذا فخر يبدو لنا لأول وهلة غريباً . فهذا رجل يغمز في نسبه فنحن نفهم قوله « أنا أنف الكرم » . ونفهم قوله :

نمت في الـكرام بني عـامر فروعي وأصلي قريش العجـم

ولكن ما الداعي إلى فخره في هذا المقام بأنه يصبي الفتاة فلا تستطيع مقاومة اغرائه ؟ شرح هذا واضح الآن ، هذا الافتخار بنجاحه الجنسي تعويض عظيم عن شعوره بعاهته وتألمه من دمامته وتبرمه باحتقار الناس له وتأذيه من اضطهادهم . ويزداد هذا اتضاحاً اذا أتممت قراءة القصة فاستمعت إلى رد بشار على أبي د لامة حين عيره بقبح وجهه وتأملت في كل جملة من هذا الرد .

وقد قال بشار حين لم يشبه سليمان بن هشام بن عبد الملك بما يعتقد أنه كفايته :

فاكحل بعبدة مقلتيك من القذى وبوشك رؤيتها مـن الهملان
فلقرب من تهوى وأنت متيـم أشفى لدائك من بني مروان

أضف إلى هذا كله حقيقة هامة يجب أن نحسب لها حسابها حين نحاسبه على دعارته : وهي الانحلال الخلقي الذي فشا في كثير من أوساط مجتمعه . فالعدل يطالبنا بألا نقصر نظرنا على أثر بشار في إفساد معاصريه ، بل ننظر كذلك في تأثره هو بالفساد الذي شاع في ذلك العصر ، وقد عبر المازني عن هذه الحقيقة خير تعبير حين قال : « ولو كان الوحيد الذي نرى فيه صورة من زمانه لما عذرناه . ولكن الشعراء الذين عاصروه لم يكونوا خيراً منه ، بل لم يكن بعض الخلفاء وأبنائهم وذوي قرابتهم بأهدى وأرشد من بشار . أو أقل خلاعة أو مجوناً وشكاً وزندقة » . وهي كلمات صريحة جريئة لا تترك بي حاجة إلى التطويل ، لكني أسألك أن تتذكرها حين تقرأ الفصل القادم عن شكه وزيغه الديني .

على أنني أزيد على هذا كله فأقول : إن من الخطأ الشديد أن نعتقد أن بشاراً لم يكن في علاقاته مع النساء سوى رجل شهواني لا هم له إلا الشهوة

الحيوانية المحضة . فان بشاراً كان في علاقاته بهن على نصيب عظيم من الرقة والانتشاء الوجداني ، لم يكن كل ما أغراه بهن ناحيتهن الجنسية ، بل كان قادراً على تعرف النواحي السامية المهذبة في جمال المرأة ومتعتها ، وكانت بقلبه رقة للجمال وقدرة على الاهتزاز له اهتزازاً يسمو على الشبق الجنسي . وهذه دعوى أرسلها الآن وسيكون إثباتها حين ندرس شعره الغزل .

متشكك

هناك عامل آخر زاد في كره الناس لبشار واضطهادهم له . ولعلنا لو فهمناه فهما صحيحاً لكان أحرى بأن يحملنا على الرثاء له والإشفاق عليه . ذلك هو ما ظنوه فيه من الكفر والالحاد .

أول ما ينبغي علينا إدراكه في هذه المسألة أن تهمة الكفر والالحاد ليست صحيحة (١) فبشار لم ينته إلى الالحاد أو الكفر ، بل ظل طول عمره حائراً

(١) من المؤسف أن هذه التهمة لم يقتصر استعمالها على معاصري بشار ، الذين قد نلتمس لهم العذر في ما تضافر من الأسباب على تعميق كرههم له ، وسلبهم القدرة على النظرة العادلة او الهادئة المحايدة اليه ، بل تواترت هذه التهمة على اقلام المؤرخين والكتاب من بعده ، حتى رماه بها استاذنا الدكتور طه حسين نفسه ، فيما كتب عن بشار في كتابه «حديث الاربعاء» . واستاذنا الكبير في حملته على بشار يسوق عدداً من الأحكام المتباينة او المتناقضة ، فهو يقول إن بشارا لم يعلن الحاده بل احتمى بالنفاق وهو يضمر الزندقة والالحاد ، ويقول انه كان من اشد الناس الحاداً في الدين وتهالكاً على اللذة ، ويقول انه كان منافقاً في سيرته يداري الناس ويتقيهم ليعيش . ثم يقول إنه أخفى إلحاده ولم يجهر به جبناً . ونحن نسأل الأسئلة الآتية : (١ – ماذا دل استاذنا على إلحاد بشار إن كان مضمراً له مخفياً اياه ؟ ٢ – إن كان مدارياً يلوذ بالتقية فكيف يكون من « اشد الناس الحاداً » ؟ فضلا عن تكرار سؤالنا الأول . ٣ – لماذا يمزج استاذنا بين الالحاد في الدين والتهالك على اللذة ؟ هل كل تهالك على اللذة يصدر عن الحاد في الدين ؟ وهل كل ملحد متهالك على اللذة ؟

ثم نرى استاذنا ينقل التقريرات التي قررها القدامى عن آراء بشار الدينية دون أن ينتبه إلى تناقضها واستحالة اجتماعها في شخص واحد في وقت واحد . وهي ما سنذكره من قولهم أنه آمن=

متشككاً في كل شيء ، وهذا أساس بليته ، أنه ظل متردداً شاكاً لم يستطيع أن ينتهي إلى الإيمان ولم يستطع أن ينتهي إلى الالحاد ، ولهذا قلت أنه ينبغي أن نرثي له ونشفق عليه . وقد يكون بعض القراء أدهشهم أن يقال لهم أنهم ينبغي أن يعطفوا على زائغ لم ينته إلى الايمان وبقي طول عمره متشككاً .

وشرح هذا أن شك بشار كان من أعظم أسباب عذابه في حياته ، فجحيم الشك هول لا يقاربه هول . والذي ينتهي إلى الايمان يسعد به ويجد به برداً وسلاماً ، والذي ينتهي إلى الالحاد كذلك يجد له برداً ، إذ ترتاح كل مخاوفه وتهدأ جميع تحيراته ، ولا يعود يتعب عقله في حل متناقضات الكون ، ويعذب نفسه في محاولة التوفيق بين عدل الله وبين ما في الكون والحياة والمجتمع من ظلم وشر وآثام : يهدأ الآن هدوءاً تاماً إذ تبدو له كل هذه المشاكل وهمية لا أساس لها ، فليس في الكون إله ، ولا له خالق مدبر يصدر في عمله عن قصد وحكمة ، فلا داعي إذن إلى محاولة استكشاف حكمته أو قصده أو التوفيق بينهما وبين فساد الكون وظلمه .

يهدأ الملحد ويجد للإلحاد برداً يوازي ما يجده المؤمنون في إيمانهم ، ولا يخيفه ما يتوعده المؤمنون من العقاب والتعذيب في الآخرة ، بل يسخر من تخويفهم هذا فهو لا يؤمن بحياة آخرة ، بل هو واثق أنه ليس من بعث ولا من حساب ، وبشار ما استطاع طول حياته أن ينتهي إلى هذه الثقة وهذه الراحة ، فظل منغصاً تفتك به الشكوك وتلتهمه المخاوف والريب ، وهذا لا يعرف أتونه المستعر إلا من شك فترة من حياته . وكل مفكر علمي أو ديني فهو يمر بالضرورة في فترة شك في زمن ما من حياته . ولكن معظم المفكرين ينتهي إلى إحدى

= بالرجعة ، وانه صوب رأي ابليس في تقديم النار على الطين والنور على الظلمة ، وانه كفر جميع الأمة . فالأول منها هندي . والثاني ذو اصل مجوسي ، والثالث اسلا مي خارجي .

بل الحقيقة ، كما سنشرح بعد ، هي ان هذه آراء قد يكون بشار تتقلب بينها في شكه الديني الدائب ، وسعيه المتصل إلى الحقيقة التي تقنعه ، ولكن احدا منها لم ينته إلى ان يكون مذهبه .

الراحتين ، راحة الايمان أو راحة الألحاد، وبشار ما انتهى إلى إحداهما، وهذا كما قلت أساس بليته العظمى . يقوى شكه فيظن أنه وصل مرحلة الالحاد التام ، فيبتسم ابتسامة الهازىء الساخر ، ويستعد لهدوء الالحاد وراحته ، ثم ما يلبث أن تعاوده الظنون والمخاوف ، فما أدراه لعل هذا الذي يسخر به حق . وتقوى مخاوفه حتى يخيل إليه أنه بلغ مرتبة الايمان ، فيقول مثل هذين البيتين الظاهري الصدق والحرارة :

كيف يبكي لمحبس في طلـــول من سيفضي لحبس يوم طويل
إن في البعث والحساب لشغـــلا عن وقوف برســـم دار محيل

ولكنه لا يلبث أن يعود إلى شكه القديم .

ويلقى المؤمنين فيجادلهم ويطيل جدالهم ، ويخيل إليه أنه ظفر بهم وأثبت سخفهم ، وما هي إلا برهة حتى يتكدر وجهه ويتقطب جبينه ، فما أدراه لعلهم على حق وهو على ضلال :

« أحمد بن خلاد قال حدثني أبي قال : كنت أكلم بشارا وأرد عليه سوء مذهبه بميله إلى الالحاد ، فكان يقول لا أعرف إلا ما عاينته أو عاينت مثله ، وكان الكلام يطول بيننا ، فقال لي : ما أظن الأمر يا أبا خالد إلا كما تقول ، وأن الذي نحن فيه خذلان ... »

نجد في أخبار القدماء تقريرات مختلفة عن دين بشار . فهم يقررون أنه آمن بالرجعة ، أو أنه صوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين والنور على الظلمة ، أو أنه كفر جميع الأمة ، وكل هذه تقريرات خاطئة إن أريد بها أن هذا هو مذهبه الذي صار إليه وقبله قبولاً نهائياً ، فالحق أن بشارا لم ينته إلى مذهب ما ، بل تقلب بين شتى المذاهب اسلامية وغير اسلامية يدرسها ويناقشها ويمتحنها ، وقد يستهويه أحدها حيناً ثم لا يلبث أن يضيق به ويتشكك فيه ، فقد يكون مال حينا إلى مذهب الرجعة أو غيره من عقائد أهل الهند ، وقد يكون استهواه في فترة ما من حياته رأي أصحاب الديانات الفارسية في عبادة النور

وتقديس النار ، ولا شك أنه كان في زمن ما معتزلياً بل كان من أئمة المعتزلة وقادة الرأي بينهم . ولكن كل هذه المذاهب لم تقنعه اقناعاً كاملاً ، ولم ينته هو إلى مذهب شخصي له يرضاه .

فاستشهادهم بقوله :

الأرض مظلمة والنـــار مشرقـــة والنار معبودة مذ كانت النـــار

أو بقوله :

إبليس خير مـــن أبيكـــم آدم فتنبهوا يا معشر الفجـــــار
إبليس من نار وآدم طينـــــــة والأرض لا تسمو سمو النـــار

لا يثبت تدينه باحدى الديانات الفارسية ، بل يثبت العكس لو تأملته جيداً .

فليس هذا كلام رجل يعبد النار ، بل كلام مجادل منطقي يحاول أن يري الموحدين ما في قول عبدة النار من وجاهة ، وهو أيضاً قول رجل حاقد على البشر جميعاً ، باختلاف أجناسهم ودياناتهم ، حتى يفضل على جنسهم البشري خلقاً آخر ، فيقول لهم هذا الشعر لا لأنه يعبد النار أو يحب إبليس بل لمجرد أن يغيظهم ويحنقهم .

كل هذه التقريرات خاطىء إذن . أما التقرير الوحيد الذي لا شك في صحته فهو الذي يرد في القصة الآتية :

« سعد بن سلام قال : كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وبشار الأعمى ، وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، ورجل من الأزد — يعني جرير بن حازم — فكانوا يجتمعون في منزل الأزدي ويختصمون عنده . فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصمّما على الثنوية، وأما بشار فبقي متحيراً مخلطاً ، وأما الأزدي فمال إلى قول السمنية ، وهو مذهب من مذاهب الهند ، وبقي ظاهره على ما كان عليه » .

بقي متحيراً مخلطاً ، هذا هو الحكم الصحيح ، ولكنك لا تقدر مبلغ هذا الهول ان لم تعرف شيئاً عن حالة العصر ومدى اضطرابه ، وشيئاً عن عقلية بشار .

أما العصر فكان من أشد عصور التاريخ الاسلامي زعزعة واضطراباً ، شهد انقلاباً سياسياً عظيماً هو تحول الملك من البيت الأموي إلى البيت العباسي ، أو كما ندرك نحن الآن ، وكما أدرك العرب بعده بنصف قرن ، تحوله من العرب إلى الفرس . وشهد غير هذا فتنا وثورات كثيرة وحروباً أهلية وخارجية . وشهد بحوراً متلاطمة متعارضة من المذاهب والعقائد من الخوارج ، والشيعة ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والرافضة ، وفرق عديدة من العلويين ، أضف إليها جميعاً فرق المجوس ، والنصارى ، واليهود ، والصابئة ، يناحر بعضها بعضاً ، فالذي يظل متحيراً مخلطاً بينها جميعاً قد ذاق عذاب الشك حقاً .

فبشار لم يكن شكه مجرد النصيب العادي الذي يوجد لدى كل الناس ، حتى أتمهم إيماناً ، فهم تمر بهم فترات متراوحات يقولون فيها : أهذا كله حق ؟ أهناك جنة ونار حقاً ؟ أهناك حقاً ملائكة وشياطين وبعث وحساب ؟ أديننا وحده هو الصواب ؟ إلى آخر ما يعن لهم من ظنون . ولكن هذه فيهم نزوات فكر لا تلبث أن تتبدد ويحل محلها الايمان التام الراضي المسلم بكل شيء . أما شك بشار فكان من النوع الذي يلتهم صاحبه التهاماً . وسر ذلك ان بشارا لم يكن فرداً عادياً . ولا كان مجرد فنان شاعر ، ولا كان مفكراً متواضع النصيب من التفكير ، بل كان من أعظم ذوي العقول في عصره .

كان بشار من أعظم ذوي العقول في عصره ، وهذه الحقيقة تغيب علينا في معظم حديثنا عن بشار ، لا نتحدث عنه إلا من ناحية شاعريته . ونحن في هذا معذورون ، فالذي وصلنا منه هو شعره ، لا تفكيره وجداله ومناقشته . فبشار من هذه الناحية شبيه بعمر الخيام ، الذي كان من أعظم العلماء الرياضيين في عصره ، والذي لا يعرف الآن إلا بشعره . ولكننا ان تأملنا أقوال القدماء عن عقل بشار وعن علمه استطعنا أن نحزر نصيبه منهما . فقد كان مشهوراً في

عصره وفيما تلاه لا بشعره وحده بل بسعة علمه وقوة تفكيره كذلك ، وبنثره ورسائله وخطابته ، ويبدو أن علمه وفكره شملا كل نواحي الثقافة في عصره ، دينية وفلسفية ، اسلامية وغير اسلامية ، وهذا ابن المعتز يقول عنه في طبقاته : « كان من أفقه الناس وأعلمهم بكتاب الله .. وكان يقول ما أعلم شيئاً مما عندي أقل من الشعر .. وكان بشار يعد من الخطباء البلغاء الفصحاء .. ولا أعرف أحداً من أهل العلم والفهم دفع فضله » .

ونحن ان لم يكن قد وصلنا من جدله وخطابته ما نستكشف منه مدى عمق فكره ، فانه يكفينا أنه كان في زمن ما أحد المعتزلة . لست اعني أنه كان من متبعي مذهب الاعتزال ، بل كان من أئمتهم وقادة الرأي بينهم ، بل يبدو لي أنه كان من روادهم الذين أسسوا فلسفتهم ووضعوا أصول تفكيرهم . والخبر الذي رويناه آنفاً يعده أحد ستة من أصحاب الكلام في البصرة ، ومن هؤلاء الستة عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ، وهما من هما في علم الكلام ومذهب الاعتزال . وقصة خروجه على المعتزلة وانتهائه إلى رفض مذهبهم قصة عظيمة الدلالة على شكه الذي لا يهدأ . فقد كان في أول الأمر صديقاً لواصل بن عطاء شديد الملازمة له في حلقات البحث والمناظرة ، ثم لما انتهى إلى الخروج على الاعتزال رماه واصل بالألحاد وسعى في تحريض الناس عليه ، فقال بشار يهجوه :

ما لي أشايع غزالا لـــــه عنـــق ... كنقنق الدو[1] إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالــــكمو ... تكفّرون رجالا كفّروا رجلا !

تأمل في قوله « ما لي أشايع » فإنه يريك بدأ تململه من الاعتزال وعدم اكتفائه به . أما البيت الثاني فبالغ الأهمية، إذ يرينا أن سبب خروجه على المعتزلة هو مبالغتهم وافراطهم في قضاياهم النظرية إلى حد أنهم يكفّرون من لا يرى رأيهم . وبيته هذا ينقض قولهم عنه أنه كفّر جميع الأمة، فهو يدل على

(١) النقنق : ذكر النعام . والدو : الفلاة . وسمى واصل بالغزال لكثرة جلوسه في سوق الغزالين إلى صديق له .

أن أكره شيء إليه كان التعصب المذهبي المسرف ولجوء كل فريق إلى تكفير الفرق الأخرى ، وهو يفضل إذ حار بينها جميعاً أن يتسامح معها جميعاً . فالخوارج كفّروا علياً لأنه قبل التحكيم، والمعتزلة يكفّرون الخوارج لأنهم كفّروا علياً، ثم يأتي آخرون فيكفّرون هؤلاء لأنهم كفروا أولئك. فما نهاية كل هذا التكفير سوى الضيق المذهبي البغيض الذي يجرُّ إلى التعصب والاضطهاد والتعذيب ؟

بشار لم يكفّر أحداً، ولم يكفر بمذهب ، بل تساوت لديه جميع المذاهب في الشك . هناك أخبار يستدل بها البعض على أنه كفر بالأسلام . منها قول بعض أصحابه : كنا إذا حضرت الصلاة نقوم ويقعد بشار فنجعل حول ثيابه تراباً لننظر هل يصلي فنعود والتراب بحاله . ومنها أنهم سألوه يوماً : حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم تصل ، فأجابهم : ان الذي يقبلها تفاريق يقبلها جملة ! ومنها قوله إن شعراً له يغني فيه أحسن من سورة الحشر ، أو من فلج يوم القيامة .

وكل هذه لا دليل فيها على الكفر بالإسلام . وليس ترك الصلاة وحده بدليل على أنه اقتنع بخطأ الإسلام، ورده على من سألوه لِمَ لم يصلِّ لا يزيد على أن يكون رداً لاذعاً على أناس يتدخلون فيما ليس من شأنهم ، وخليق بنا ألا نقصر غضبنا على بشار لأنه لم يصلّ ، بل نصبه كذلك على اؤلئك الصفقاء يتجسسون عليه ويضعون عليه التراب وما عليهم من عدم صلاته حساب ، والاسلام دين لا يقر التفتيش والتجسس على أحوال الفرد الدينية كما أقرتهما أديان أخرى . وأما فخره بشعره فقد قدمنا القول في أنه لا يزيد على أن يكون أسلوباً سيء الأدب جمح به لسانه في حالة طرب .

بقي بشار شاكاً متردداً ، وهو في نظرنا رائد مدرسة الشك في الفكر العربي .

على أن هنـــاك رأياً دينياً واحداً نستطيع أن نطمئن إلى أن بشارا ، في كل شكه وتحيره ، قد آمن به ايماناً تاماً . ذلك هو رأي الجبرية . فله هذه الأبيات الرائعة :

طُبعـت على مـا فيّ غير مخير | هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطَى ولم أرد | وقصر علمي أن أنـال المغيبا
فأصرف عن قصدي وعلمي ثاقب | فأرجع ما أعقبت إلا التعجبـا
لعمري لقد غالبت نفسي على الهوى | لتسلى فكانت شهوة النفس أغلبا
ومن عجب الأيام ان اجتنابهـا | رشاد وأني لا أطيق التجنبـا

ما أشجاها وأشد تأثيرها ! وما أعظم نصيبها من الصدق ، فهي أبيات نستطيع ان نرددها دون أن نخرج عن دائرة الايمان أو نتلطخ بالزيغ ، دعك من الكفر . فالمذهب الجبري مذهب مقبول محترم في كل الديانات السماوية ، بل هو المذهب السائد لدى أهل السنة الاسلامية . فتأمل فيها ، وانشدها وتغن بها كلما صدر عنك تصرف انت ادرى الناس بخطئه أو سخافته . وأينا يريد ان يكون غير مهذب ؟ أينا لا يريد ان يكون في كل حالاته فاضلاً ، عفيفاً ، صادقاً ، باراً بالوعد ، رحيماً ، حليماً عاقلا راشداً حكيماً ؟ أينا لا يريد ان يكون جماع الفضائل ، وان يصير مضرب الأمثال بين الناس في الخير والتقوى والصلاح ؟ أم تظن أن المجرم الشرير « يريد » الشر والأجرام والأثم ؟ ولكننا بشر ، لسنا آلهة ، فينا ضعف البشرية الذي قد نحاول جهدنا مغالبته ، ولكنه يغلبنا في أحوال كثيرة ، وقد نكون أثقب الناس علماً بما فيه خيرنا وفلاحنا ، وقد نسعى له قاصدين، ثم تصرفنا عنه بشريتنا العاجزة (1) ، ومن لم يكن منا بلا خطيئة فليرمنا بأول حجر ، تبارك الله وحده ، فله وحده المثل الأعلى في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

* * *

تأمل الآن في هذا العنصر الجديد من شخصية بشار ، عنصر شكه الديني

---

(1) كرر بشار نفس المعنى في قوله (الديوان ٤/١٥٠) :

وإني لآتي الأمر أعرف غيه | مراراً ، وحلمي في الرجال أصيل

واضطرابه الفكري ، وفكر في نصيبه من تكوين نفسيته الخاصة ، واقرنه إلى العناصر السابقة لترى ما يتولد عن هذا الاقتران . اقرنه مثلاً إلى شهوانيته المفرطة ، تجد انه لا بد ان قد زادها حدة وفجوراً . فلو انه انتهى إلى الأيمان التام لربما خفف هذا من استعارها أو قمع من جموحها أو حبسها في الحدود التي يقرها الدين ويرضاها المجتمع ، ولكني لا أعني هذا وحده ، فالذي لا شك فيه أن تحيره الديني والفكري دفعه إلى أن يلتمس في اللذة الجنسية شبه عزاء وسلوى، وجد فيها مخلصاً وقتياً من جحيم الشك، كلما لذعته ألسنة الشكوك اندفع إلى النساء ينشد في صحبتهن وفي وصالهن فترة نسيان ومتنفس عقلية معذبة ، فهو في هذه الناحية أيضاً يشبه عمر الخيام بعض الشبه ، الذي أقبل على الخمر وعلى المحبوبة وعلى الطعام الشهي يبغي في هذه الملذات الحسية تسكيناً وتخديراً لسعير الريب الدينية والمخاوف الفكرية .

ممقوت

ثم تأمل في هذا السبب الجديد لبغض الناس إياه ، واقرنه بالأسباب الأخرى لترى كيف تعاونت جميعاً على مضاعفة كرههم له وإيصاله إلى أقصى حد من الكره تستطيع قلوبهم .

فهم لم يبغضوه لما ظنوا فيه من الالحاد فحسب، بل أبغضوه لأنه ملحد أعمى، والناس دائماً يرون في اجتماع العمى والالحاد فظاعة وشراً ليس بعدهما فظاعة أو شر ، ولأمر ما كان واصل يسميه دائماً « هذا الأعمى الملحد » . فلو أنه كان زنديقاً مبصراً لهان الأمر ، لست أدري لماذا ، ولكن سل الناس فهذا رأيهم .

ولو أنه كان زنديقاً عربياً لهان خطبه أيضاً ، ولكن زنديق أعجمي ، مولى خسيس يجرأ على الزيغ ! هذه شناعة مضاعفة .

ولو أنه كان ملحداً فاضل السيرة، ولكنهم رأوه ملحداً فاسقاً هجّاءً سليطاً

لاذع اللسان . ثم أضف سائر عيوبه ، من العمى الفظيع والدمامة والضخامة المخيفة ، فإنك تبتدىء الآن في الإدراك الحقيقي لمبلغ كرههم له .

فقد كان كرههم له من أشد نوع من الكره يستطيعه القلب الإنساني ، وهو الكره الممزوج بالخوف والرهبة ، فلو استطعنا أن نتغلغل إلى باطن عقولهم لنرى الصورة التي ارتسمت عنه في أذهانهم لوجدنا صورة فظيعة عظيمة الارعاب. صار لديهم أكثر من إنسان مكروه مخوف . صار « بعبعاً » ، صار وحشاً ممسوخاً غير إنساني ، صار تجسماً بشرياً لتلك المخلوقات الخرافية التي تتخيلها الإنسانية وتتخذها رموزاً ترمز بها إلى كل ما يداخل القلب البشري من الاحتقار الممزوج بالرهبة ، والكراهية المقترنة بالرعب ، والبغض المختلط بالذعر الشديد .

وسنقص الآن من روايات القدماء قصصاً تبين مقدار مقتهم إياه وتخوفهم منه . والعجيب أن بشاراً لم ينزعج من هذه الصورة التي كونوها عنه ، بل يبدو أنه رحب بها وشجعها عامداً . ولكن لا يصعب علينا سر ذلك ، فهو قد استكشف أن في كرههم له وخوفهم منه حماية له من أذاهم ، فبذل جهده في تنمية هاتين العاطفتين فيهم وإعطاء الأسباب التي تبررهما وتعززهما ، ولم يكن هذا منه سوى دفاع المستضعف وسلاح العاجز . ولم يكن لمثله سوى سلاح واحد ، الهجاء ، فأكثر منه وأقذع فيه حتى يخيفهم وينفرهم .

يقول خلف :

« كنت أسمع ببشار قبل أن أراه . فذكروه لي يوماً وذكروا بيانه وسرعة جوابه وجودة شعره ، فاستنشدتهم شيئاً من شعره فأنشدوني شيئاً لم يكن بالمحمود عندي . فقلت : والله لآتينه ولأطأطئن منه . فأتيته وهو جالس على بابه ، فرأيت أعمى قبيح المنظر عظيم الجثة . فقلت : لعن الله من يبالي بهذا . فوقفت أتأمله طويلاً ، فبينما أنا كذلك إذ جاءه رجل فقال : إن فلاناً سبك عند الأمير محمد بن سليمان ووضع منك . فقال : أو قد فعل ؟ قال : نعم . فأطرق ، وجلس الرجل عنده وجلست ، وجاء قوم فسلموا عليه فلم يردد عليهم ، فجعلوا

ينظرون إليه وقد درت أوداجه . فلم يلبث إلا ساعة حتّى أنشدنا بأعلى صوته وأفخمه :

نبئت . . . أمـــه يغتابنـــي عند الأمير وهـــل عـــليَّ أمير

ناري محرقـــة وبيتي واســـع للمعتفين ومجلسي معمـــور

ولى المهابـــة في الأحبة والعـــدا وكأنني أسد له تامـــور [1]

غرثت حليلته وأخطـــأ صيـــده فله على لَقَم الطريق زئير [2]

قال : فارتعدت والله فرائصي واقشعر جلدي وعظم في عيني جداً ، حتى قلت في نفسي : الحمد لله الذي أبعدني عن شرك . »

ويتحدث أحد معاصريه يقول :

« أتاني اعشى سليم وأبو حنش فقالا لي : انطلق معنا إلى بشار فتسأله أن ينشدك شيئاً من هجائه في حماد عجرد أو في عمرو الظالمي ، فإنه إن عرفنا لم ينشدنا . فمضيت معهما حتّى دخلت على بشار فاستنشدته فأنشد قصيدة له على الدال فجعل يخرج من واد في الهجاء إلى واد آخر وهما يستمعان وبشار لا يعرفهما . فلما خرجا قال أحدهما للآخر : أما تعجب مما جاء به هذا الأعمى ؟ فقال أبو حنش : أما أنا فلا أعرض والله والديّ له أبداً . وكانا قد جاءا يزورانه ، وأحسبهما أرادا أن يتعرضا لمهاجاته . »

ويروي الاصمعي :

« لما أنشد بشار أرجوزته : « يا طلل الحي بذات الصمد » أبا الملدّ عقبة بن سلم أمر له بخمسين ألف درهم . فأخرها عنه وكيله ثلاثة أيام ، فأمر غلامَه بشار أن يكتب على باب عقبة عن يمين الباب :

---

(١) تامور : عرين . والأبيات في أغاني دار الكتب ١٩١/٣ .

(٢) غرثت : جاعت : لقم الطريق : متنه ووسطه

ما زال ما منيتني مـــن همـــي والوعد غم فأزح من غمـــي
إن لم ترد حمدي فراقب ذمـــي

فلما خرج عقبة رأى ذلك . فقال : هذه من فعلات بشار . ثم دعا بالقهرمان فقال : هل حملت إلى بشار ما امرت له به ؟ فقال : أيها الأمير نحن مضيقون وغداً احملها إليه . فقال زد فيها عشرة آلاف درهم واحملها إليه الساعة . فحملها من وقته . »

ويروي عافية بن شبيب :

« قدم كردي بن عامر المسمعي من مكة ، فلم يهد لبشار شيئاً وكان صديقه . فكتب إليه :

ما أنت يا كردي بالهـــــش ولا أبريك مـــن الغـــش
لم تهدنا نعلاً ولا خاتمـــا من أين أقبلت ؟ من الحش؟ (١)

فأهدى إليه هدية حسنة وجاءه فقال : عجلت يا أبا معاذ علينا . فأنشدك الله ألا تزيد شيئاً على ما مضى . »

ويروى عن الرياشي قال :

« حضر بشار باب محمد بن سليمان . فقال له الحاجب . اصبر ، فقال : ان الصبر لا يكون إلا على بلية. فقال له الحاجب : اني أظن ان وراء قولك هذا شرا ولن أتعرض له ، فقم فادخل . »

ويرى ان الأخفش طعن على بشار في استعماله في شعر له لفظ « الوجَلَى » ولفظ « الغزلي » والجمع « نينان » فقال : لم يسمع من الوجل والغزل فعلى ، ولم أسمع بنون ونينان (٢) . وتستمر القصة : « فبلغ ذلك بشارا فقال : ويلي على

(١) الحش : المرحاض .
(٢) الأخفش مخطىء في هذا ، فنينان لغة صحيحة . أما سائر مآخذه فقد أقر العلماء بحق التصريف اللغوي الذي أقروا به لكبار الشعراء .

القصارين ! متى كانت الفصاحة في بيوت القصارين ! [1] دعوني وإياه ! فبلغ ذلك الأخفش فبكى وجزع . فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : وما لي لا أبكي وقد وقعت في لسان بشار الأعمى ! فذهب اصحابه إلى بشار فكذبوا عنه واستوهبوا منه عرضه وسألوه ألا يهجوه . فقال وهبته للؤم عرضه . فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعره في كتبه ليبلغه ، فكف عن ذكره بعد هذا . »

ويروي نظير هذا الخبر عن سيبويه ، وان بشاراً هجاه ببيتين ، فتوقاه سيبويه بعد ذلك ، وكان اذا سئل عن شيء فأجاب عنه ووجد له شاهداً في شعر بشار احتج به استكفافاً لشره .

ويروى عن أحد الأدباء قال :

« غضب بشار على سلم الخاسر وكان من تلامذته ورواته ، فاستشفع عليه بجماعة من اخوانه فجاءوه في أمره . فقال لهم : كل حاجة لكم مقضية إلا سلماً . قالوا : ما جئناك إلا في سلم ، ولا بد من ان ترضى عنه لنا . فقال : أين هو الخبيث ؟ قالوا : ها هو ذا . فقام إليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه وقال : يا أبا معاذ ، خريجك وأديبك . فقال : يا سلم ، من الذي يقول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

قال : انت يا أبا معاذ ، جعلني الله فداءك ! قال : فمن الذي يقول :

من راقب الناس مات غماً ... وفاز باللذة الجسور

قال : خريجك يقول ذلك — يعني نفسه — قال : أفتأخذ معانيّ التي قد عنيت بها وتعبت في استنباطها ، فتكسوها ألفاظا اخف من ألفاظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري ! لا أرضى عنك ابداً . قال : فما زال يتضرع ويشفع له القوم حتى رضي عنه .»

---

(١) القصار : محور الثياب .

وعن عباد بن عباد قال :

« مررت ببشار فقلت : السلام عليك يا أبا معاذ . فقال : وعليك السلام ، أعباد ؟ فقلت : نعم . قال : اني لحسن الرأي فيك . فقلت : ما أحوجني إلى ذلك منك يا أبا معاذ ! »

لا غرو ان يرووا عن وفاته: « لما مات بشار ونعي إلى إهل البصرة تباشر عامتهم وهنأ بعضهم بعضاً وحمدوا الله وتصدقوا لما كانوا قد منوا به من لسانه . » واستمع إلى هذه القصة تريك كيف لم يصدق بعضهم بوفاته حين بلغته ، كأنها سعادة مستحيلة :

« سالم بن علي قال : كنا عند يونس فنعى بشاراً إلينا ناع ، فأنكر يونس ذلك وقال : لم يمت ! فقال الرجل : انا رأيت قبره . فقال : انت رأيته ؟ قال نعم ، وإلا فعليَّ وعلي . وحلف له حتى رضي . فقال يونس : لليدين والفم [1] »

وقبل ان تقبض روحه بعد جلده بادر اشراف البصرة فبعثوا إليه بالفرش والكسوة والهدايا ، كأنهم يخشون ان لا يموت فيأخذهم بأهمالهم أياه ، فلما مات « اخرجت جنازته فما تبعها احد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح ، رأيتها خلف جنازته تصيح : واسيداه ! واسيداه ! . »

ثم يقول احد شعرائهم فيه كلمتهم الأخيرة :

يا بؤس ميت لم يبكه أحد أجل ولم يفتقده مفتقد
لا أم أولاده بكته ولم يبك عليه لفرقة ولد
ولا ابن أخت بكى ولا ابن أخ ولا حميم رقت له كبد
بل زعموا ان أهله فرحا لما اتاهم نعيه سجدوا

وكان هذا وداعهم له :

---

(١) مثل يقال عند الشماتة بسقوط إنسان ، والمراد أسقطه الله على يديه ورجليه .

قد تبع الأعمى قفـــا عجــرد　　فأصبحـــا جارين في دار
قالت بقـــاع الأرض لا مرحبا　　بروح حمـــــاد وبشار
تجـــــاورا بعـــــد تنائيهما　　ما أبغض الجار إلى الجـــــار
صارا جميعـــاً في يـــدي مالك　　في النار والكافر في النـــــار

كاره للبشر

قلنا إن بشاراً تعمد أن يزيد الناس كرهاً له وخوفاً منه ، واتخذ من هذا سلاحاً يحميه من عدوانهم . ولكن ليس منا من يحب أن يكرهه الناس ، مهما ادّعى أن هذا لا يهمه. فلا بد أن بشاراً تعذب عذاباً عسيراً من هذا الكره الذي سعى هو في إذكاء ناره . فتأمل هذا المصدر الجديد لعذابه ، وأضفه إلى عذاب شكه وتخبطه في ليل فكري دائم ، وإلى عذاب عماه ، وعذاب دمامته ، وعذاب مولويته وولادته على الرق وحطة أبيه ، تجد أن بشارا عاش عيشة لا يحسد عليها ، عيشة لا يتمناها أحدنا لعدو فضلا عن حبيب .

فلا غرو أن ينتهي هذا إلى أن يكره الناس . ولسنا نعني بهذا ما يتعاور كلا منا في فترات مختلفة من ضيق صدر بالناس وبرم بهم وإيثار وقتي للوحدة . إنما نعني الكره الحقيقي للجنس البشري Misanthropy . انتهى بشار إلى كره الناس هذا الكره العميق الصادق الدائم . فلم يكن أثقل عليه من مخالطتهم ، ولم يكن أحب إليه من الفرار من عشرتهم جهد ما يستطيع ، وما فتىء يتمنى إلى الله أن يريحه منهم .

يروون عنه أنه كان من أشد الناس تبرماً بالناس . ويروون أيضاً أنه كان ضيق الصدر متبرماً بالناس ، فكان يقول اللهم اني قد تبرمت بنفسي وبالناس جميعاً ، اللهم فأرحني منهم . وبلغت به الحال ان صار يحمد الله على عاهته التي تصونه من رؤية وجوههم . وهذه دعوى قد يكون بدأ بها لمجرد التعزي

عن حرمان البصر ، ولكن لما طال به الضر صار يقولها مخلصاً ، وانك لا تخطىء هذا الاخلاص في روايتهم : « وكان يقول : الحمد لله الذي ذهب ببصري ، فقيل له : ولم يا أبا معاذ ؟ قال : لئلا أرى من أبغض » .

ولم يتبرم بشار بأعدائه وحدهم ، بل كثيراً ما كان يثقل عليه أصدقاؤه ، فان تذكرنا مقدار ما لقيه من إيذاء مقصود وغير مقصود منهم أيضاً لم نستغرب ذلك . يقول في بعضهم :

وكيف يخف لي بصري وسمعي — وحولي عسكران من الثقـال
قعودا حول دسكرتي وعنـدي — كـأن لهم عليّ فضـول مال
إذا ما شئت صبحني هـلال — وأي الناس أثقل من هـلال

ويقول في آخر :

ربما يثقل الجليس وإن كـا — ن خفيفـاً في كفـة الميـزان
كيف لا تحمل الأمانـة أرض — حملت فوقها أبـا سفيان

وله في نفس الرجل هذان البيتان الشديدا السخط والهياج :

هل لك في مالي وعرضي معـا — وكل ما يملك جيرانيـه
واذهب إلى أبعـد ما ينتـوى — لا ردك الله ولا ماليـه

وبلغ به استثقاله للكثيرين من جلسائه أنه كان يعمد إلى وسائل عظيمة الجفاوة للتخلص منهم :

« قعد إلى بشار رجل فاستثقله ، فضرط عليه ضرطة ، فظن الرجل أنها أفلتت منه ، ثم ضرط أخرى ، فقال : أفلتت ، ثم ضرط ثالثة ، فقال يا أبا معاذ ، ما هذا ؟ قال : مه ! أرأيت أم سمعت ؟ : بل سمعت صوتاً قبيحاً . فقال : فلا تصدق حتى ترى ! »

ويروى عن بعض جلسائه أنهم أتوه فأذن لهم والمائدة موضوعة بين يديه

فلم يدعهم إلى طعامه . فلما أكل دعا بطست فكشف عن سوءته فبال . ثم حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم يصل . فلما عاتبوه أجابهم بما يدلنا على أنه إنما تعمد هذه الاساءات ليغيظهم ويحملهم على تركه إذ استثقل صحبتهم . ولكنهم كما تدل القصة بقوا لديه من قبل الظهر إلى ما بعد المغرب !

ولما ليم على كثرة هجائه علله بفساد ظنه بالناس ، فقال : « إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر ، وإلا فليبالغ في الهجاء . » ولا يهمنا الآن أمحق هو أم غير محق في سوء ظنه هذا ، إنما يهمنا دلالة هذا الخبر على مقدار تسمم ذهنه ضد الناس .

الجانب الثاني : نور

معاصرونا ونقادنـــا

لسنا نريد في محاولتنا إنصاف بشار أن نتجنى على معاصريه . فإن كان قد لقي منهم شراً كثيراً فقد لقوا منه شراً ، صحيح أن الشر الذي فيه إنما تولد أكبره عن تتبعهم إياه بالأساءة ، ولكن الدراسة الأدبية الصحيحة ـ دعك من العدل ـ تقتضينا أن ننظر إلى المشكلة لا من وجهة نظره هو وحده بل من وجهة نظرهم أيضاً ، حتى نتعرف عقيدتهم فيه وشعورهم نحوه . وحين نفعل ذلك فلا بد أن نراعي حالة مجتمعهم ، ومستواهم الفكري والذوقي ، وتقاليدهم الدينية والخلقية ، والا نتطلب منهم ما كانوا عنه عاجزين .

فهذا وحش هائل الحجم زائد الضخامة ، أعمى شنيع العمى ، قبيح الوجه مجدوره ، لا عجب أن ينفروا من مرآه ، ولا يلام أمثالهم اذا خلطوا بين النفور الجمالي والنفور الخلقي ، فليس من العدل أن نطالبهم بما يستطيعه ذهننا المثقف المتعمق من التمييز الحاد بين الحكمين .

وهذا رجل برغم دمامته الفظيعة لا يفتأ يتحبب إلى النساء ويتابعهن ، وينجح فعلاً مع الكثيرات منهن، ولا يكتفي بهذا بل يعمد إلى رواية مغامراته في شعر شديد التأثير على الفتيان والنساء ، ثم لا يكتفي بالرواية حتى يدعو

الشبان والنساء دعوة صريحة إلى إهدار الحدود الخلقية التي يتقيد بها المجتمع .

وهذا أعمى شديد اللجاجة عنيف الخصومة دائم العناد ، لا يرضى بما قسم له من عاهة لا سبيل إلى إصلاحها ، ولا يقنع بما تفرض عليه من منزلة وضيعة في المجتمع . لا يرضى بما يرضى به العميان عامة من الاستكانة للمبصرين ، ولا يقبل ما يفرضون على العميان من الأسبقية والسيطرة .

وهـــذا مولى خسيس الاصل لا يؤدي إلى أسياده العرب ما ينبغي لهم من الأجلال والخضوع ، بل يظل يكابرهم ويحاول ان يكون لهم ندا نظيراً ، ويتطلب منهم ما لا يستطيعون ان يؤدوه إلى مولى من الاحترام والاعتراف بالمساواة ، ويتجاوز هذا كله فيدعو سائر الموالي إلى التمرد على أسيادهم .

وهذا زنديق فاسد العقيدة زائغ عن الدين السوي ، لا يقبل الاسلام ولا يبادر إلى الاعتراف بصحته وصدقه كما يفعل معاصروه ، ولا يفتأ في حلقات المناقشة التي يؤمها يثير فيه الشكوك والريب . ونحن لا نستطيع أن نفرط في لومهم اذا لم يميزوا بين الشك والالحاد ، واذا لم يدركوا أنه ان لم يقبل الاسلام فهو أيضاً لم يقبل المسيحية أو اليهودية أو المجوسية أو سواها من الأديان . ونتجنى عليهم أشد التجني إذا انتظرنا منهم ان يدركوا أن بشارا لم يختر الشك عناداً وانما اضطر إليه ، أو انتظرنا منهم أن يدركوا عذاب الشك وسعيره ، وأن يحملهم هذا الادراك على مسامحته والرثاء له لا على بغضه والسخط عليه .

وهذا رجل بذيء اللسان مفحش اللفظ هجّاء ولوع بالهجاء مقذع فيه ، آذاهم بهجائه ايذاءً طويلاً ، وكان في كثير من هجائه هذا ظالما مبتدئاً .

وأخيراً هذا رجل برغم كل عيوبه السابقة الذكر يصر على ان يدعي لنفسه مركزاً في المجتمع لا يفهمون له مبرراً . قد يكون شاعراً مجيداً ولكن أهذا وحده يؤهله لما يدعيه من المكانة ؟ ثم ما شعره هذا ؟ أليس جزء عظيم منه هجاء شنيعاً وجزء آخر دعارة لا تقل شناعة ؟ وقد يكون مفكراً بارعاً ، ولكن ما فكره هذا ؟ أليس معظمه غمزاً في الدين وتشكيكاً في عقائده ؟ أفبهذا يريد

أن يعاملوه معاملة الند ، بل يزيد فيريد أن يعدوه عظيماً من عظمائهم وسيداً من ساداتهم ، برغم مولويته وخساسة أصله وولادته على الرق ؟

وصحيح ان العرب ظلموا الموالي ظلما مبيناً ، وأنهم في ظلمهم هذا عصوا ما يأمرهم به دينهم من التسوية التامة بين أجناس الانسانية . ولكن أيستطيع أحدنا أن يسرف في لوم العرب ، في جهلهم وبداءتهم وشراسة طباعهم وبقائهم على كثير من صفاتهم الجاهلية التي لا يزالون قريبي عهد بها — أيستطيع أحدنا أن يسرف في لومهم وهو يرى الآن أمما متحضرة عالية القدر في التهذيب والمدنية تعامل الشعوب المقهورة بإساءة لا تقل عن إساءة العرب ان لم تزد ؟ هذا مع أن لها في ثقافتها وتحضرها ، وفي خبرتها بعظات التاريخ ودروس الاجتماع ، وفي بصرها بأصول السياسة وحقائق علم الاقتصاد ، ما كان ينبغي ان يصونها من هذا التصرف الخاطىء الضار بها وبالمحكومين ، حين لم يكن للعرب شيء من هذا كله . ثم لا ينبغي ان ننسى في هذا كله أن العرب ان حرموا الموالي العدل الاجتماعي ، فهم على الأقل قد حققوا لهم العدل القضائي ، وهو عدل لم تظفر به كثير من الأجناس الملونة في عصرنا الحديث ، ولم يتجاوزوا الإساءة إلى القتل ، وهو نصيب كثير من الزنوج في أمريكا .

لا نستطيع اذن أن نسرف في لوم معاصريه ، كما اننا لا نستطيع أن نسرف في لومه ، فالحق أن قضية بشار هي مثال آخر[1] للمأساة الحقيقية الصادقة التي لا تفتأ تتكرر في تجارب البشرية ، والتي يصدر فيها الاثم والعدوان وتصدر التعاسة والشقاء لا عن قصد عامد بل عن نقائص تكمن في طبيعة البشر من حيث أنهم بشر ، ثم يبتعثها فيهم تصارع الشخصيات وتعارض الطباع ، أو عن قوى غلابة وظروف قاهرة ليس في طوق فرد واحد أو مجتمع واحد تبديلها .

لا نستطيع أن نسرف في لوم معاصريه ، وكل محاولتي السابقة في الاعتذار لعيوبه لم يكن القصد منها لومهم ، بل الذين نستطيع أن نلومهم حقاً هم

(١) درس المؤلف مثالا سابقاً في كتابه « ثقافة الناقد الأدبي » .

نقادنا المعاصرون الذين ظلموا الرجل ظلماً شديداً ، ورسموه بصورة اتبعوا فيها ظن أهل عصره به وكراهتهم وحزازتهم ضده .

هؤلاء النقاد المعاصرون هم الذين نستطيع أن نلومهم لوماً عادلاً ،لسببين اثنين :أولهما أن ما أثاره بشار من العداوات والحزازات قد ماتت بموته وانقضاء معاصريه من ألف ومائتي سنة ، وفي إمكاننا الآن أن نقبل على دراسته ودراستهم متجردين عن الأغراض متنزهين عن الخصومة الشخصية . وثانيهما أننا نستطيع أن نكون أقدر على الدراسة الأدبية الصحيحة والتقدير الشخصي العادل ، بما لنا من ثقافة أنضج ، وفكر أحد ، ووسائل للتحقيق الأدبي والتحليل النفسي أكمل وأجود . فلا يكفينا أن نقول : فلان داعر ، أو فلان متكبر ، أو فلان زائغ ، بل يجب أن نسأل : لم هو داعر أو متكبر أو زائغ . فلعلنا لو تعمقنا أسباب عيوبه تلك لانتهينا إلى مسامحته ، بل لعلنا نتجاوز المسامحة إلى الشفقة به والدفاع عنه .

نواحيه الخيرة

أخطأ نقادنا المعاصرون دراسة نقائص بشار ، ولو حاولوا تفهمها تفهماً هادئاً واستطلاع أسبابها استطلاعاً محايداً لاتضح لهم أن معظمها لم يكن شيئاً أصيلاً فيه ، بل هي نزعات سيئة وقوى شريرة أوجدها فيه المجتمع الذي عاش فيه وما لقيه من هذا المجتمع من معاملة . والذي كان منها فيه بالطبيعة إنما نمّاه ذلك المجتمع وتلك المعاملة فأوصلاه إلى حده المفرط . فبشار لم يكن شريراً من أصله ، بل شره صفة مكتسبة ولّدتها فيه بيئته .

ولكن خطأ نقادنا لم يقتصر على تجسيمهم لعيوبه ورفضهم تحري أسبابها ، فإنهم في انهماكهم في تحقيق عيوبه قد أغفلوا الجانب الآخر من المسألة : أغفلوا نواحيه الخيرة التي لا شك فيها .

أكان بشار كشكول نقائص ومجموع عيوب ورذائل لا أثر فيها لناحية خيرة ؟ أكان صورة مظلمة حالكة الظلمة لا بصيص فيها من نور ؟ أكان شريراً أثيماً قاسياً غليظ القلب لا مسيس فيه من رقة ولا نسمة من رحمة أو حنان ؟ هذا ما نتخيله لو قبلنا فيه رأي معاصريه ورأي نقادنا ، وهذا ما ننتهي إلى رفضه لو دققنا التأمل في شخصيته كما تصورها روايات القدماء أنفسهم ، ولم يفسد تأملنا فكرة سابقة مفروضة أو تعصب جنسي أو ديني .

والذي سأحاوله الآن هو أن أجلي للقارىء نواحيه الخيرة المهملة ، نواحي إن انعمنا النظر فيها وقدرناها حق قدرها صححت تلك الفكرة الخاطئة الشائعة وأثبتت لنا بما لا يترك مجالاً للشك أنه لم يكن وحشاً كما يدعون .

كان بشار على قدر عظيم من الحنان والرقة ، كان باراً بأهله رفيقاً بخدمه ، كريماً سخي الكرم على أصدقائه وغير أصدقائه ، صديقاً صدوقاً مخلصاً للرفاق مقدراً للصداقة ، وكان على نصيب غير قليل من الصبر والتسامح والعفو ، وكان ظريفاً حسن المجالسة بارع الفكاهة ، وكان على درجة من الشجاعة الأدبية لا تستحق منا سوى الاعجاب مهما نخالفه في آرائه . وإليك إثبات كل حكم من هذه الأحكام .

بارّ

أكان بشار وحشاً أغلق قلبه دون عواطف الانسانية فلم تجمعه بأحد أواصر التعاطف والمرحمة ؟ تأمل جيداً في القصة الآتية :

« كان برد أبو بشار طياناً حاذقاً بالتطيين . وولد له بشار وهو أعمى ، فكان يقول : ما رأيت مولوداً أعظم بركة منه ، ولقد ولد لي وما عندي درهم فما حال الحول حتى جمعت مائتي درهم . ولم يمت برد حتى قال بشار الشعر . وكان لبشار أخوان يقال لأحدهما بشر وللاخر بشير ، وكانا قصابين وكان

بشارٌ باراً بهما ، على أنه كان ضيق الصدر متبرماً بالناس ، فكان يقول : اللهم إني قد تبرمت بنفسي وبالناس جميعاً ، اللهم فأرحني منهم . وكان إخوته يستعيرون ثيابه فيوسخونها وينتنون ريحها ، فاتخذ قميصاً له جيبان وحلف أن لا يعيرهم ثوباً من ثيابه ، فكانوا يأخذونها بغير إذنه ، فاذا دعا بثوبه فلبسه فأنكر رائحته فيقول إذا وجد رائحة كريهة من ثوبه : أينما أتوجه ألق سعداً ! [1] . فإذا أعياه الأمر خرج إلى الناس في تلك الثياب على نتنها ووسخها ، فيقال له : ما هذا يا أبا معاذ ؟ فيقول : هذه ثمرة صلة الرحم ! قال : وكان يقول الشعر وهو صغير ، فاذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه فشكوه فيضربه ضرباً شديداً . فكانت أمه تقول : كم تضرب هذا الصبي الضرير ، أما ترحمه ؟ فيقول : بلى والله إني لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلي . فسمعه بشار فطمع فيه فقال له : يا أبت إن هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر ، وإني أن ألمت عليه أغنيتك وسائر أهلي ، فإن شكوني إليك فقل لهم : أليس الله يقول ليس على الأعمى حرج ؟ فلما عاودوه شكواه قال لهم برد ما قاله بشار ، فانصرفوا وهم يقولون : فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار » .

يستطيع القارىء أن يستنبط من هذه القصة أشياء كثيرة ، ولكننا نخص باهتمامنا هنا عنصرين عظيمي الأثر في نفسية بشار . أولهما نشأته التي كانت مليئة بالشقاء والتعاسة . لقي تعذيباً كثيراً من أبيه وإخوته . أما أبوه فكان صانعاً يدوياً حاذقاً ولكن كان رجلاً جاهلاً على حظ كبير من الغباء وبلادة العقل . فهو لا يعرف ما الشعر وما النثر ، وعقله البليد يقبل كل ما يسمع ، تارة يقبل شكوى الناس من ابنه دون أن يتحرى من البادىء بالتعدي فيضربه ضرباً شديداً ، وتارة يقبل سفسطة بشار دون مناقشة فيخرج إلى الناس يخاطبهم كما لقنه ابنه دون فهم ، حتى غاظهم ذلك منه فانصرفوا يقولون ففقهه أغيظ لنا من شعر ولده ، ومثل هذا الجاهل الغبي يستحيل أن يكون قدر ولده الممتاز حق قدره ، لم ينتبه إلى فرط حساسيته فعامله بفظاظة ، ولم ينتبه إلى مواهبه العقلية

(١) مثل يضرب لمن يلقى سوء المعاشرة في كل مكان .

أو الفنية ، ونحن لا نريد في هذا كله أن نلومه فما كان يستطيع مثله من رعاع البشر وحثالة الجمهور أن يقدر بشارا في إرهاف شعوره أو عقله أو شاعريته ، وهو لم يقس عليه لأنه عديم الرحمة بل لأن فظاظة المعاملة هي كل ما يعرفه وكل ما تعود عليه هو وأمثاله ، إنما غرضنا شرح مقدار الشقاء الذي يتلقاه مثل هذا الولد الممتاز من أب هذه حاله .

وإخوته أيضاً لم يكونوا سوى اجلاف عاديين من سوقة البشر ، لم تهبهم الطبيعة شعرة مما وهبت أخاهم ، والرواية تقص علينا مثلا فعليا مما آذوا به أخاهم ، ونستطيع أن نتصور أمثلة أخرى مما يؤذي به الأخوة أخا لهم أعمى قاصراً عاجزاً ، وخصوصاً حين ينتبهون إلى مقدار تأذيه وسهولة تأثره . والصبيان ليسوا كما تصور الفكرة الرومانتيكية الشائعة ملائكة أبرياء ، بل هم حيوانات قاسية أنانية ، وإلا فتأمل تألب صبية القرية على الأعمى ومقدار إيذائهم له وتأمل إيذاء الطفل للحيوان وقسوته عليه ، حتّى يأخذه أولو أمره بإحسان معاملته ويعلموه الرأفة بالحيوان الأعجم وبالضعاف من البشر .

والقصة تدل صراحة على تأذي بشار من أبيه وأخوته ، ولكنها تدل ضمناً على تأذيه من سائر الناس أيضاً ، فلا يستشهد بهذا المثل « أينما أتوجه ألق سعداً » الا فرد لقي الإساءة أنى ذهب ، فهذا بشار يرهقه الناس خارج بيته فيأوي إلى بيته يتلمس في حماه ملجأً وملاذاً فلا يجد إلا العنف والضر من أهله أيضاً . ومن هذا نفهم سر لجوئه إلى الهجاء في هذه السن المبكرة ، فهو منذ حداثته بدأ يذوق اضطهاد المجتمع .

أما العنصر الثاني الذي تريناه هذه الرواية فمبلغ صبر بشار وتحمله إيذاء أهله ومسامحته لهم ، فالرواية تنص صراحة على أن بشارا كان برغم كل ما لقيه من اخوته باراً بهم ، ولو لم تنص على هذا لاستنبطناه نحن من أسلوبها وروحها الشاملة ، فهو لا يبادلهم إساءة بإساءة ، وأقصى ما يفعله حين يشتد ضيقه بهم أن يلجأ إلى هذه السخرية المريرة ، يسأله الناس عن نتانة ثيابه فيقول : هذه ثمرة صلة الرحم !

وتأمل الآن في هذه الرواية المشهورة ، يقول أحد معاصريه :

« قلت لبشار : انك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت . قال : وما ذاك ؟ قلت : بينما تقول شعراً تثير به النقع وتخلع به القلوب مثل قولك :

إذا ما غضبنا غضبة مضريـــــة هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلــــة ذرى منبر صلى علينـا وسلما

تقول :

ربابـــة ربـــة البيت تصب الخل في الزيـت
لهــــا عشر دجاجات وديك حســن الصوت!

فقال : لكل وجه وموضع . فالقول الأول جد ، وهذا قلته في ربابة جاريتي . وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك فهي تجمع لي البيض وتحفظه عندها . فهذا عندها من قولي أحسن من « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » عندك . »

هذه قصة مشهورة يتناقلها الناس . ولكن في أي مجال ؟ علام يستشهدون بها ؟ هم لا يروونها إلا في معرض النقد الأدبي ، كما يفهمون هذا النقد ، فيستدلون بها على أن بشارا كان له إلى جانب شعره الجيد المتين شعر ركيك سخيف متساقط . ولكن أهذا كل ما تدل عليه القصة ؟ ألا ترى ناحية هامة في نفسية بشار ينبغي على دارسه أن يلتفت إليها ؟

بلى . هي تدل على مقدار بره بجاريته تلك ، وحنانه عليها . واعترافه باخلاصها في خدمته . وحرصه على أن يثيبها على ذلك .

فهذا بشار ، الشاعر العظيم المشهور ، ذو الشعر التقليدي الفخم ، وذو الشعر التجديدي الرائع ، يريد أن يرضي جاريته ويدخل على قلبها السرور ، فلا يستحي أن ينظم لها شعراً بسيطاً بأسلوب دارج لا تأنق فيه ، لتنشده وتتغنى

فيه فتشعر بغبطة وزهو، وتفاخر به جاراتها ورفيقاتها . لا يستحي من هذا ، ولا يهمه أن يستغرب الناس شعره الدارج هذا ، أو أن يعدوه عليه ركاكة وتساقطاً .

فان أردت أن تفهم هذا حق الفهم فضع بدل بشار شاعراً عظيماً من شعرائنا المحدثين . ضع بدله شوقي عظيم شعراء عصرنا ، وتخيل شوقي يشعر برأفة وامتنان نحو خادمة له عامية جاهلة ، فينظم لها بضعة أبيات باللهجة الدارجة لتتغنى فيها وتفرح بها ، ولا يخجله أن يفعل هذا وهو أمير الشعراء ذو الصيت الذائع والمنزلة العالية .

هذان البيتان :

ربابـــة ربـــة البيت   تصب الخل في الزيـــت
لهـــا عشر دجاجـــات   وديك حســـن الصوت

هما عندي من أحلى الشعر العربي وأعذبه وأحبه إلى النفس . وأوافق بشاراً تمام الموافقة على أنهما في موضعهما لا يقلان عن معلقة امرىء القيس إشجاء للنفس البشرية . لست أرى فيهما شعراً ساقطاً متهافتاً كما يدعون . بل أرى فيهما بلاغة بحد البلاغة الذي يضعه العرب أنفسهم : مطابقة مقتضى الحال . فليس الشعر الصحيح مقصوراً على النوع الفخم الضخم السامي المترفع الذي يخاطب الآلهة على جبل الأوليمب ، بل من الشعر الصحيح أيضاً نوع بسيط يتناول مشكلاتنا اليومية العادية التي لا امتياز فيها ولا فخامة ، وهذا يتجلى لك إن درست شعراً أوربياً راقياً كالشعر الانجليزي ، فوجدت فيه النوعين ووجدت لكل منهما فيه موضعاً ووجدت اهله يفخرون بهما معاً . فإن اردت مثالاً فإليك ت.س. إليوت ، كبير الشعراء الانجليز المحدثين ، وزعيم حركة التجديد في الشعر الغربي كله في النصف الأول من القرن العشرين . هذا الشاعر الذي اشتهر بالتفكير العميق والغوص البعيد وراء خبايا النفس الانسانية وألغاز الكون الخالدة ، والذي تدور قصائده الكبيرة على عدد من اخطر القضايا والمشكلات التي تواجهها الحضارة المعاصرة ، وتستبطن ما سببته للنفس الانسانية المعاصرة من

اضطراب وزعزعة وتفسخ ، حتى صار الغموض سمته الأولى في نظر الكثيرين — هذا الشاعر العظيم لم يستحي من أن ينظم اربع عشرة قصيدة فكاهية خفيفة حول القطط بمختلف شخصياتها وأمزجتها ونوادرها ، في شعر رائع البساطة والسهولة والممازحة ، ولم يستحي من أن يجمع هذه القصائد في ديوان يحمل اسمه الصريح ، مطبوع طبعة جميلة على ورق صقيل ، ومحلى بالرسوم الفكاهية الملونة ، ثم أعطاه عنواناً هزلياً مضحكاً [1] . فكم من شعرائنا المحدثين المتعاظمين يجرؤ على أن يفعل مثل هذا ، ولا يظنه إزراء بعظمة قدره ؟

وما دمنا قد استشهدنا بإليوت ، فلنترجم له السطور الآتية من مقالة نقدية كتبها [2] . ولنذكر أولا أنه لم يكن شاعراً كبيراً فحسب ، بل يعد ناقداً أدبياً من أكبر النقاد في تاريخ الأدب الانجليزي ، وقد كان لدراساته النقدية المتعددة أثر بليغ في تغيير الذوق السائد وتبديل كثير من الأحكام والتقديرات الشائعة . قال إليوت :

« حين نتحدث عن (الشعر) بلام الجنس ، يغلب علينا أن نقصر فكرنا على أشد العواطف عنفاً وأقوى الجمل سحراً . ولكن صرح الشعر لا يتكون من مجرد مقصورات سحرية [3] تطل نوافذها على بحار طاغية متلاطمة الأمواج من العواطف ، بل في صرح الشعر غرف متواضعة تطل (شبابيكها) على مناظر طبيعية جيدة وإن لم تطل على عالم مسحور . وأنا اعتقد أن جورج كراب كان شاعراً مجيداً كل الإجادة ، ولكنك لا تذهب إلى شعره ملتمساً السحر ، بل تذهب إليه اذا أحببت أن تقرأ وصفاً واقعياً للحياة القروية في مقاطعة سافولك منذ مائة وعشرين سنة ، في شعر يبلغ من إجادة نظمه أنه يقنعك بأن نفس الوصف لم يكن من الممكن أن يكتب نثراً . وإذ ذاك ستحب كراب . »

---

(١) Old Possum's Book Of Practical Cats

(٢) What Is Minor Poetry ?

(٣) إليوت يقتبس هنا من أبيات مشهورة للشاعر كيتس .

لكن في هذا بعض خروج عن الموضوع [١] ، فلسنا الآن في مجال النقد الفني لشعر بشار ، بل في مجال تعرف شخصيته الحقة ، والذي لا يعجب ببشار وما صدر منه في هذه القصة ، سواء أأعجب ببيتيه هذين أم استمجهما ، رجل لا يزال على قدر من صلابة القلب والعجز عن التعاطف البشري .

والآن عد إلى رواية أخرى يكررونها كثيراً ، وقد نقلناها في هذا الكتاب مرتين :

« وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح ، رأيتها خلف جنازته تصيح : واسيداه ! واسيداه ! » .

هم يستدلون بها دائماً على كراهية أهل عصره له وإجماعهم على بغضه وتنفسهم الصعداء حين مات ، وهذا الاستثناء الوارد في الرواية « إلا أمة له » يستعملونه ليزيدوا دعواهم اثباتاً ، فهذه المخلوقة الخسيسة الحقيرة هي وحدها التي حزنت لموته وتبعت جنازته . ورنة الاستهزاء في هذه الجملة واضحة ، تأمل في حشدهم لصفات الذم فيها : أمة ، سوداء، سندية ، عجماء ، ما تفصح ..

ولكن ما رأي القارىء إذا قلت : هذه المخلوقة الخسيسة الحقيرة لعل رأيها في بشار أصدق من رأي سائر معاصريه وأقرب إلى الانصاف ، ولعل شهادتها وحدها ترجح شهادة الآخرين جميعاً . أقول هذا بهدوء تام ، لا يدفعني الأشر ولا تعمد المبالغة . فهذه الأمة ، السوداء، السندية، العجماء ، التي لا تفصح ، قد عرفت بشارا الحقيقي ، وخبرت نفسيته في أصالتها ، خبرته في داخل منزله ، حيث يتجلى الرجل على حقيقته وينزع عن وجهه القناع الاجتماعي الذي يتخذه أمام الناس .

---

(١) يستطيع من يريد متابعة هذا الموضوع ان يرجع إلى الباب الأول المعنون « الشعر ولغة الكلام » من كتابي « قضية الشعر الجديد » ، والفصل السادس عشر المعنون « التجارب اليومية واللغة الحية » من كتابي « الشعر الجاهلي : منهج في دراسته وتقويمه » .

كم من رجل يلقاه الناس فيجدونه بشوشاً لطيفاً رقيق الحاشية ، فيعجبون به ويتحدثون عن لينه وطيبة قلبه ، وهو في صميمه فظ قاس غليظ القلب لا يتخذ ذلك القناع مع الناس الا رياء ، فان أردت أن تعرفه على حقيقته فتتبعه إلى عقر داره ، وانظر جفاوته مع زوجه وشراسته على أولاده ، وفظاظته مع خدمه ، وأنانيته الكريهة في معاملته لهم جميعاً .

أما بشار فكان الضد النقيض . يلقي الناس فلا يريهم إلا الفظاظة والغلظة ، يفعل ذلك لا لأنه في صميمه غليظ فظ ، بل لطول ما قاساه منهم وفرط ما ناله من إيذائهم واضطهادهم ، ولأنه استكشف بعد التجارب القاسية أن خير حماية له من تتبعهم إياه بالأذى هي أن يرتدي أمامهم هذا القناع المرعب المخيف . ولكنه يدخل إلى منزله فيلقي بهذا القناع جانباً فتتبدى نفسيته الحقة على أصالتها ، فاذا به رحيم بأهل بيته رفيق بهم حدب عليهم . فان كانت جنازته لم يتبعها أحد إلا تلك الأمة السوداء السندية العجماء التي لا تفصح فهذا له شهادة كافية ، فما كانت لتفعل هذا متحدية رأي الناس جميعاً وهي تعلم مقدار بغضهم له لولا أن هزّها دوافع قوية قاهرة من الامتنان الصادق والحزن الحقيقي الذي لا زيف فيه فأعطتها هذه الشجاعة النادرة .

حنّان

أكان قلب بشار صخرة لا تستجيب لعاطفة إنسانية ولا تتأثر بما يتأثر به سائر البشر من ألوان الاحساس الرقيق من رحمة أو حب أو حنان ؟ سنلتفت الآن إلى ناحية أخرى في بشار تقدم لنا معولاً جديداً ننقض به هذه الفكرة الشائعة ، وهي حبه الشديد لأولاده وجزعه المريع حين ماتوا .

ولكن قبل أن أسوق إلى القارىء هذه الاستشهادات الجديدة لا بد أن أثبت له نصيبها من القوة . فإنني أخشى أن يقول : أو في هذا صحة استشهاد على رقته ؟ أولا يحب كل الناس أولادهم ويجزعون لموتهم ؟ أو في هذا إذن فضيلة تعد لبشار في سجل حسناته ؟

وجواب هذا السؤال هو بلا شك : أجل . فإن أنت قرأت بعض الدراسات التحليلية التي وضعها كبار الدارسين يتناولون فيها شخصية مجرم ذي وجود حقيقي في التاريخ أو خلقه خيال أديب روائي أو تمثيلي عظيم . فإنك واجد أن هؤلاء الدارسين في اصدارهم حكمهم النهائي على شخصيته يدخلون في حسابهم أية ناحية فيه تشهد بنوع من الحنان أو الحب كائناً ما كان . يعدون فضيلة له أنه أحب زوجته أو عشيقته وبر بها، أو انه أحب أولاده وحنا عليهم . ويستعملون هذا في تلطيف الصورة الشائعة عن نصيبه من الشر .

وسبب هذا بسيط : أنه ليس كل الناس يحبون أولادهم ، وليس كل الناس يرأفون بفلذات أكبادهم . أما هذا الحكم الثاني : ليس كل الناس يرأفون بأولادهم ، فيسلم به كل قارىء دون مجادلة . فكل قارىء لا شك يعرف أمثلة عديدة من آباء قسوا على أولادهم وأهدروا حقوقهم البنوية وأفسدوا مستقبلهم وضيعوا فرصهم في الحياة ، عن عمد لا عن جهل . ولكن كثيرين من القراء سيتشككون في قولي إن بعض الناس لا يحبون أولادهم ، فالفكرة الرومانتيكية الشائعة لديهم هي أن كل والد فهو بالغريزة يحب ولده ، مهما يبد منه من أساءة أو ظلم متعمد .

وهذه الفكرة الشائعة ليست خاطئة كل الخطأ ، فهي الأمر العادي المعهود ، ولكن لها استثناءات ، فهناك شواذ بشريون لا تتحقق فيهم هذه الغريزة المألوفة ، فهم لا يحسون نحو أولادهم بحب أصلا ، بل هم يكرهونهم كرهاً صادقاً ، ولست أعني يكرهونهم كرها مكتسباً ولده فيهم سوء خلق أبنائهم أو عقوقهم ، بل أعني أنهم يكرهونهم كرهاً طبيعياً أصيلاً لا سبب له سوى نقص بالطبيعة البشرية — والحيوانية — التي تتحقق في معظم الناس ومعظم الحيوانات اللبونة . وهذا الادعاء على غرابته هو ما تثبته دراسة العلم ، ودراسة التاريخ ، ودراسة واقع الحياة ، ولعل القارىء لو فكر في تجارب حياته تفكيراً كافياً لوجد فيمن عرفهم من الناس مثلا أو مثلين لهذا الوالد الشاذ . وهو على أي حال يستطيع أن يجد أمثلة عديدة لهؤلاء الاباء والأمهات في روائع الأدب الأوربي الروائي أو التمثيلي ، والحكم بهذا الأدب مقبول لأنه مستمد من صميم الحياة الواقعة .

فان كان هذا صحيحاً فمغزاه أننا في دراستنا لرجل يتحدث الناس عن إجرامه وشره يصح لنا أن نستشهد في تخفيف الصورة الشائعة عنه بتحقيق هذه الغريزة الأبوية فيه ، فان هذا يثبت أنه لم يكن شاذاً تام الشذوذ عن الطبيعة الانسانية ، فليس من العدل إذن اخراجه عن نطاق البشر ، بل لا بد ان نعطيه من التسامح والعفو ما نعطيه سائر الناس .

تأمل إذن في القصة الآتية :

« توفي ابن لبشار فجزع عليه . فقيل له : أجر قدمته ، وفرط افترطته ، وذخر أحرزته . فقال : ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته فانتظرته ، والله لئن لم أجزع للنقص لا أفرح للزيادة . وقال يرثيه :

أجارتنا لا تجزعي وأنيبي ... أتاني من الموت المطل نصيبي
بني على رغمي وسخطي رزئته ... وبدل أحجارا وجال قليب
وكان كريحان الغصون تخاله ... ذوى بعد إشراق يسر وطيب
أصيب بني حين أورق غصنه ... وألقى عليَّ الهم كل قريب
عجبت لأسراع المنية نحوه ... وما كان لو مُلِّيته بعجيب

وهي أبيات تامة الصدق عظيمة الجوى شديدة التأثير . [1] وستزداد تقديراً لها ان قارنتها بدرة الشعر العربي في رثاء الولد ، أعني مرثية ابن الرومي لولده الأوسط ، فانك واجد كثيراً من الأفكار المشتركة بل الصور الأدبية المشتركة .

وتأمل هذه القصة أيضاً :

« حضرنا جنازة ابن لبشار توفي ، فجزع عليه جزعاً شديداً ، وجعلنا نعزيه ونسليه فما يغني ذلك شيئاً . ثم التفت إلينا وقال: لله در جرير حيث يقول وقد عُزّي بسوادة ابنه :

---

(١) تجد في الخالديين ص ٧١ أبياتاً أخرى من هذه القصيدة الجميلة . وتجد أكمل نص لها في الديوان ٢٥٤/١ ، حيث تشتمل على ٢٢ بيتاً .

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالي
ودعتني حين كف الدهر من بصري وحين صرت كعظم الرمة البالي
أودى سوادة يجلو مقلتي لحـــم باز يصرصر فوق المربأ العالي
إلا تكن لك بالديرين نائحـــة فرب نائحة بالرمـــل معوال »

وقوة التأثير في هاتين القصتين رفض بشار للعزاء وجرأته على التعبير الصادق عن حزنه الحقيقي وان تحدى آراء رجال الدين في وجوب الرضى بكل مصيبة ، وهو في هذا لا يزيد على أن يسطر تسطيراً مخلصاً ما يحدث في نفس الوالد حتماً من الغضب وعدم الرضى . ولكن يفوق أبياته الماضية إشجاءً للنفس الأبيات الواردة في القصة الآتية :

« رأيت بشارا المرعث يرثي له بنية وهو يقول :

يا بنت من لم يك يهوى بنتـــا ما كنت إلا خمسة أو ستـــا
حتى حللت في الحشى وحتـــى فتت قلبي من جوى فانفتـــا
لأنت خير مـــن غـــلام بتـــا يصبح سكران ويمسي بهتا [1]

قلت أن هذه الأبيات تفوق الماضية استثارة للشجن ، وسر ذلك أن بشاراً يعترف فيها على نفسه ، يعترف بأنه حين ولدت له تلك الطفلة كرهها ونفر منها ، لأنه كان يفضل الأبن . واعترافه هذا يؤكد صدقه في دعواه الحزن اللاذع حين فقدها ، ويرينا من ناحية أخرى أنه لم يكن قاسي القلب كما يدعي الناس ، فهو برغم كراهيته للأناث من الولد وخيبة أمله حين لم يولد له ابن ذكر أحب هذه البنية تدريجاً وازداد تعلقاً بها حتى حلت في حشاه فتفتت قلبه حين ماتت . وكم من آباء أعرفهم ويعرفهم كل قارىء لا يصيرون إلى الرضى بالأناث أبداً .

---

(١) بتا : يشرحه شرح الديوان (٢٨/٤) بأن معناه قطعاً لا شك فيه ، ونعتقد أنه الفعل بت بمعنى انقطع عن العمل ، وأقبل على السكر والحماقة . بهت : مبهوت شارد العقل .

وقوة تأثير هذين البيتين :

لأنت خير مـــن غـــلام بتـــا يصبح سكران ويمسي بهتـــا

انهما يدلان على عكس ما يدعيه بشار ، يدلان على انه لا يزال في صميمه يفضل أن يولد له الابن الذكر ، فان كان برغم اصراره على تفضيل الذكور قد قبل تلك البنية ، ورضي بها وأحبها كل ذلك الحب وجزع لموتها كل ذلك الجزع ، ففي هذا ما فيه من دلالة على قابليته لفتح قلبه لدواعي الحنان .

كريم

العجب أن الناس في بغضهم لبشار لا يكتفون بتعداد رذائله الحقيقية أو بالمبالغة في ضخامتها ، بل يفترون عليه عيوباً لم تكن به قط . فهم مثلاً يرمونه بالبخل ، وهو مهما تكن عيوبه الأخرى كان أبعد الناس عن هذه الصفة . فقد كان سخياً جواداً بماله [1] ، فاتحاً بيته للمعتفين ، عظيم العطف على المعوزين من أصحابه يساعدهم بأقصى ما يستطيع . يروون أنه كان يعطي أبا الشمقمق في كل سنة مائتي درهم ، وتعود عليها أبو الشمقمق حتى سماها « الجزية » ! هذا مع أنه لم ينل بشار منه شكرانا ولا اعترافاً بالجميل . بل ناله الجحود والهجاء والتهديد . ثم يروون القصة الآتية :

« جاء أبو الشمقمق إلى بشار يشكو إليه الضيقة ويحلف له أن ما عنده شيء . فقال له بشار : والله ما عندي شيء يغنيك ، ولكن قم معي إلى عقبة بن سلم . فقام معه فذكر له أبا الشمقمق وقال : هو شاعر وله شكر وثناء . فأمر له بخمسمائة درهم ، فقال له بشار :

---

(١) طه حسين يعترف له بالكرم ، ولكنها الفضيلة الوحيدة التي يسلم بها لبشار . ثم يعود فيفسرها بأنها ازدراء للمال لا حب للناس وعطف عليهم .

يا واحد العرب الذي أمسى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير

فأمر لبشار بألفي درهم . فقال له أبو الشمقمق : نفعتنا ونفعناك يا أبا معاذ ! فجعل بشار يضحك . »

تأمل كرمه الأصيل في هذه القصة : يأتيه الشاعر المسكين وليس عنده ما يكفيه ، وقد كان يستطيع أن يعتذر بضيقته ويكون اعتذاره صحيحاً واجب القبول . ولكنه يأبى إلا أن يأخذه إلى ولي نعمته فيستجديه له . وتأمل أيضاً سوء أدب أبي الشمقمق وقلة ذوقه ، لا يشكر له ما بذله من أجله من جهد ، بل يقول نفعتنا ونفعناك ! أي يأبى أن يعترف له بفضل فيقول إن كنت نفعتني فقد نفعتك أيضاً . فلا يحتج بشار على جحوده بل يضحك .

واقرأ الآن مرة أخرى هذه القصة التي سبق أن رويناها :

« بعض الشعراء قال : أتيت بشارا الأعمى وبين يديه مائتا دينار . فقال لي : خذ منها ما شئت ، أو تدري ما سببها ؟ قلت : لا . قال : جاءني فتى فقال لي : أنت بشار ؟ فقلت : نعم . فقال : إني آليت أن أدفع إليك مائتي دينار ، وذلك أني عشقت امرأة فجئت إليها فكلمتها فلم تلتفت إلي ، فهممت أن أتركها فذكرت قولك :

لا يؤيسنك من مخبأة قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعدما جمحا

فعدت إليها فلازمتها حتى بلغت منها حاجتي . »

يستشهدون بها على دعارته وإفساده للشبان في عصره ، وهي إن دلت على هذا فإنها تدل أيضاً على شيء آخر : على كرمه وجوده بماله . يأتيه ذلك الرجل وبين يديه مائتا دينار (أو مائتا درهم في رواية أخرى) فيقول له : خذ منها ما شئت .

وما كان بشار ليفخر بكرمه في الموطن الآتي لو لم يكن في فخره هذا صادقاً :

« أنشد بشار جعفر بن سليمان :

أقلّي فإنا لاحقــون وإنمــا   يؤخرنا أنا يعد لنا عــدا
وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر   رأى المال لا يبقى فأبقى به حمدا

فقال له جعفر بن سليمان : من ابن جعفر؟ قال : الطيار في الجنة . فقال : لقدساميت غير مسامي ! فقال : والله ما يقعدني عن شأوه بعد النسب ، لكن قلة النشب ، وإني لأجود بالقليل وإن لم يكن عندي الكثير ، وما على من جاد بما يملك ألا يهب البدور . فقال له جعفر : لقد هززت أبا معاذ . ثم دعى له بكيس فدفعه إليه ».

كان بشار حقاً يجود بالقليل إن لم يكن عنده الكثير ، فان لم يكن عنده قليل يجود به استجدى لمستجديه ، كما رأينا في القصة السالفة .

ولقد صدق أيضاً في فخره :

نــاري محرقــة وبيتي واســع   للمعتفــين ومجلسي معمور

وهو القائل حين افتقر :

لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة   ولا يشتكي بخلا عليّ رفيــق
خليلي أن المال ليس بنــافــع   إذا لم ينل منه أخ وصديــق

ولنا أن نسأل . أين كان هؤلاء الأصدقاء والرفاق الذين لا ينقطع عنهم كرمه ، أين كانوا حين مات فلم يتبع جنازته منهم أحد ؟

سيسأل القارىء : إن كان هذا حقا فما باله يسأل الأغنياء فيلحف في سؤالهم ، بل يهددهم بالهجاء إن لم يعطوه ، وينفذ تهديده هذا ؟ أليس في هذا جشع ولؤم طبع ؟

والجواب الصحيح لا شك أن ليس في هذا جشع أو لؤم طبع ، فان بشارا كان يعتقد أنه ليس يسألهم منّة إنما يطالبهم بحق له عليهم ، هم أغنياء وهو شاعر فقير لا مكسب له إلا عن طريق اعتراف الناس بقدره في الشعر ومكافأتهم إياه على هذه الموهبة . وخصوصا إذا تذكرنا أنه أعمى لا يستطيع أن يحترف حرفة يكسب بها قوته . والقصة التي رد فيها على الشيخ الذي سأله ما صناعته فقال : أثقب اللؤلؤ ، تدل على أنه كان يعد شعره حرفته التي ينبغي أن يعطى أجرها . فان لمنا الشعراء المبصرين الذين تكسبوا بشعرهم واعتقدوا أنه يستأهل لهم الرزق وحده دون أن يؤدوا للمجتمع خدمة عملية فاننا لا نستطيع أن نوجه هذا اللوم إلى شاعر كفيف . وإلا فماذا كنا ننتظر أن يفعل ؟ يثقب اللؤلؤ ؟

اعتقد بشار أنه يستحق المكافأة على شعره وحده ، وأنا أرى أنه كان في اعتقاده هذا محقا ، على أنه لا يهمنا أبداً أكان في اعتقاده مصيبا أم كان مخطئا ، لا يهمنا هذا في المجال الذي نحن فيه ، مجال الحكم الخلقي عليه ، فالمهم هو أن الذي يظن هذا الظن لا يكون إلحاحه في سؤال الأغنياء صادراً عن جشع أو عن لؤم طبع . أضف إلى هذا أن بشاراً كان سيء الظن في أغنياء عصره ، حتى قال حين ليم على كثرة الهجاء : إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر وإلا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيعطى . ولا يهم — مرة أخرى — أن يكون محقا في سوء ظنه هذا أو غير محق ، فالحقيقة تبقى ، أن من لديه مثل هذا الظن السيء لا يكون الحافه في المطالبة صادراً عن جشع أو لؤم ، بل أقصى ما يقال فيه أن يكون صادرا عن اعتقاد مخطيء ، وهذا لا يطعن في دوافعه الخلقية بل يطعن في صحته العقلية . ولبشار قصيدة رائعة لا تترك في هذا مجالا للشك ، هي القصيدة المشهورة التي قالها حين حرمه المهدي ولم يثبه على مديحه :

خليلي أن العسر سوف يفيق — وإن يسارا في غد لخليق
ذراني أشب همي براح فانني — أرى الدهر فيه فرجة ومضيق
وما كنت إلا كالزمان إذا صحا — صحوت وإن ماق الزمان أموق

أأدماء لا أستطيع في قلة الثرى خزوزا ووشيا والقليل محيق
خذي من يدي ما قل ان زماننا شموس ومعروف الرجال رقيق
لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة ولا يشتكي بخلا عليّ رفيق
خليلي أن المال ليس بنافع اذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت اذا ضاقت على محلة تيممت أخرى ما عليّ تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل له في التقى أو في المحامد سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

جمهور المتأدبين يعجبون كثيرا بهذه القصيدة ، ويكثرون الاستشهاد بأبياتها يتمثلون بها ويعلمونها أولادهم ويرغمونهم في موضوعات الإنشاء على التمثل بها ، وهم في هذا محقون ، فهي قصيدة جد بديعة ، ولكنهم لا يلتفتون في هذا كله الى دلالتها على شخصية قائلها ، كأن أبياتها درر وجدت بالطبيعة دون منشيء ! فهذه قطعة شعرية تامة الصدق حارة الاخلاص ، والذي يقول هذه الأبيات الفائقة ليس نظاما يظهر براعته في نظم الحكم السوقية المبتذلة ، بل هو رجل آمن ايمانا عميقا بلزوم الكرم وضرورة السخاء في المجتمع الانساني . فان أجاد القارىء تفهم هذه القصيدة فانها تكشف له عن أشياء كثيرة . سيرى أن بشارا ليس محزونا لحرمانه فحسب ، بل الذي يهيج أعظم حزنه هو صفة البخل في الممدوح وشيوع الشح بين الناس : « ومعروف الرجال رقيق ». « أخلاق الرجال تضيق » . هذا هو الذي يحزنه أشد الحزن ، قلة الوفاء بين الرجال وانعدام الكرم الصادق الصادر عن سعة الأخلاق ، فان كان هذا الشعور يصاحبه تحسر على حالته فليس تحسره مقصورا على أنه هو حرم لذات وخيرات كان يستمتع بها ، بل يؤلمه أيضا أنه في فقره هذا لن يستطيع أن يستمر فيما كان يألفه من التكرم على الرفاق ، وهذا واضح في اعتذاره إلى صاحبته التي يسميها « أدماء » وفي تثنيته هذا الاعتذار اليها بتذكيرها بأنه حين كان ميسور الحال لم يكن بخيلا . وما كان يستطيع أن يقول هذا في هذا المجال لو كان بخيلا حقا .

ومعلمو الأدب ومتعلموه يعجبون أيضاً أكبر إعجاب بمدح بشار لعقبة بن سلم ، ويكثرون من روايته والاستشهاد به ، من مثل قوله :

إنما لذة الجـواد ابن سلـم في عطـاء ومركـب للقـاء
ليس يعطيك للرجـاء ولا الخو ف ولكن يلذ طعـم العطـاء
يسقط الطير حيث ينتثرُ الحب وتُغشى منـازل الكرمـاء [1]

ولا ينتبهون إلى أن السر الحقيقي في جودة هذا المديح هو أنه صادر عن إعجاب صادق بفضيلة الكرم ، شأنه في ذلك شأن مدائح المتنبي الرائعات التي نظمها فيمن استثاروا منه إعجاباً صادقاً .

وهم يعجبون كذلك بالقطعة الآتية في ذم بخيل ، ويحفّظونها أولادهم ويختارونها في كتاب « المنتخب من أدب العرب » للمدارس الثانوية :

ظل اليسار على العباس ممـدود وقلبه أبـدا بالبخـل معقود
ان الكريم ليخفي عنك عسرتـه حتى تراه غنيـاً وهـو مجهود
وللبخيل على أموالـه علـل زرق العيون عليها أوجه سود
إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
أورِقْ بخير ترجّى للنوال فمـا ترجى الثمار إذا لم يورق العود
بُثّ النوال ولا تمنعك قلتـه فكل ما سدّ فقرا فهـو محمود

ولا يلتفتون إلى أن قائل هذه الأبيات قد كره البخل كرها صادقا عميقاً [2] .

(١) النص الكامل لهذه المدحة في الديوان ١/١٠٧ : ومطلعها :
« حييا صاحبي أم العلاء » .

(٢) وله أيضاً هذه الأبيات الصادقة :

قـل للأميـر إذا نزلت به ان المباخـل ذمها عجل
بئس المروءة مـن ذوي حسب جاعت قرابتهـم وقد ثملوا
شبع الأمير وجوع صاحبـه عـار الحياة فأطعموا وكلوا

و واضح فيها أنه لا يشكو بخل الأمير عليه بل بخله على أقاربه .

ومن المهم أن نلاحظ هنا أن جزءاً عظيماً من هجاء بشار مصبوب على البخلاء .

على أن بشاراً لم يكن جواداً بماله وحده ، بل كان جواداً بما قد يكون أعز من هذا وأندر في أوساط الشعراء ورجال الأدب ، كان جواداً بنصحه وإرشاده لغيره من محترفي الشعر والأدب ، وبعضهم كان من منافسيه . يقصون عنه قصصاً كثيرة يستمع فيها إلى شعرهم ويقرظه أو ينقده ويقترح فيه تحسينات ويتنبأ لهم بمقدار الأجازة التي سينالونها عليه . ويقول الأصمعي إن مروان بن أبي حفصة لم يكن في حياة بشار يقول شعراً حتى يصلحه له بشار ويقوّمه . ومروان هذا كان من منافسيه وقد استمرت المفاضلة بين شعريهما عهداً طويلا بعد وفاتهما . ولكن القارىء لا يدرك سخاء هذه المعونة الأدبية حق الادراك إن ظن أن منافسيه أولئك لم يكونوا يهددونه إلا في الشهرة والمنزلة الشعرية . والحق أنهم كانوا ينافسونه لا في هذا الاعتبار المعنوي وحده بل في تحصيل الرزق والظفر ببلغة العيش ، فالشعر كان حرفتهم جميعاً ، والذي يجود بنصحه وإرشاده ومعونته على منافسيه في اللقمة يكون كريماً حقاً ، فما بالك به إذا تذكرت أنه أعمى وهم مبصرون يستطيعون إلى الرزق سبلا هو عاجز عنها ؟

مُصادِق

فضيلة أخرى عظيمة لا شك في وجودها ببشار : أنه كان رجلا عظيم التقدير للصداقة محتفظاً بأصدقائه ودوداً إليهم شديد الحرص عليهم .

صحيح أن أصدقاءه نالهم منه هجاء كثير ، ولكن هذا لا ينفي شغفه بهم وتمسكه بصداقتهم وبذله كل جهد في الاحتفاظ بها . والقدماء أنفسهم يؤكدون لنا أن بعض هؤلاء الذين هجاهم كانوا من أعزهم عليه وأشدهم مكانة في نفسه . ولا تنس أيضاً أنه هو قد ناله من أصدقائه — لا من أعدائه وحدهم — أذى كثير ، رأيته في بعض القصص الماضية ، ورأيت كيف كان يقابله كثيراً بالعفو والصبر .

نريد أولا أن ننبه القارىء إلى أن الصفة التي نحاول الآن إثباتها لبشار ليست مجرد كرمه وسخائه على أصدقائه ورفاقه ، فهذا شيء قد فرغنا منه في الفصل الماضي ، إنما هي صفة أخرى أغلى وأندر ، هي إدراكه لقيمة الصداقة وحرصه عليها ، وهي صفة يؤسفني أن أقول أنها قليلة الوجود في المجتمع الشرقي ، لا في عصر بشار فحسب ، بل في عصرنا نحن أيضاً . ولسنا نحتاج في إثبات هذه الصفة له إلى أكثر من أن نسوق له شعراً بديعاً في هذا الموضوع .

يروون :

« كان لبشار خمسة ندماء ، فمات منهم أربعة وبقي واحد يقال له البراء ، فركب في زورق يريد عبور دجلة العوراء فغرق ، وكان المهدي قد نهى بشاراً عن ذكر النساء والعشق ، فكان بشار يقول : ما خير في الدنيا بعد الأصدقاء . ثم رثى أصدقاءه بقوله » قصيدة نكتفي منها الآن بهذه الأبيات :

كان لي صاحباً فأودى به الدهـــــــر ففارقتـــه ، عليــه السلام
بقي الناس بعــد هلك ندامـــا ي وقوعا لم يشعروا ما الكلام
كجزور الأيسار لا كبـــــد فيـ ـها لبـــاغ ولا عليهـــا سنـــام
يا بن موسى فقد الحبيب على العيـ ـن قذاة وفي الفـــؤاد سقـــام
كيف يصفو لي النعيم وحيـــدا والأخـــلاء في المقابـــر هـــام
نفستهم [1] عـــلي أم المنايـــــا فأنامتهمو بعنف — فناموا
لا يغيض انسجام عيني عليهـــم إنما غايـــة الحزيـــن السجام

الذي يقول هذه الأبيات الصادقة الحزن كان يعز الصداقة حقا . وهو مخلص حين يقول : ما خير في الدنيا بعد الأصدقاء . تأمل جيدا قوله : كيف يصفو لي النعيم وحيدا .

---

(١) نفستهم : حسدتهم .

وحين يقول :

وأودعت عمرا بعض ما في جوانحي ... وجرعته من مـــر مـــا أتجرع

ولا بد من شكوى إلى ذي حفيظة ... إذا جعلت أسرار نفسي تطلع (١)

يقطع كل شك في تقديره لقيمة الصداقة ، فهو يعترف بالحقيقة الحاصلة ، فلو أنه ادعى أنه يريد الأصدقاء ليتكرم عليهم ويحسن إليهم لعرفنا أنه كاذب في دعواه واستنتجنا أنه لا يقدر الصداقة تقديرا صادقا . ولكنه لا يدعي شيئا من هذا ، بل يعترف بأن غرضه الأول من أصدقائه هو أن ينفس عن آلامه بالبوح بها إليهم ويخفف من كربه بإشراكهم فيه . والذي يعترف بهذا لا شك يعرف قيمة الصداقة الحقة .

أما حين يقول لصديق خانه :

لو كنت لي سيفا غداة الوغـــى ... طبت بـــه نفسا لأعدائـــي

أو كنت نفسي جمعت في يدي ... ألقيتهـــا سمحـــا بالقائـــي

لارقأت عين امرىء أنـــوك (٢) ... يبكي أخـــا ليس ببكّـــاه

فهو يثبت لنا هذه الصفة فيه بطريقة أخرى دون أن يدري . فهو في هذه الأبيات هائج أشد الهياج على صديقه العاق هذا ، ويحمله هياجه على أن يدعي أنه ليس محزونا على خسارته ويدعي أنه سعيد بالتخلص منه، ولكنه في هذا كله يثبت ــ دون أن يدري ــ مكانة صديقه هذا في نفسه ولوعته العظيمة على خسارته ، وإلا فهل كان يغضب هذا الغضب ويصيح هذه الصيحات لو كان الذي هجره رفيقا لا يبالي بهجرانه ؟ والذي يقول البيت الأخير رجل بكى فعلا لخيانة صديقه ، ثم غضب على نفسه لبكائه فهو يأخذ نفسه أخذا شديدا ويحاول أن يرغم عينه

---

(١) يضيف اليهما الديوان (٤/١٠٠) من نهاية الأرب بيتاً ثالثاً :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع

(٢) أنوك : أحمق .

على احتباس دمعها . وهذا مثل آخر يريك أن ادعاء الشخص كثيرا ما يدل على عكس ما يريد أن يدعيه لو دققنا النظر فيه . فإن أردت أن تزداد بهذه الأبيات الجميلة فهما فتصور تجربة انسانية أخرى مشابهة . تذكر مثلا حال أب يعقه ولده ويهجره ، فيصيح : أتظنون أنني محزون لأنه عقني وهجرني ؟ لا والله العظيم ! أنا مسرور كل السرور . في داهية ! لا أريد أن أرى وجهه أبدا ما عشت ... إلى آخر ما يقول هذا الأب المجروح [1] . فعلام يدل كلامه ؟ هو كلما بالغ في ادعائه زادنا تثبتا من مقدار حزنه والتياعه .

نفس الحقيقة تكمن وراء بيته (الديوان ١/١١٢) :

لا أبالي صفح اللئـيم ولا تجـ ــري دموعي على خَؤون الصفاءِ

لو كانت دموعه لا تجري حقا أو لا تهم بالجريان على من يخون صفاء المودة لما احتاج أن ينظم هذا البيت . لكن نعود إلى الجانب الإيجابي لنقرأ في ديوانه (١/٣٠٣) هذه القصيدة الحلوة في مدح صديق له والتعبير عن تقديره العميق لإخلاصه في الصداقة :

وأخ ذي ثقــة آخيتــــه ماجد الأعــراق مأمون الأدب
أمحــض الله لــه أخلاقــه فهي كالإبريز من سر الذهب
عزّنــي المعروفُ حتى عَلِقت كل كف ليَ منه بسبب
فهو يعطيني ، وأعطِي فضله ، سَبَلَ الغيث تدلّى فسكب
فاذا أبصر وجهــي مقبــلا ضحكت عيناه من غير عجب
واذا كلمتُــه واحــدةً هيجت منه عُــلالاتِ الطرب
واذا ما غبت عنــه ساعــة أنّ للغَيبة من غير وصب
فهو لي — والحمد لله — غـنى وعفاف مــن دنيّ المكتسَب
من تجارات أشابــت مفرقــي وكستني ثــوب ذل ونصب
وملــوكٍ إن تعرضــتُ لهــم عرّضوا دينيَ وَشْكاً للعطب

(١) أروي هذا المثال من تجربة شهدتها في صباي لجار لنا في القرية كان ولده شديد العقوق له .

والذي يزيد من اقتناعنا بصدق الشعور الذي تعبر عنه هذه الأبيات هو أن بشارا يعترف فيها بأن سبباً من أهم أسباب حبه لهذا الصديق هو جوده عليه وكفايته إياه مهانة السؤال والتذلل لآخرين يكسبه سؤاله إياهم حطة ونصبا . لهذا – ولما قدمناه من التدليل على كرمه – لا نتردد في تصديق دعواه في البيت الرابع أنه يجود على غيره ببعض ما يجود به هذا الصديق عليه . وبشار اذ صور معاملة هذا الصديق له ، قد صور أيضا – دون أن يدري أو يقصد – معاملته هو للأصدقاء الأوفياء . وانتفاء الدرى والقصد هذا هو ما يزيد من تأثير الأبيات فينا .

وبعد فبشار هو القائل :

اذا كنت في كل الأمور معاتبا   صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا او صل أخاك فإنه   مقارف ذنبٍ مـرةً ومجانبـه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه؟[1]

هذه أيضا أبيات صادقة فائقة الجمال والسمو . يعجب بها الناس ويحفظونها ويرددونها ويعلمونها أولادهم ، وتعطيها الكتب المدرسية مثلا لما ينبغي أن يكون عليه سلوكنا نحو الأصدقاء . ولا ينتبهون هنا أيضا إلى دلالتها على نفسية قائلها . ولو أنها مجرد « حكم » تقليدية تنظم دون شعور حار عميق من ناظمها لما كان لها

---

(١) في الديوان (٣٠٨/١) بيت آخر قبل هذه الأبيات :

أخوك الذي إن ربته قال إنمـا   أراب ، وإن عاتبته لان جانبه

يعني بقوله « قال إنما أراب » قال إنما صدر من صديقي ما يثير الريبة فقط ، لكنه ليس محقق الاساءة ، اذن ينبغي علي ألا أبادر إلى اتهامه وقطع مودته ، فلعلي مخطىء في سوء ظني هذا . مرة أخرى يصور بشار سلوكه هو ، ومقاومته لكل ظن سيء يثور به في صديق ، وإسراعه إلى قبول العتبى من أصدقائه . كما يروي الديوان (١٢/٤) بيتين آخرين في نفس الموضوع وعلى نفس الوزن والقافية . وفي الديوان أيضاً (١٢٨/١) أبيات يصور فيها اعتذاره إلى خلانه إذا حدثت منه إساءة إليهم ، وقبوله لعذرهم إذا اعتذروا إليه عما بدر منهم ، وصدوفه عن تتبعهم بالعتاب على كل ما يفعلون .

هذا التأثير . فالذي يتأملها تأملاً صحيحا ويفتح اذنه وقلبه لنبراتها الصادقة يقتنع بأن قائلها مستحيل أن يكون كما يتصوره الناس ويصوره النقاد خوّاناً لئيم الطبع غدارا . بل هو رجل في فرط حفاظه على الصداقة يتحمل الكثير ويتجرع الكثير . وقد قال أيضا [1] :

أَحْسِنْ صحابتَنا ولا تكُ جافياً　　فالدَّر يقطعه جفـــاءُ الحالب
وارجع كما رجع الحليم ولا تكن　　كمقارف ذنبا وليس بتائـــب

والذي يقول هذين البيتين رجل يصل في حرصه على استعادة أصدقائه الذين جفوه حد التوسل وان يكن في هذا إذلال له .

نعود فنسأل : أين كان هؤلاء الأصدقاء حين مات فلم يتبع جنازته منهم احد ؟ اقعد بهم الجبن فلم يجرؤوا على تحدي شعور الناس ؟ أم تراهم ماتوا جميعاً قبل موته ؟ ذلك ما نرجوه فهو أكرم لهم .

سيقولون : فما باله يهجو أصدقاءه ورفاقه في الزندقة ، فيرميهم بنفس عيوبه من الزيغ وترك الصلاة والصوم والفسق ، كما ترى في هجائه لعبد الكريم بن أبي العوجاء وفي هجائه الطويل لحماد عجرد ؟ أليس هذا لؤما وخيانة ؟

وجوابنا : ليس في هذا لؤم أو خيانة . بل هو عجز نقادنا عن ان ينظروا في هذا الهجاء بالنظرة التاريخية الصحيحة ، فهم يحكمون عليه بالاعتبار الذي يطبقونه لو صدر من شاعرين متهاجيين في عصرنا ، والحق أن لم يكن في ذلك الهجاء من النيل أو الأيلام ما يكون له لو قاله أحد شعرائنا المعاصرين يهجو به زميلا له ، ولقد كان يصدر عن شعراء ذلك العصر بلا حقد ولا ضغن ، إنما هو فن يتبارون فيه ويحاول كل منهم أن يزيد على الآخر براعة في اشتقاق السِّباب . وهي ظاهرة أدبية واجتماعية نشأت في ذلك العصر وكانت امتداداً للنقائض التقليدية في صورة جديدة وشارك فيها كل الشعراء المجان الذين تنادموا على

---

(١) الخالديين ص ٤٥ .

الخمر وتشاركوا في الاستهتار ، فكثيرا ما حولوا حلقات مجونهم إلى مباريات في التهاجي . وهو بعد فن ليس تام الغرابة علينا ، صحيح أنه لا يصدر الآن عن شعرائنا ، ولكن نقادنا لم يكونوا يحتاجون إلا إلى أن يتأملوا ظاهرة أخرى عندنا شديدة الشبه لكي يدركوا الطابع الحقيقي لتلك المهاجاة ، والظاهرة التي نعنيها هي حين يهب صديقان من العامة في مجلس منادمة أو حفلة زفاف أو ختان أو ما أشبهها من المناسبات فيتباريان فيما يسمى « الدخول في قافية » . يقول أحدهما : أبوك . فيقول الآخر : اشمعنى . فيقول الأول : كذا وكذا . ثم يبدأ ثانيهما فيرد قائلا : أمك : فيقول له زميله : اشمعنى : فيقول : كيت وكيت . وليس أحدهما حانقا على زميله ولا هو يتعمد الإيذاء ولا هو يريد أن يسب أمه أو أباه وإنما هما يتنافسان في هذا الفن ويضحكان السامعين ويضحكان هما أيضاً وحين تنتهي المباراة يعودان إلى المصادقة والصفاء .

فيسمي نقادنا هذا خيانة وغدرا ، وينسون أن بشاراً ان كان هجا الآخرين فقد هجوه أيضاً !

ولكن أعجب العجب أن يؤاخذ نقادنا بشارا على هجائه حماد عجرد وأن يروا في رميه إياه بالزندقة خيانة . وهو ان كان هجا حماداً بالزندقة فقد هجاه حماد أيضا ، وقد طال تهاجيهما فلم تبق وصمة إلا رمى كل منهما بها صاحبه (١) . صحيح أن هذه المهاجاة حين طالت انتهت إلى قدر عظيم من المرارة والتأذي ، ولكن منشأها لم يكن إلا ما شرحناه من التباري في الهجاء ، والشأن فيها كالشأن في « الدخول في قافية » الذي لا نزال نجده في عصرنا ، حين يطول ينتهي أحيانا إلى المعاداة الحقيقية ان لم يسرع السامعون بفض الحلقة وإسكات المتنافسين ، فمن السخف البالغ أن ننحاز إلى صف حماد ضد بشار في هذه الخصومة التي استطارت وبلغت شناعة زائدة . على أنه ان استحق

---

(١) يحتوي ديوانه على ١١ قصيدة في هجاء حماد فيها إفحاش كبير . وهي ٣٦٩/١ و ١٤٥/٢ و ٢١٠ و ٢/٣ و٩٤ و ٩٨ و ١٠١ و ١٢٠ و ٢٤١ و ٢٦٢ و ٣٠٥ .

أحدهما أن نخفف من لومنا له فذلك بشار لا حماد ، ونقادنا حين يغفلون هذه الحقيقة يقدمون أعظم دليل على إصرارهم في التحامل على بشار ، فانه لا يمكننا أن نقول أنهما تساويا في الخلاعة والاستهتار ، فحماد كما يبدو من سيرته كان أشد جموحا وأقل استحياء ، والثابت أنه كان به رذيلة خلا منها بشار خلوا تاما طول حياته وهي اللواط .

وبالأغاني [1] قصة تروى عن أبي نواس لو صحت لدلت على أن حماداً كان مجوسياً حقيقياً :

« أخبرني احمد بن عبيد الله بن عمار قال حدثني أبو إسحق الطلحي قال حدثني أبو سهل قال حدثني أبو نواس قال : كنت أتوهم ان حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره ، حتى حبست في حبس الزنادقة فاذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأونه في صلاتهم » .

وهي رواية متصلة الاسناد كما ترى ، ولا ندري سبباً يحمل أبا نواس على افتراء هذه القصة ، ولم يرو أحد نظيرها عن بشار قط. ومهما يكن من الأمر ففي الأغاني [2] قصة تدل على أن بشارا ظل في هجائه حمادا ممسكا لسانه عن أن يسرف في الأفحاش حتى بدأ به حماد فأطلق بشار إذ ذاك للسانه حريته :

« قال أبو عبيدة : ما زال بشار يهجو حماداً ولا يرفث في هجائه إياه حتى قال حماد (أبياتاً نمسك عن روايتها) ... فلما بلغت هذه الأبيات بشاراً أطرق طويلا ثم قال : جزى الله ابن نهيى خيراً . فقيل له : علام تجزيه الخير ؟ أعلى ما تسمع ؟ فقال : نعم والله ، لقد كنت أرد على شيطاني أشياء من هجائه إبقاء على المودة ، ولقد أطلق من لساني ما كان مقيداً عنه وأهدفني عورة ممكنة منه . فلم يزل بعد ذلك يذكر أم حماد في هجائه إياه ويذكر أباه أقبح ذكر » .

---

(١) أغاني ساسي ٧١/١٣

(٢) أغاني ساسي ٨١/١٣

نعود فنكرر أن حماداً كان أعظم من صاحبه استهتاراً وتعمداً للشناعة وتبذلا . على أنهما لو تساويا — وهذا ما لا نسلم به — لكان لبشار في عاهته وما لقيه من اضطهاد الناس ما يجعلنا نسامحه بأسرع مما نسامح حماداً ، فنحن لا نجد بحماد عاهة ولا هو ناله أذى الناس واضطهادهم كما نال الآخر . ومن هذا كله يرى القارىء أننا لم نستعمل تعبيراً زائد الحدة حين قلنا أن من السخف البالغ أن ننحاز إلى حماد في هذه الخصومة المستطيرة ، أو نسمي رمي بشار إياه بالزندقة خيانة .

صَفوح

اعترفنا على بشار بالنزق وسرعة الغضب وضيق الصدر ، وبأنه كثيراً ما بدأ خصومه — وأصدقاءه أيضاً — بالهجاء دون ما استفزاز. ولكننا نخطىء خطأً شديداً ان ظننا أنه كان هكذا في كل حالاته . فالحق أنه كثيراً ما صفح ، كثيراً ما تحمل الأذى وصبر عليه ، مختاراً لا مضطراً .

يروون عنه :

« وقف على بشار بعض المجان وهو ينشد شعراً ، فقال له : استر شعرك هذا كما تستر عورتك . فصفق بشار بيديه وغضب وقال له : من أنت ويلك ؟ قال : أنا أعزك الله رجل من باهلة ، وأخوالي سلول ، وأصهاري عكل ، واسمي كلب ، ومولدي بأضاخ ، ومنزلي بنهر بلال ! فضحك بشار ثم قال : اذهب ويلك ! فأنت عتيق لؤمك ، قد علم الله أنك استترت مني بحصون من حديد » .

قد يقول القارىء : ولكن هذا عفو مضطر وليس عفو مختار . فبشار ما كان يستطيع أن يهجو مثل هذا الخسيس فينال منه شيئا . وهذا صحيح ، ولكن أما كان يستطيع على أقل تقدير أن يبادله بسبابه سباباً نثريا ؟ بلى ، ولكن يمسك عن هذا فيهبه للؤم أصله ، ولا يكتفي بهذا بل يضحك ، فيدلنا على صفة أخرى قيّمة فيه ستتعرفها بعد قليل ، هي فكاهته .

وقد وردت قصة أخرى شبيهة بهذه رويناها آنفا ، يسب فيها رجل من عكل بشاراً بعماه وقبح - جهه ، فيقول له بشار : إذهب بأبي أنت في حفظ الله . وقد مر بالقارىء أيضا القصة التي يثقل فيها على بشار بعض أصدقائه ، يؤاخذونه على ادعائه النحافة في بيته :

في حلتي جسم فتى ناحـــــل   لو هبت الريـــح بـــه طاحـــا

فيقولون : يا ابن الزانية أتقول هذا وأنت كأنك فيل عرضك أكثر من طولك ! فيقول لهم : قوموا عني يا بني الزناء فاني مشغول القلب لست أنشط اليوم لمشاتمتكم .

وأعد الآن قراءة هذه القصة :

« غضب بشار على سلم الخاسر وكان من تلامذته ورواته ، فاستشفع عليه بجماعة من اخوانه ، فجاءوه في أمره ، فقال لهم : كل حاجة لكم مقضية إلا سلماً . قالوا : ما جئناك إلا في سلم ، ولا بد ان ترضى عنه لنا . فقال : أين هو الخبيث ؟ قالوا : ها هو ذا . فقام إليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه وقال : يا أبا معاذ ، خريجك وأديبك .فقال : يا سلم ، من الذي يقول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفـــاتك اللهج

قال : أنت يا أبا معاذ ، جعلني الله فداءك . فقال : فمن الذي يقول :

من راقب النـــاس مـــات غمـــاً   وفاز باللـــذة الجســـور

قال : خريجك يقول ذلك — يعني نفسه — قال : أفتأخذ معانيّ التي قد عنيت بها وتعبت في استنباطها ، فتكسوها ألفاظاً أخف من ألفاظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري ؟ لا أرضى عنك أبداً . قال : فما زال يتضرع إليه ويشفع له القوم حتى رضى عنه . »

قد سقناها في معرض الاستدلال على خوف الناس منه . ولكن أهذا كل ما

تدل عليه ؟ بل هي توضح شيئاً آخر ، توضح أن بشارا كان في صميمه طيب القلب ميالاً إلى الصفح والمسالمة . فهو في الحقيقة يريد أن يصالح سلماً ولا يصبر على استمرار خصومته ، ويترسل كل الرسائل لأتمام هذا الصلح. يأتيه إخوانه هؤلاء فيبادرهم بأن يقول : كل حاجة لكم مقضية إلا سلماً . وما معنى هذا في الحقيقة ، وما الداعي إلى أن يبدأ هو بذكر سلم قبل أن يذكروه ؟ لا سبب إلا أنه يرجو منهم أن يفاتحوه في شأنه ويستشفعوا فيه . ثم تأمل جيداً قوله مباشرة : أين هو الخبيث ؟ فهي جملة تفيض في صميمها حناناً وتتهدج حباً . ثم تأمل في كل عتابه إياه تجده يترقرق حباً ورغبة في التصالح. فان شئت أن تزداد بهذه القصة فهما فافعل ما فعلته في قصة سابقة ، ضع مكان بشار أبا يأتي جيرانه وأصدقاؤه ليعيدوا الرفاق بينه وبين ولده العاق فيتحدث كل هذا الحديث الذي لا يدل على شيء سوى حبه لولده ورغبته في عودة الحال بينهما إلى ما كانت عليه .

فكه

من أعظم الخطأ الذي يوقعهم فيه تعصبهم على بشار رميهم إياه بثقل الظل وغلاظة الروح . وهو مثال غريب على أثر الأغراض في إفساد تقدير الرجال حتى يخطئوا حقائق تامة الوضوح . فالحقيقة التي تكاد تنطق بها كل صفحة من سيرته هي أنه كان على نصيب عظيم من المرح والخفة ورشاقة الروح وجودة النكتة وبراعة الفكاهة . كان فكها حقاً ، كان عنده ما يسميه الأنجليز A sense of humour بكل معاني هذا التعبير .

أما معاصروه فلا نلومهم كثيراً إذا أغفلهم عن تبين هذا ما كانت فيه من صفات أخرى ذميمة ، وما نفرهم عنه من دمامة ، وما لقوه منه من إقذاع في الهجاء . فقد عجزوا عن أن يدركوا أن الرجل قد يكون قبيح الخلقة ويكون مع ذلك ظريفاً لطيف المعاشرة ، وقد يكون غليظ الجسم ضخم الجثة ويكون مع ذلك

خفيف الروح ذا مقدرة أصيلة على الفكاهة الحقة . ولا نستطيع منصفين أن نبالغ في لومهم على عدم إعجابهم بنوادره الرائعة حين نرى أن معظمها كان نقداً لاذعاً لهم ، وخصوصاً إذا تذكرنا أن العرب خلوا أو كادوا يخلون من روح الفكاهة الأصيلة التي تجعل المرء يقدر المزحة البارعة وإن كانت ضده .

وأما نقادنا المعاصرون فكيف نسامحهم في مجاراتهم رأي عصره في رميه بغلظ الظل وجهامة الروح ، وهذه سيرته تفيض بالفكاهات البديعة التي هي بلا شك من أجود الفكاهات في الأدب العربي ، وليس بشار أمامهم حين ينفروا من دمامته ، ولاهم نالهم من ايذائه الشخصي ما يغفلهم عن براعة نكتته ، وليست هذه الفكاهات الجيدة موجهة إليهم حتى يضيقوا بها وينسيهم لذعها جودتها . فان سامحنا معاصريه في ضحالة فكرهم وقلة تمييزهم حتى قرنوا بين غلاظة الجثة وغلاظة الروح فكيف نسامح نقادنا حين يغفلون عن أن كثيراً من البارعين في الفكاهة يكونون من السمان الثقال الأجسام ، وأن من بين ثقال الروح غلاظ الدم رجالاً نحافاً هزيلين ؟

والقصص التي تروى عن بشار ترى أنه كان عنده ما نسميه في لغتنا بالنكتة أو المزاح ، ولكن تدل أيضاً على أنه كان عنده قدرة أسمى من هذه بكثير ، ليس في لغتنا اسم صحيح لها ، يسميها الانجليز بالإسم الذي ذكرناه آنفاً ، وهي لا تقتصر على استطاعة الممازحة أو « خبط النكتة » بل تقوم على ملكة عميقة يستطيع بها صاحبها أن يرى مفارقات الحياة ومتناقضات الطبيعة البشرية . والقصص التي سنرويها عنه ترى قدرة أخرى، ليس لها هي الأخرى اسم عربي صحيح ، ويسميها الانجليز Satire ، وهي لا يقتصر فعلها على الأضحاك أو التجريح الشخصي ، بل تحمل في طياتها نقداً عميقاً فكرياً أو خلقياً . والعربية لا تضع لها أسماً لسبب بسيط : أنها ملكة لم توجد في العرب القدماء ، لا لعجز وراثي في جنسهم بل لحالة مجتمعهم ومستوى فكرهم وثقافتهم ، فمعظم الهجاء في شعرهم لا يزيد على التجريح الشخصي ، فإن أضحكنا فإنما يضحكنا بجفاوته وما فيه من قذارة تخاطب فينا حب الافحاش البدائي الكامن في كل منا مهما يكن نصيبه

من التهذب . أما الفكاهات التي سنرويها لبشار فهي لا تقتصر على هذا ، بل في كل منها نقد عميق لظاهرة ما من ظواهر المجتمع البشري أو الطبيعة البشرية ، فهي ليست منصبة على من قيلت فيه فحسب ، بل لها مغزى عام يشمل البشر جميعاً .

فبشار حين مر بقاص بالبصرة يقول في قصصه : « من صام رجبا وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً في الجنة صحنه ألف فرسخ في مثلها وعلوه ألف فرسخ وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ في مثلها » ، فالتفت إلى قائده فقال . بئست والله الدار هذه في كانون الثاني ! حين قال بشار هذا فهو لم يرد إضحاك قائده فحسب، ولم يعن بوخزه هذا ذلك القاص بالذات، إنما أراد أن يعبر عن سخطه على كل أولئك القصاص الكاذبين الجهلاء ، وعن برمه أيضاً بسخافة عقول العامة الذين يقبلون هذا السخف ، ولا يزال نقده قائماً إلى يومنا هذا .

وحين مر برجل قد رمحته بغلة وهو يقول : الحمد لله شكراً ، فقال له : . استزده يزدك ! إنما كان يعبر عن سخطه على هذا النفاق الاجتماعي المرذول . فالشعور الطبيعي المباشر إذا أصاب الانسان مثل هذا الحادث أن يعبر للتو عن ألمه وتبرمه . فالذي يقول : الحمد لله شكراً ، ليس يعبر — كما قد يظن متنطعونا الدينيون الذين قد يعجبهم مثل هذا الادعاء — عن رضى بقضاء الله وحمد له على المكروه ، فهذا الرضى قد يصير إليه فيما بعد حين تهدأ ثائرته ويتعزى بالحكمة أو بالدين ، ولكن مستحيل أن يكون شعوره الصادق المبادر ، فهو لا يظهر إلا نفاقاً بغيضاً لعله أكره شيء إلى الله والبشر جميعاً ، وما نطق بذلك الحمد إلا لأن بقربه أناسا يسمعونه فيعجبون به ، ولو كان وحيداً لما كان هذا أول ما ينطق به.

كذلك ما قاله في القصة الآتية :

« كان بشار جالساً في دار المهدي والناس ينتظرون الاذن . فقال بعض موالي المهدي لمن حضر : ما عندكم في قول الله عز وجل « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ؟ » فقال له بشار : النحل التي يعرفها

الناس . قال : هيهات يا أبا معاذ ! النحل بنو هاشم ، وقوله « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » يعني العلم ! فقال له بشار : أراني الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بني هاشم ، فقد أوسعتنا غثاثة » .

لم يقل إلا ما يستحقه ذلك السخيف وأمثاله من المتنطعين الذين يكثرون بيننا إلى يومنا هذا . ولقد وافقه المهدي في حكمه هذا كما تروى بقية القصة : « فغضب وشتم بشاراً ، وبلغ المهدي الخبر فدعا بهما فسألهما عن القصة ، فحدثه بشار بها ، فضحك حتى أمسك على بطنه ، ثم قال للرجل : أجل ، فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم . فانك بارد غث . »

كذلك لما سأله يزيد بن منصور عن صناعته وهو يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعراً ، فأجابه : أثقب اللؤلؤ — لم تكن مجرد نكتة مضحكة ، بل كانت نقداً لأمثال هؤلاء البشر الشديدي البله ، وللمبصرين الذين لم ينقصهم بصرهم ذرة من غفلتهم وعمى قلوبهم .

وانظر الآن رده البارع في القصة الآتية :

« قال أبو النضير الشاعر . أنشدت بشاراً قصيدة لي ، فقال لي : أيجيئك شعرك هذا كلما شئت أم هذا شيء يجيئك في الفينة بعد الفينة إذا تعملت له ؟ فقلت : بل هذا شعر يجيئني كلما أردته . فقال لي : قل فانك شاعر . فقلت له : لعلك حابيتني أبا معاذ وتحملت لي . فقال : أنت أبقاك الله أهون علي من ذلك ! »

أتراه قال إلا ما يستحقه هذا المتشاعر الصغير الذي لا يكتفي بكل ذلك المديح السخي الذي ناله من أعظم الشعراء في عصره حتى يقول له في صفاقة وإلحاح : لعلك حابيتني أبا معاذ وتحملت لي ! ورد بشار يذكرني بما يروى من الفكاهات الشخصية عن ساخر عصرنا الأعظم برنارد شو . أما حين نقرأ هذه القصة :

« دخل بشار على عقبة بن سلم ، فأنشده بعض مدائحه فيه وعنده عقبة بن رؤبة ينشده رجزاً يمدحه به ، فسمعه بشار وجعل يستحسن ما قاله إلى أن فرغ ، ثم أقبل على بشار فقال : هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ! فقال له بشار : ألي يقال هذا ! أنا والله ارجز منك ومن أبيك وجدك [1] . فقال له عقبة : أنا والله وابي فتحنا للناس باب الغريب وباب الرجز ، ووالله إني لخليق أن أسده عليهم . فقال بشار : ارحمهم رحمك الله ! فقال عقبة : أتستخف بي يا أبا معاذ وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر ! فقال له بشار : فأنت إذاً من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ! » .

فنقرأ « خرج من عنده عقبة مغضباً » فليس من العدل أن ننتظر من عقبة ألا يغضب أو أن يعجب بهذا التهكم القارص عليه . ولكن ما شأن نقادنا يغمطون مثل هذه الردود البارعة حقها من جودة التهكم وحضور البديهة وسرعة الخاطر ، فيقول أحدهم [2] : « كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحببه إلينا ولا يعطفنا عليه ، فهو ثقيل حتى حين يضحك وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحكك ويرضيك ، وهو مر في جميع مواقفه ، يأتي بالنادرة المضحكة ولكنك لا تضحك ضحكاً صريحاً خالياً من كل شائبة وإنما تضحك وأنت مستشعر شيئاً من الألم محس شيئاً من المرارة » . صحيح أن تهكم بشار مر مؤلم ، ولكن الذنب في مرارته وإيلامه ليس ذنبه هو بل ذنبنا نحن بما فينا من نقائص يأخذها هذا الساخر أخذاً لاذعاً . وهل قال بشار لعقبة إلا ما استحقه ذلك الجلف السيء الأدب ، يمدح بشار رجزه ويستحسنه طويلاً ، فلا يكون منه إلا أن يقول له : هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ! ونحن ان اقتصرنا في الفكاهة على النوع الذي يضحكنا ويرضينا فإننا نهدم أجودها وأعظمها فائدة لنا في الآداب الانسانية ، وهو النوع الذي يضحكنا ويحزنا حتى يرغمنا على تأمل عيوبنا فلعلنا نحاول إصلاحها .

---

(١) جده هو العجاج الراجز المشهور .

(٢) طه حسين . حديث الأربعاء طبعة ١٩٢٥ ص ٢٤٥ .

أو ترى خلف بن أبي عمرو بن العلاء استحق غير هذا البيت اللاذع يوجهه إليه بشار في قصة [1] :

« وقال له خلف بن أبي عمرو يمازحه : لو كان عُلاثة ولدك يا أبا معاذ لفعلتُ كما فعل أخي ، ولكنك مولى . فمد بشار يده فضرب بها فخذ خلف فقال :

ارفق بعمرو إذا حرّكت نسبته فإنه عربي من قوارير

فقال له : أفعلتها يا أبا معاذ ! وكان أبو عمرو يغمز في نسبه » .

وما أصدق هذا البيت إلى عصرنا هذا على نفر من المحكومين المغلوبين على أمرهم يأبون إلا التمسح والالتصاق بسادتهم الحاكمين .

وليس أدل من تحامل معاصريه عليه من هذه القصة :

« قال دَماذ قال لي أبو عبيدة : قال رجل يوماً لبشار في المسجد الجامع يعابثه : يا أبا معاذ ، أيعجبك الغلام الجادل ؟ فقال غير محتشم ولا مكترث : لا ، ولكن تعجبني أمه » .

انظر إلى أبي عبيدة يأخذ على بشار رده فيقول : « فقال غير محتشم ولا مكترث » . ولا يلتفت إلى أن بشاراً كان يرد ولم يكن البادىء .. أفما كان البادىء بهذا الحديث القذر في حرم المسجد أولى بالذم ؟ أما كان ينبغي على أبي عبيدة أن يرويها هكذا : جاء إلى بشار وهو قار آمن في المسجد الجامع مقبل على شأنه الخاص رجل لم يراع حرمة المسجد بل سأله غير محتشم ولا مكترث : أيعجبك الغلام الجادل ؟ فرد عليه بشار بما يستحقه هو وأمثاله من السفهاء : لا ولكن تعجبني أمه ...

ولم تقتصر فكاهة بشار على ردوده النثرية ، بل وجدت في شعره أيضاً ، كما سنرى حين ندرسه ، ولكن نكتفي هنا بإيراد هذه الأبيات ذات الفكاهة الحلوة :

(١) اقرأها كاملة في أغاني دار الكتب ٣/١٩٠

« جاءنا بشار يوم أقفلنا له : مالك مغتماً ؟ فقال : مات حماري فرأيته في النوم فقلت له : لم متّ ؟ الم أكن أحسن إليك ؟ فقال :

سيدي خذ بي أتانا عند باب الأصبهاني
تيمتني ببنان وبدلّ قد شجاني
تيمتني يوم رحنا بثناياها الحسان
وبغنج ودلال سلّ جسمي وبراني
ولها خد أسيل مثل خد الشيفران
فلذا مت ولو عشت إذاً طال هواني

وهي بعد فكاهة خفيفة مضحكة لا تؤذي أحداً (تصور حافر الأتان وقد صار بنانا ، وأسنانها الغليظة وقد صارت ثنايا حسانا ، وخدها العريض الطويل وقد صار أسيلا ، وتصور نهيقها المنكر وقد صار غنجاً ودلالا !) . فالذي ينكر دعابتها المرحة رجل قد صمم على ألا يرى ببشار خيراً، هذا إن لم يكن رجلاً لا استعداد عنده لتقدير الفكاهة، ومن هذا الصنف كان الرجل الذي روى هذه القصة، لأنه لم يفهم أن «الشيفران» لفظ لا أصل له اخترعه بشار لمجرد الدعابة، كما نضع في لغتنا الدارجة ألفاظاً فكاهية لا معنى لها ولا مدلول ، مثل: الخنفشار ، ومثل : الحلمنتيشي. فراح يسأله ما معناه ، فاستحق ببلادته جواب بشار اللاذع :

« فقلت له : ما الشيفران ؟ قال : ما يدريني ! هذا شيء من غريب الحمار فإذا لقيته فاسأله ! »

ما أبعد هذه الشخصية عما يرسمون له من الغلاظة والثقل والتبغيض . لا يسعنا بعد هذه القصص وأمثالها إلا أن نسارع بقبول حكم ابن المعتز له بالظرف وحسن المسامرة وكثرة الملح في قوله :

كان شاعراً مجيداً مفلقاً ظريفاً محسناً خدم الملوك وحضر مجالس الخلفاء وأخذ فوائدهم وكان يمدح المهدي ويحضر مجلسه وكان يأنس به ويدنيه ويجزل له في العطايا وكان صاحب صوت حسن ومنادمة وكان إذا حضر المهدي في مجلس

مع جواريه بعث إليه لأجل المسامرة والمحادثة ... ولما توفي تذكره المهدي وحسن معاشرته له وكان أنيس مجلسه وقد كان معجباً به وبشعره وكان يدنيه... وحكى أن المهدي لما قتل بشار ندم على قتله » .

أعد قراءة هذه العبارات بإمعان وتأمل جيداً في كل جملة من جملها تتبدّ لك أشياء كثيرة ، منها أن المهدي لم يكن يعجب بشعره وحده بل كان يعجب « به » ، بشخصه هو ، ولا تدرك مبلغ دلالة هذه العبارات على ظرف بشار وخفة شخصه ان لم تتذكر فظاعة عماه وشناعة وجهه المجدور وجسمه الضخم الغليظ ، فالذي يتغلب ظرفه على هذه النقائص المنفرة حتّى يصير نديماً محبوباً ومسامراً مقرباً يرتاح المهدي إلى وجوده في أخص جلساته وأكثرها هناءة وصفاء لا بد أن يكون ظرفه عظيماً . لا غرو أن يحزن المهدي ويندم على قتله حين يفتقد حسن معاشرته وبهجة حديثه ومنادمته ، ولكن هذه قصة سنرويها بعد قليل ...

ويتضح لك أيضاً أن فكاهة بشار لم تكن مقتصرة على ذلك النوع اللاذع الممض الذي رأيناه فيما روينا من نوادره ، بل كان يستطيع ، إذا صفا له المجلس ودنا الأصدقاء الموادون وتخلص من إرهاق خصومه واضهادهم ، أن تفيض روحه بالدعابات الحلوة الظريفة والمسامرة الرقيقة المحببة . وهذا من ابن المعتز تقرير سنجد له أكثر من دليل في شعره إن أقبلنا على دراسته بحياد نزيه، ولكننا نروي هنا من فكاهاته قصة يقصها ابن المعتز :

« ودخل المهدي أيام خلافته على جماعة من جواريه وهن مجتمعات في حجرة بعضهن فجلس عندهن يشرب فقلن له لو أذنت لبشار في الدخول علينا لنسامره ونحادثه وكان من أحسن الناس حديثاً وأظرفهم مجلساً وأكثرهم ملحاً فأمر به فأحضر واجتمعن عليه فحدثهن وجعل يسرد عليهن من نوادره وملحه وينشدهن عيون شعره فسررن بذلك سروراً شديداً وقلن له يا بشار ليتك أبانا فلا نفارقك أبداً ، قال نعم وأنا على دين كسرى ! فضحك منه المهدي وأمر له بجائزة » .

وهي فكاهة بارعة ، والقصة نفسها تدليل لا مزيد بعده على ما نريد أن

نثبته لبشار من رشاقة الشخصية وبهجة المؤانسة ، انظر كيف يكرر ابن المعتز أنه « كان من أحسن الناس حديثاً وأظرفهم مجلساً وأكثر ملحاً » ، وكيف يعجب به جواري المهدي حتّى يتمنين ألا يفارقنه أبداً على قبحه وبشاعته ، وكيف يضحك المهدي من مزحته ويثيبه . ولكن هذا لم يرض أعداء بشار حتّى حوروا خاتمة القصة فجعلوها تقرر أن المهدي غضب منه وحرم عليه مسامرة جواريه بعدها ! والدليل السهل على أن هذه خاتمة كاذبة مخترعة هو أن القصة تشرح بدء بشار في مسامرة حرم المهدي ، ونحن نعرف أن هذه المسامرة تكررت واستمرت زمناً ، فلو كان صحيحاً أن المهدي غضب وأقصاه عن مجالسة الجواري بعد ما صدر منه في مجلسه الأول معهن لما وجدنا ابن المعتز يقول : « وكان إذا حضر المهدي في مجلس مع جواريه بعث إليه لأجل المسامرة والمحادثة » . تأمل صيغة الاستمرار : « وكان إذا حضر بعث إليه » .

شجاع الرأي

على أن أعظم السخف الذي يقع فيه نقادنا في كراهيتهم له هو رميهم اياه بالجبن ، وعلام يبنون هذا الاتّهام ؟ يبنونه على قصة تروى عن ذعره حين أقسم روح بن حاتم يميناً مغلظة لا استثناء فيها ليضربنه ضربة بالسيف ولو أنه بين يدي الخليفة ، ومبادرته إلى المهدي يحتمي به ، وتأففه حين ضربه روح ضربة بعرض السيف . ويبنونه على تأففه من وقع السوط حين ضرب سبعين سوطاً مات بعدها ، فكان إذا أوجعه السوط يقول حِسّ .

اعترف للقارىء بتحيري الشديد وعجزي التام عن استكشاف ما كان ينتظر نقادنا منه في هذين الموقفين . أكانوا ينتظرون من بشار أن يستل سيفا فيمضي إلى روح فيصيح به متحديا إياه إلى الطعن والنزال ؟ أم كانوا يريدون أن يصير حتى يلقاه روح فيضربه بالسيف دون ما وسيلة يدافع بها عن نفسه ، مكتفياً بأن يدعو الله ألا تكون ضربة قاتلة ؟

وهل رأوا شاباً مكتمل الشباب موفور القوة يضرب عشرة أسواط ، دعك من شيخ بلغ السبعين يضرب سبعين سوطاً ؟ وهل يدركون إدراكاً صحيحاً مقدار إيلام السوط للجسم الانساني ، بل مقدار نجوعه في ترويض الأسود والنمور وسائر الوحوش الضارية ؟ أم تراهم رأوا في أفلام هوليوود السينمائية أبطالاً يضربون بالسوط فلا يتفوهون ببنت شفة ولا تصدر عنهم آهة واحدة فهم ينتظرون من بشار أن يكون بطلاً من هذا النوع الذي لا وجود له إلا في خيالات الشاشة البيضاء ؟

لست أريد أن أنفي أن بشاراً في القصة الأولى أبدى فرقاً ، ولا أنا أريد أن أناقشهم في تسميتهم هذا الفرق بالجبن ، فليسموه جبناً ان أحبوا ، ولكن اينا لا يجبن حين يتهدده الموت ، اعني حين يتهدده تهدداً حقيقياً ؟ فان كان منا من لا يجبنون فكم عددهم ؟ أو لا ينبغي علينا في هذا كله أن نقدر أثر عماه في زيادة خوفه وتضخيم روعه ؟

ولكن دعك من هذا كله . فلنسلم بأن بشارا كان جباناً ، وبأن جبنه كان من نوع شديد لا عذر له ولا يستحق المسامحة ، فأي رجل كان ؟ أكان جندياً أو قائداً حربياً ، أو وزيراً أو حاكماً أو خفيراً ، أو غير هذا من الحرف التي يتطلب محترفها شجاعة جسمانية ، والتي لنا أن نعيب محترفها أشد العيب إن أقفر من الشجاعة الجسمانية ؟ بل كان أديباً شاعراً ، وقد يحق لناقده في معرض تحليل شخصيته أن يسجل عليه الجبن إن رأى فيه جبناً كعنصر من عناصر شخصيته لا بد من تسجيله ، أما إن ألح في تأكيد هذه النقيصة ، وراح يكررها ويضخمها ويهول من شأنها ، فانه قد شط عن النقد الأدبي القويم والتحليل النفساني المتزن إلى التجريح الشخصي المذموم .

والعجيب أن نقادنا في إلحاحهم في الحديث عن جبن بشار ، وعن خوفه من السيف وخوفه من السوط (كأن أحدنا لا يخاف سيفاً أو سوطاً !) قد أصروا على إغفال فضيلة عظيمة فيه ، فضيلة لا تستحق منا إلا الاعجاب التام

الذي لا استثناء فيه ، مهما يكن رأينا في شخصيته أو في شعره ، ومهما يكن نفورنا عن عقائده أو سلوكه . أعني شجاعته الأدبية النادرة المثال بين بني البشر .

مهما يكن ذمنا لرذائله ،وسخطنا على زندقته، وتقبيحنا لشعوبيته، وتأذينا من دعارته ، ونفورنا من هجائه ، ومهما نسم إباءه وانفته غطرسة وجبروتا ، ونلمه على عمى ودمامة لا ذنب له فيهما ، ونقرن بين غلاظة جسمه وغلاظة روحه ، وننكر عليه ظرفه وبراعة فكاهته ، فانه يبقى علينا بعد هذا كله ، إن كنا مفكرين نزيهين منصفين ، أن نعترف له بفضيلة عظيمة الشأن ، نادرة الوجود في المجتمع البشري ، ونادرة الوجود فينا بنوع خاص ، وهي الجرأة الأدبية ، فان اعترفنا له بها فهي وحدها الشجاعة التي نتطلبها في المفكر والأديب .

فان كنت لا تزال متردداً في وصفه بهذه الصفة فتدبر حياته مرة أخرى ، وانظر كيف تحدى الناس في كل شيء ، وكيف جهر بمعارضته ولم يلجأ إلى تقية ، تحدى إذلال العرب للموالي وإساءتهم معاملتهم ، وجهر بهذا التحدي في حديثه وفي شعره ، وأصر على الاحتفاظ بكرامته البشرية ، وبقي على هذا الاصرار حتى أمام المهدي . وتحدى ابتخاس علماء العربية لمنزلة الموالي في الأدب العربي ، واستمر في هذا التحدي حتى اضطرهم إلى الاقرار بمنزلته الأدبية ، وتحدى احتقار جمهور المبصرين للأعمى واستغلالهم لضعفه وقلة حيلته ، فلما لم ينفع معهم عتاب لجأ إلى التخويف والارهاب بلسانه ، سلاحه الوحيد . وعجز مخلصاً عن الاقتناع بمذهب ديني واحد ، فأعلن شكوكه وكان أسهل شيء عليه أن يكتمها كما كتمها الكثيرون من مفكري عصره وما تلا عصره . وظل طول حياته ناقداً لمجتمعه لا تأخذه في نقده هوادة ولا خوف ، ينقد جهل معاصريه وغباءهم وسخف عقلهم وتصديقهم للخرافات ، ومراءاتهم ونفاقهم الاجتماعي الذميم ، وجفاوتهم وسوء أدبهم وغرورهم وجبروتهم على الضعيف ، وتذللهم وخنوعهم امام القوي ، والتصاقهم بالعزيز من الأنساب . وكل صفة من هذه الصفات تجد لبشارا نقداً لاذعا لها في شعره او في نوادره الساخرة .

على أن من النقاد ـــ القدامى والمحدثين ـــ من يحاولون أن يغضّوا من شجاعته الأدبية هذه ، بما ينسبون اليه من تلون في الولاء ، ومن مدح للعباسيين بعد أن مدح الأمويين . أما ما يدعون عن تلونه في الولاء فقد رأينا رأينا فيه ، حين شرحنا أنه بدأ بمحاولة جاهدة للتآخي والتحاب مع العرب ، ولم ينته إلى الحقد عليهم ونبذ الولاء لهـــم الا بعد أن أعيته هذه المحاولة وتبين له أنهم لن يقبلوا منه الا الخضوع الذليل ، وهو ما يأباه أشد إباء . وأما مدحه للعباسيين بعد مدحه للأمويين فإننا نظلم الرجل ظلماً شديداً إذا أسرفنا في مدلوله ، ولم ندخل في اعتبارنا الكافي تقليد المديح الذي كان شائعاً في ذلك الزمان ، والمهم في هذا أن مدحه للعباسيين لم يعن تغيير رأيه السياسي ، بل كان من أهم أسباب ذلك المدح أنه ـــ كغيره من الفرس المخدوعين ـــ اعتقد أن نصرتهم للعباسيين ستنقذهم من الاضطهاد الذي سلط عليهم أيام بني أمية . وأنهم رأوا في انتصار آل عباس نوعاً من الانتصار لهم وقدراً من التعويض عن ملكهم الذي سلبوه . وقد ظهر هذا واضحاً جلياً في القصيدة البائية التي درسناها تفصيلاً :

هـــل مـــن رسول مخبـــــر عني جميـــع العرب

وقد بلغ من اتهام القدامى له بالتلون السياسي أنهم ادعوا أنه لما ثار ابراهيم بن الحسن بن عليّ على المنصور ، مدح بشار ابراهيم بقصيدة هجا فيها المنصور ، أولها :

أبا جعفر ما طول عيش بدائـــم ولا سالم عمـــا قليل بســـالم
فرم وزرا ينجيك يـــا بن سلامة فلست بناج من مضيم وضائم

وقال فيها في مدح ابراهيم :

من الفاطميين الدعاة إلى الهـــدى جهاراً ، ومن يهديك مثل ابن فاطم

وأنه لما انتصر جيش المنصور على ابراهيم في تلك السنة خاف بشار فغير القصيدة وجعلها مدحاً في المنصور وهجاء لأبي مسلم الخراساني . فحول قوله

« أبا جعفر » إلى « أبا مسلم » ، وقوله « يا بن سلامة » وسلامـــة هي أم المنصور إلى « يا بن وشيكة » وهي أم أبي مسلم ، وقوله « مثل ابن فاطم » إلى « مثل ابن هاشم » .

لكن الذي يطعن في صحة هذه القصة هو عدم توافق السنين . فابراهيم بن الحسن بن علي كانت ثورته سنة ١٤٥ ، بينا أبو مسلم قد قتل قبل ذلك بثماني سنوات ، في سنة ١٣٧ . فكيف يقول له بشار « ما طول عيش بدائم » ويقول له « فرم وزرا ينجيك يا بن وشيكة فلست بناج الخ » وهو قد قتل فعلا منذ سنوات ثمان ؟ والعجيب أن ناشر الديوان بعد أن يثبت هذه الحقيقة يستمر فيقول (١٥/١) : « فالظاهر أن القصيدة وضعها حين ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن ، وظن بشار أنه يتم له الأمر ، فلما رأى اختلال أمره أخفاها ثم غيرها قريباً في نكبة ابي مسلم . » دون أن يقدم دليلاً او شاهداً واحداً على هذا الفرض ، ودون أن ينتبه إلى أنه لا يزال مناقضاً لمطلع القصيدة وللبيت المذكور « فرم وزرا ينجيك » . ولست ادري لماذا لا يقر بالحقيقة البسيطة ، وهي أن ذلك الخبر محض اختلاق ؟ وهل كان مثل بشار في رجاحة عقله وطول تجربته ينخدع حقاً بتلك الفتنة الفائرة القصيرة الأمد التي اندفع اليها محمد بن عبدالله بن الحسن ؟ وكم رأى بشار قبلها من فتن أخمدت سريعاً ، لا نريد هنا أن ننكر أن بشارا هجا المنصور بتلك القصيدة، كما هجاه بقصائد اخرى حين فسد الأمر بينهما وتنكر له ذلك الصديق القديم ، كما سنشرح في خبر مقتله ، لكن الذي ننكره هو أنه حولها ذلك التحويل الذي تدعيه القصة ، فقصارى ما حدث أن بشارا نظمها وكتمها ، كما فعل بهجائه الآخر للمنصور ، معبراً بها عن رغبته في هلاكه على يد عدو .

بل نعود فنلح على أن بشارا قد أبدى شجاعة ادبية كبيرة في كل حياته ، وهي هي التي أوردته موارد التلف كما سنرى بعد قليل ، فإن كان ببشار عيب في هذه الناحية فليس الجبن او النفاق او التلون بل التزيد المسرف في تحدي مشاعر الناس بداع وبغير داع ، في الموقف الذي يلزم فيه التحدي وفي الموقف الذي

يستحسن فيه الصمت . لكنها رَذيلة الإفراط كما ترى لا رذيلة التفريط ، وهي هي التي دفعته إلى ما شط فيه من المجاهرة بالفسق والدعوة إلى التحلل الجنسي ، وهو سلوك لا نحاول أن نجيزه ولا أن نبرره ، ولكن الذي لا يلتمس له الأعذار المخففة في كل ما قاساه من قسوة الطبيعة وقسوة المجتمع رجل لا يريد أن يغفر لأي انسان أية نقيصة . ومثل هذا الرجل خليق به أن يفارق عشرة الناس إلى عشرة الملائكة الأطهار ، فهو أطهر من أن يعيش بين البشر :

هذى طباع الناس معروضـــة فخالطوا العـــالم او فارقـــوا

مقتله الأشنع

فإن بقي في قلوبنا شيء من الضغن على بشار ، او الكره لسلوكه الشخصي ، فإنه لا شك يتبدد جميعه حين نتأمل مقتله البشع المفرط القسوة ، فهو مقتل لا يستحقه هو ولا يستحقه إنسان مهما تكن سيئاته ، وهو وحده كفيل بان يجعلنا نرثي له أعظم الرثاء ونغفر له مساوئه جميعاً .

قتل بشار ضرباً بالسياط . ويقولون أنه ضرب سبعين سوطاً قبل أن يبدو فيه الموت . ويروون : « فكان إذا أوجعه السوط يقول حَسِّ ، وهي كلمة يقولها العرب للشيء إذا أوجع . فقال له بعضهم : انظر إلى زندقته يا أمير المؤمنين ! يقول حس ولا يقول باسم الله ! فقال : ويلك ! أطعام هو فأسمي الله عليه ! فقال له الآخر : أفلا قلت الحمد لله ؟ قال : أو نعمة هي حتى أحمد الله عليها ! فلما ضرب سبعين سوطاً بان الموت فيه ، فألقي في سفينة حتى مات ، ثم ألقيت جثته في موضع يعرف بالحرارة [1] ، فحمله الماء فأخرجه

(١) فيقول أحد كتابنا الغلاظ القلوب شامتا فيه « وبذلك ختمت حياة بشار وكانت نهايتها أن ألقى في (الحرارة) » . وتغفله شماتته عن أن اللفظ مشتق من خرير الماء لا من المعنى الذي يظنه . وليس العجيب أن تلك القتلة القاسية لا تثير فيه ذرة من الرثـــاء أو الا متعاض ، بل العجيب أنه – وهو مسلم – ينسى أن الإسلام يحرم التمثيل بالجثث ، حتى جثث المشركين في بدر أمر الرسول بأن يحفر لها قليب دفنت فيه دفناً كريماً ، فبشار على زندقته ما كان يستحق أن ترمى جثته كما ترمى جثة الكلب أو الحمار .

انظر تعليقات كتاب وفيات الأعيان ، طبعة دار المأمون . الجزء الثالث ، هامش ص ٤٧

إلى دجلة البصرة فأخذ فأتي به أهله فدفنوه . »

أرجو ألا يكون أحد من قرائي في حاجة إلى أن أبين له فظاعة هذه الميتة وقسوتها الوحشية ، والذي يزيدنا على بشار تحسراً هو أن نراه احتفظ بفكاهته ونكته البارعة حتى حين كانت روحه تفيض في ألم لا يفرقه ألم. ثم انظر ما تريه هذه القصة من جرأته وشجاعته الأدبية ومقته للنفاق وقارنها بنفاق أذناب المهدي ورياء حاشيته . ولست أدري لو كان أحدهم في موضع بشار هل كان يحمد الله حقاً أو يسمى باسمه . على أن الشناعة تزداد أضعافاً حين نسأل : لم قتله المهدي ؟

يدعون أن المهدي قتله لسببين ، لفسقه وإفحاشه في شعره . ولزندقته . وليس أحد السببين صحيحاً . والصحيح أن المهدي قتله تخوفاً من لوم أهل عصره ، أو بصريح العبارة قتله جبناً أدبياً أمام رأي الجمهور ، وهذا ما نحن الآن بسبيل إثباته .

فلنتأمل أولا في السببين اللذين يدعونهما. يقولون إن المهدي أغضبه ذكر بشار للنساء في شعره ، وتحريضه شباب عصره على الفسوق ، ويقولون إن المهدي كان من أشد الناس غيرة (يعنون الغيرة الجنسية) فنهاه عن الغزل ، فلما لم يمتثل قتلـــه .

أفهذا صحيح ؟ ولكن بشاراً كان قد عمر سبعين عاماً ، انفق منها ما لا يقل عن خمسين في غزله ذاك وذكره للنساء ، أفلم يسمع به المهدي إلا أخيراً ؟ وأين كانت غيرته منذ شب فسمع شعر بشار وفهمه ، أو منذ اعتلى العرش فكان في قدرته أن يبطش به ، أين كانت غيرته في هذه السنوات التسع ؟

هذا تعليل لا نتردد في رفضه ، ويزيدنا تأكداً من استحالته أن بشاراً لم يكن غريباً على المهدي ، فإنه كان يعرفه ، بل كان من خاصة جلسائه وأقرب ندمائه[1]. وقد سمعت ما يقوله ابن المعتز في صحبتهما ، نكره هنا :

---

(١) انظر في الديوان (١٥٥/٢) قصيدة من ٣٣ بيتاً نظمها في وصف جارية مغنية سمع المهدي غناءها فأطرب به وقال لبشار : قل في صفتها شعراً .

« وكان يمدح المهدي ويحضر مجلسه ، وكان يأنس به ويدنيه ويجزل له في العطايا ، وكان صاحب صوت حسن ومنادمة ، وكان إذا حضر المهدي في مجلس مع جواريه بعث إليه لأجل المسامرة والمحادثة ... ولما توفي تذكره المهدي وحسن معاشرته له وكان أنيس مجلسه وقد كان معجباً به وبشعره وكان يدنيه » .

ليس بعد هذا النص تدليل على أن المهدي كان يعرف بشاراً معرفة جيدة ، وكان يعرف شعره كذلك معرفة جيدة ، وكان يقربه إليه ويستحلي منادمته ومسامرته ويعجب بحديثه وظرفه وملحه .

فكيف كان بشار ينادم المهدي ويسامره يا ترى ؟ وأي شيء كان ذلك الحديث وتلك الملح ؟ أكان يحادثه في أمور التقى والورع وأخبار الزهاد والعباد ؟ أم كان يقصر سمره وملحه على الأحاديث البريئة والأخبار العفيفة والقصص ذات المغزى الأخلاقي الصالح ؟ القارىء الذي يعرف معنى المنادمة في ذلك العصر ، وما كان يدور بين الخلفاء وشعرائهم الندمان ، ليس يحتاج إلى جواب .

فإن احتاج إلى جواب قلنا له : ليس هذا مجرد استنباط نظري أو مجرد قياس قد يخطىء وقد يصيب . فإليك القصة الآتية تريك مثلاً مما كان المهدي يستمع إليه من بشار ، بل يتطلبه من بشار . وهي قصة أعتذر إلى القارىء في اضطراري إلى سوقها كاملة بلا حذف ، ولكن لا مناص منها في التدليل في هذا الموضوع الهام ، ولا يحتاج القارىء بعدها إلى تدليل :

« دخل المهدي إلى بعض حجر الحرم ، فنظر إلى جارية منهن تغتسل ، فلما رأته حصرت ووضعت يدها على فرجها ، فأنشأ يقول :

« نظرت عيني لحيني »

ثم أرتج عليه . فقال : من بالباب من الشعراء ؟ قالوا : بشار . فأذن له فدخل فقال له : أجز :

« نظرت عيني لحيني »

فقال بشار :

نظرت عيني لحينـــي نظراً وافق شينـــي
سترت لـــا رأتنـــي دونـــــه بالراحتين
فضلت منه فضـــــول تحت طي العكنتين

فقال له المهدي : قبحك الله ويحك ! أكنت ثالثنا ! ثم ماذا ؟ فقال :

فتمنيت وقلبـــي للهوى في زفرتيـــن
أنني كنت عليـــه ساعة أو ساعتين

فضحك المهدي وأمر له بجائزة . فقال : يا أمير المؤمنين أقنعت من هذه الصفة بساعة أو ساعتين . فقال : اخرج عني قبحك الله ! فخرج بالجائزة . »

انتبه جيداً إلى قول المهدي « ثم ماذا ؟ » يستزيده من مثل هذا الشعر . وإلى الرواية « فضحك المهدي وأمر له بجائزة . » وليس فيما نعرفه من شعر بشار ما يفوق هذه الأبيات تصريحاً ، بل ليس فيه ما يقاربها تصريحاً . على أن جملة بشار الأخيرة لا تقل عن الشعر دعارة ومع ذلك لم يعاقبه المهدي عليها بأكثر من أن قال : اخرج عني قبحك الله . وهي جملة إن تأملتها وجدتها مما لا يجرؤ بشار أو غيره على قوله للمهدي لو لم يكن بينهما من قبل مفاكهات كثيرة من هذا النوع .

فأين كانت غيرة المهدي وسخطه على ذكر بشار للنساء في هذا الخبر ؟

أم تراه صحا فجأة من غفلته بعد سنوات تسع فأدرك شناعة هذا الشعر وأمثاله مما ظل بشار يقوله طول حياته ؟

أضف إلى هذا كله أن هذا التعليل يقوم على دعوى أن بشارا عصى المهدي وظل ينظم الشعر الغزلي فعاقبه المهدي على عصيانه بالقتل ، وهي دعوى غير صحيحة ، فقد أطاعه بشار وترك الغزل . وهذا ما سنثبته حين ندرس شعره .

وأما ادعاؤهم أنه قتله لزندقته فهو ايضاً لا يثبت امام التفكير دقيقة واحدة ، فأين كان المهدي طول هذه السنوات التي اشتهر فيها بشار بشكوكه ؟ أم تراه لم يسمع بزيغه إلا أخيراً ! ولكن بشارا ما اخفى تشككه قط ، وقد ظل العلماء يحملون عليه سنوات عديدات .

بل الحق الواضح الذي لا جدال فيه ان المهدي لم يقتله لأحد السببين ، لا لفسقه ولا لزندقته ، إنما لجأ إلى قتله حين اشتد به لوم الناس ونقدهم ووصل الى درجة لم يعد يستطيع تحملها. فقد ازداد ببشار عداء أهل عصره، واشتدت حملتهم على زندقته ودعارته ، والح في مهاجمته بعض كبار رجال الدين من امثال واصل بن عطاء وسوار بن عبدالله الأكبر ومالك بن دينار، وأخذوا يعنفون في لوم المهدي على صحبته بشاراً وتقريبه إياه واصطفائه مسامراً ونديماً وإعطائه المنح والجوائز . فخانته شجاعته الأدبية ولم يستطع الاستمرار في تجاهل نقدهم ، وكان عداؤهم من نوع لا يخمده إلا قتل بشار ، ولقد صرحوا بهذا في خطبهم التي حرضوا فيها الناس على البطش به ، فتلمس المهدي عذراً يقتل به بشاراً إرضاءً لهم وتخلصاً من وطأة التقريع .

ولو كان هذا منا استنباطاً لكان من الاستنباط القوي الذي يبلغ مرتبة اليقين ، فهذا يكون التعليل الوحيد المقبول لتحول المهدي على بشار وانقلابه ضده بعد طول التقريب والاصطفاء . على أنه ليس محض استنباط ، تأمل في القصة الآتية :

« أبو غسان دماذ قال : سألت أبا عبيدة عن السبب الذي من أجله نهى المهدي بشاراً عن ذكر النساء . قال : كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره ، حتى قال سوار بن عبدالله الأكبر ومالك بن دينار : ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وما زالا يعظانه ، وكان واصل بن عطاء يقول : ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد . فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة الى المهدي ، وأنشد المهدي ما مدحه به ، نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب ، وكان المهدي من أشد الناس غيرة . »

أما الجملة الأخيرة فقد رأيت فيها رأينا ، فغيرة المهدي الشديدة هذه لم تمنعه سنوات طويلات من تقريبه في مجلسه والاستماع إلى شعره وفكاهته — وقد رأيت منهما مثالاً — ولا هي منعته من إدخاله على حرمه ، وقد سمعت له نادرة معهن أمام المهدي . ولكن تأمل الآن القصة كلها ، تجد أن المهدي لم يلجأ إلى معاقبة بشار حين استهتر نساء البصرة وشبابها بشعره ، وإنما لجأ إليها حين اشتد رجال الدين في مهاجمته ، وكثرت هذه المهاجمة ، وانتهى خبرها من وجوه كثيرة إلى المهدي . تأمل « كثر ذلك » وتأمل « من وجوه كثيرة » .

لو أنه اكتفى بإبعاده عن مجلسه ، أو نفيه من بغداد قصبة الملك لما لمناه أبداً. فمثله في مثل مركزه لا بد أن يعير الرأي العام أذنا صاغية، وليست حياته الشخصية ملكاً له وحده ، بل سلوكه محدود حداً شديداً بمستلزمات منصبه . ومثل بشار في زيغه ومجاهرته بالشك وفي شهوانيته ومصارحته بالدعارة ليس ممن يرضى الجمهور بتقريبه إلى أمير المؤمنين وخليفة المسلمين . وربما كان يستطيع أن يظل في تقريبه إليه ما دامت صحبتهما سراً أو لا يعرفها إلا القليلون من الخاصة ، أما حين افتضحت واستحر هجوم قادة الشعب على بشار فانه لم يكن للمهدي مهرب من إقصائه عنه . ولكن أن يلجأ في محاولته إرضاء الشعور العام إلى قتله ، ثم لا يكتفي حتى يأمر بقتله تلك القتلة الوحشية وهو شيخ في السبعين، هذا ما لا نسامحه فيه أبداً ، فانه يخرج تصرفه عن حد الاحترام المشروع للرأي العام ويدخله في حد الجبن الخلقي المرذول .

ويزداد تصرفه قبحاً حين نعرف السبب المباشر الذي دفعه أخيراً بعد طول التسامح إلى التماس العذر لقتله . وهو أن بشاراً هجاه هجاء مفحشاً لما حرمه المهدي عطاياه وأبى أن يثيبه على مدائحه مع أنه استمع إلى نهيه فترك الغزل في شعره . وهذه هي القصة :

« ثم أنشده ما مدحه به بلا تشبيب ، فحرمه ولم يعطه شيئاً ... ثم أنشده قصيدته التي أولها « تجاللت عن فهر وعن جارتي فهر » ووصف بها تركه التشبيب ، ومدحه ... فلم يحظ منه أيضاً بشيء ، فهجاه فقال في قصيدته :

خليفة يزني بعماتـــه يلعب بالدبوق والصولجان
أبدلنـــا الله بـــه غيره [1] ودس موسى في .. الخيـــزران

وأنشدها في حلقة يونس النحوي ، فسعى به إلى يعقوب بن داود ، وكان بشار قد هجاه فقال :

بني أمية هبوا طـــال نومكمـــو إن الخليفة يعقوب بـــن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعـــود

فدخل يعقوب على المهدي فقال له : يا أمير المؤمنين ، ان هذا الأعمى الملحد الزنديق قد هجاك . فقال : بأي شيء ؟ فقال : بما لا ينطق به لساني ولا يتوهمه فكري . فقال له : بحياتي إلا أنشدتني ! فقال : والله لو خيرتني بين انشادي إياه وبين ضرب عنقي لاخترت ضرب عنقي . فحلف عليه المهدي بالايمان التي لا فسحة فيها أن يخبره فقال : اما لفظا فلا ، ولكن أكتب ذلك . فكتبه ودفعه إليه ، فكاد ينشق غيظاً ، وعمد على الانحدار إلى البصرة للنظر في أمرها وما وكده غير بشار . فانحدر فلما بلغ إلى البطيحة سمع أذانا في ضحى النهار ، فقال : انظروا ما هذا الأذان . فاذا بشار يؤذن سكران . فقال له يا زنديق يا عاض ... أمه ! عجبت أن يكون هذا غيرك . أتلهو بالأذان في غير وقت صلاة وأنت سكران ! ثم دعا بابن نهيك فأمره بضربه بالسوط ، فضربه بين يديه على صدر الحراقة سبعين سوطاً أتلفه فيها . »

تأمل هذه الحيل الدنيئة يحتالها يعقوب كي يزيد من تشوق المهدي والحاحه في الاستماع إلى هجاء بشار ، وليس الذي يدفعه هو غيرته على المهدي أن يهجى هذا الهجاء البذيء ، بل ان بشاراً قد هجاه هو . ثم انظر المهدي يذهب إلى البصرة متصنعاً أنه يريد النظر في شؤونها وليس قصده إلا أن يعثر ببشار ، ومن سخرية القدر العجيبة أنها واتته بعذر وجيه ليقتل بشارا .

---

(١) لهذا الشطر رواية أخرى أنحش في الخالديين ص ١١٣ .

فليدرك القارىء أني لا ألوم المهدي في قتله بشارا على هذا الهجاء لو كان الهجاء هو السبب الوحيد لقتله . فقوانين عصره كانت تبيح له أن يقتله لمثل الهجاء بل لأهون منه ، ولو أن شاعراً في عصرنا هجا ملكاً بهجاء مماثل لربما لا يكون مصيره القتل ، ولكن يكون مصيره دون شك أشد عقاب يستطيعه القانون دون القتل . ولسنا نستطيع أن نحكم على المهدي بغير قوانين عصره . إنما الذي نأخذه عليه هو أنه تتحلّ سبباً آخر ، وادعى أنه إنما يقتله غضباً من خلاعته واستهتاره وسلك هذا السلوك الانتهازي ليضرب عصفورين بحجر : ينتقم من بشار على هجائه ، ويسترضي من كانوا يأخذون عليه تقريبه إياه ومصادقته له .

ولو أنه كان قد غضب حقاً من استهتار بشار بالأذان وهو سكران فكان هذا الغضب هو الذي حمله على قتله لما اشتددنا في لومه . ولكنه في حياته الطويلة لا بد أن قد عرف لبشار حوادث من الاستهتار لا تقل عن هذه . فالحقيقة الساطعة هي أنه لم يقتله لأذانه وهو سكران ولا هو قتله بسبب هجائه وحده ، إنما كان هذا الهجاء هو الشرر الذي أضرم نيته المختزنة التي طال حبسه لها ، وكان الأذان هو العلة المنتهزة التي تعلل بها ، أما السبب الدفين فهو ضعفه أمام الناس جمهورهم وعلمائهم لما اشتدوا في لومهم إياه على مصادقته بشار او إغضائه العين على عيوبه .

ولا أدل على ما ندعيه من أن نقرأ القصة التي يرويها القدماء عن ندمه على قتله . هذه رواية ابن المعتز لها :

« وحكى أن المهدي لما قتل بشار ندم على قتله وأحب أن يجد شيئاً يتعلق به ، فبعث إلى كتبه فأحضرها وأمر بتفتيشها طمعاً في أن يجد شيئاً مما ضربه عليه ، فلم يجد من ذلك شيئاً . ومر بطومار [1] مختوم فظن أن فيه شيئاً ، فأمر بنشره ، فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أني أردت أن اهجو آل سليمان بن علي بن عبدالله العباس ، فذكرت قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله ،

(۱) الطومار : الصحيفة .

فمنعني ذلك من هجوهم ، ووهبت جرمهم لله عز وجل ، وقد قلت بيتين لم أذكر فيهما عرضاً ولم أقدح في دين ، وهما :

دينار آل سليمان ودرهمهم كالبابليين شدا بالعفاريت
لا يوجدان ولا يرجى لقاؤهما كما سمعت بهاروت وماروت

فقال (أي المهدي) الآن والله صح الندم . »

لا يعنينا الآن ما في القصة من دليل جديد على أن بشارا لم ينته قط إلى الكفر أو الالحاد ، إنما الذي يهمنا جملتها الأولى : ندم على قتله وأحب أن يجد شيئاً يتعلق به — ثم جملتها الأخيرة : فقال الآن والله صح الندم . ما مغزى هذا الندم ؟ مغزاه بلا شك أن غضب المهدي من هجاء بشار إياه لم يكن بالقوة الكافية لأن يدفعه إلى قتله ، وإلا لما ندم بعد أن نفذ القتل ، فالدكتور طه حسين غير محق حين يقول إن الهجاء وحده هو الذي قتل هذا الشاعر . ومغزاه أيضاً أن المهدي لم يكن مقتنعاً قط بما قيل عن كفر بشار ، وإلا لما حاول أن يعثر على دليل يؤيد هذه التهمة ، فهو إذن لم يقتله لهجائه في الحقيقة ، ولا قتله لأنه كان مقتنعاً بكفره . بل دافعه الأقوى إلى قتله ان يسترضي من لاموه على صحبته الطويلة له . فالحق أن المهدي في قصة مقتل بشار يبدو لنا في صورة رديئة جداً ، لا يخففها بعض الشيء إلا هذا الندم الذي يروى عنه ، ولكن لات حين ندم ، فان سلوكه يزداد قبحاً حين نعرف أن بشارا لم يعصه حين نهاه عن الغزل ، بل أطاعه وانقطع عن نظم قصائده الغزلية ، ولم يفعل ذلك خوفاً بل رعاية لصداقته القديمة وإدراكا لحرج موقف المهدي ، مع ما في هذا الامتناع عن الغزل من إرهاق بالغ لطبيعته الفنية وحد عظيم لحريته الشعرية كان تأثيره عليه شديد الإيلام ، كما سنرى حين ندرس شعره .

الحق أن هناك كلمتين اثنتين تصفان سلوك المهدي أصدق وصف : خيانة وجبن .

على أننا ينبغي ألا نخص المهدي باستنكارنا ، فهناك شخص آخر كان

سلوكه في هذه الواقعة المحزنة رديئاً ، وهو واصل بن عطاء ، وهو أيضاً كان في الأصل صديقاً لبشار ، زامله فترة في المناقشة والدرس ، فلما انتهى بشار إلى الخروج على المدرسة المعتزلية لم يكن هذا الخروج ناشئاً عن شيء سوى عجزه الصادق عن أن يجد في فلسفتها الشرح المقنع الكافي لشكوكه وأسئلته ، فسرعان ما انقلب عليه صديقه القديم انقلاباً لا شك أن سببه هو غضبه من خروج بشار عليه وإعلانه عدم اكتفائه بهذه المدرسة . ثم دفعه هذا الغضب إلى الحملة عليه والتشهير به في كل مجال ورميه بالإلحاد وتحريض العامة عليه تحريضاً طويلاً مستمراً . وواضح من رواية الأغاني أن بشارا لم يلجأ إلى هجاء واصل إلا بعد أن عمد واصل إلى هذا الاتهام والتحريض . وهذه هي الرواية : « وبلغه عن أبي حذيفة إنكارٌ لقوله وهتف به ، فقال يهجوه » بيتيه اللذين يوضحان أن سبب خروج بشار على المعتزلة هو ضيقهم المذهبي الشديد وتكفيرهم من يخالفهم من المسلمين في آراء معينة :

ما لي أشايع غزالا لـــــه عنـــق ... كنقنق الدو إن ولى وإن مثـــلا

عنق الزرافة ما بالى وبالكمـــــو ... تكفـّرون رجالاً كفـّروا ارجلا

شهيد

حين نصف بشارا بأنه شهيد فإنما نقرر حقيقة واقعة . سواء أأحببناها أم كرهناها ، وسواء أوافقناه على آرائه أم خالفناه فيها ، وسواء أمدحنا سلوكه أم ذممناه . فالشهيد هو الذي يقتل لتمسكه برأي يظنه الصواب ، أو لإصراره على رفض رأي لم يقتنع بصحته ، مهما يكن رأيه خاطئاً ورأي الآخرين صائباً . فلسنا نعني من هذه التسمية معناها الديني — وقد سبقه إلى الاستشهاد الديني كثيرون — وإنما نقصد معناها الفكري . أما وقد اتضح أن بشاراً لم يقتله إلا إغضابه الناس بزندقته وإباحيته ، فهو شهيد .

ولكني لا أريد أن أبالغ فأرقيه إلى الصف الأول من شهداء الفكر . فلا

شك أن استشهاده لم يكن ضرورة واجبة ، ولا شك أنه بعناده الزائد وإسرافه في تحدي شعور الناس وتبغيضهم فيه قد اضطرهم إلى قتله ، والمحتمل أنه لو خفف من إسرافه هذا لتركوه حتى يموت ميتة طبيعية . ولكن كل هذا لا يغير الحقيقة الباقية : أنه لم يقتل لجريمة عادية ، وإنما قتل لنزوعه في تفكيره منزعاً خاصاً لم يرض معاصريه .

لا يستطيع بشار أن يرتقي إلى الصف الأول من شهداء الفكر ، فيلحق بسقراط مثلاً . فإنه لم يقتل على زيغه الديني والفكري وحده ، بل قتل على فسقه ودعارته كذلك . ولكن تحلله الخلقي هذا لم يكن وحده ليؤدي إلى قتله ، فلو أنه كان مؤمناً خالص الإيمان لتحمل الناس إباحيته ، وهم قد تحملوا نظيرها وأشد منها من معاصرين له ، بل كانوا يتحملونها لو أخفى شكوكه ولاذ بالتقية . فمقتله يعزى في جانب كبير منه إلى حرية تفكيره ، وهو إلى هذا الحد يستحق أن يسمى استشهاداً .

ثم إن استشهاده هذا ، وإن لم يكن ضرورة لا محيد عنها أو يكن استشهاداً فكرياً خالصاً ، حدث بكيفية أبدت شجاعة فائقة ، لا مفر من أن تكسبه روعة . وهذه حقيقة لم أر أحداً إلتفت إليها قط ، مع أنها لا تحتاج إلا إلى تفكير يسير . فإن القدماء فيما يروونه عن مقتله لا يذكرون أنه بكى وأعول ، أو أنه لجأ إلى التوسل والضراعة والابتهال أن يعفى عنه ، بل يتضح أنه قبل الحكم رابط الجأش ساخراً متحدياً . فلما جلدوه سوطاً بعد سوط ، وهو شيخ في السبعين ، لم يبالغ في الصراخ والنحيب ، ولا ألجأه ألمه إلى استعطاف أو استغفار ، بل اكتفى – فيما يرويه القدماء – بكلمة حَسّ ينفس بها عن ألمه الهائل ، وحتى هذه الكلمة لامه عليها معاصروه ، ويلومه عليها نقادنا ! واحتفظ في ذلك كله بفكاهته وتهكمه الحاد ، كما رأينا في رده على أولئك المتنطعين الذين طالبوه بأن يقول بسم الله والحمد لله .

والحقيقة التي يجب أن ندركها عن استشهاده ، هي أنه وإن لم يكن ضرورة واجبة ، فان من الخطأ أن نظن أنه ذهب هباء . فإن بشاراً بأصراره على حرية

فكره طول حياته ، وبتقبله الموت في سبيلها ، مهد الطريق لمن تلوه من المفكرين والأدباء الأحرار في تاريخ الإسلام . فقد كسب في حياته لحرية الفكر معارك كثيرة ، وعود الجمهور في سنيه السبعين على أن يسمعوا آراء لا تعجبهم ، وأرغم رجال الدين على أن ينصتوا لشكوك الشاكين فبدأوا يعيرونها اهتمامهم ونشأ بعد قليل العلم الذي يناقشها ويفندها بالجدل ولم يعودوا يكتفون بالسباب والاتهام وتحريض العامة ، وضرب مثلاً رفيعاً للأمانة الفكرية بأصراره على إعلان شكوكه حين عجز مخلصاً عن الاقتناع ، ورفض أن يلوذ بالتقية ، وضرب مثلاً نادر الوجود حين حملته أمانته الفكرية هذه على أن يخرج عن مدرسة الاعتزال حين لم تعد تكفيه ، مع أنه كان من كبار رجالها وعظام قادتها . بل كان في نظري [1] من روادها الأوائل ومؤسسي منهجها الفلسفي ، فخروجه على هذه المدرسة التي شارك في تأسيسها وخط نهجها لا بد أن اقتضى منه نزاعاً عاطفياً شديداً تغلبت فيه النزاهة الفكرية على الوشائج العاطفية ، وليس هذا بالأمر اليسير .

ولا شك أن معارضته القوية لاستبداد العرب كانت عاملا هاما في تقويض هذا الاستبداد، وأن دعوته للموالي أن يعتزوا بكرامتهم البشرية كانت ذات أثر قوي في إنهاضهم من ذلهم واستكانتهم وتشجيع ضعاف القلوب منهم ، حتى زالت تلك الوصمة من صفحة الدولة الاسلامية وتحققت المساواة الجنسية التي أقرها الاسلام من بدايته . ولا شك أيضاً أنه باعتداده بشعره وإصراره على مكانته الحقة في الأدب العربي برغم أصله الأعجمي ، قد اضطر علماء العرب ونقادهم إلى الالتفات إلى هذه الظاهرة الجديدة : أن الأدب العربي لم يعد وقفاً على العرب الأقحاح وأن الأعاجم قد يتقنونه إتقاناً لا يقل عن إتقان أهله ، ثم بلغ الأمر

---

(١) يوافقني زميلي الأستاذ عبد المجيد عابدين على هذا الحكم، ويضيف: « تأثر المعتزلة بعقيدة بشار في التجربة والعيان . وكان بشار يقول لا أعرف إلا ما عاينته أو عاينت مثله. وقد تلاه النظام – أستاذ الجاحظ – فقال : لا تشفيني إلا المعاينة . وكان لهذا أثر كبير جداً في اهتمام المعتزلة بالعلوم الطبيعية ، وخير شاهد على ذلك عناية الجاحظ بتأليف كتاب الحيوان » .

وإن تكن مدرسة الاعتزال قد آلت إلى الاندحار فقد تركت آثارها العظيمة في شتى فروع الثقافة الإسلامية .

أن صار عظام هذا الأدب من الموالي لا من العرب ، وصار حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم .

بشار هو الشهيد الأول في تاريخ الفكر الاسلامي . فليفكر القارىء في هذا الحكم ملياً ...

البيئة وشخصية الأديب

لم نرد بكل هذا التعداد لمحاسنه أن ننكر عيوبه أو نغطي عليها ، فعيوبه لا تزال ظاهرة ولا تزال كثيرة . وبعضها جوهري ، إنما كان هدفنا أن نستتم تعرف شخصيته في كل جوانبها حتّى نستطيع اتخاذها مثالاً على القضية التي نعرضها في كتابنا هذا ؛ وهي مبلغ تأثير البيئة في شخصية الأديب .

فهذا بشار ، ليس هناك أوضح منه في شرح الأهمية التي قد تكون لعوامل البيئة في تكوين الشخصية . وخير طريقة يفهم بها القارىء هذا الحكم ان يتصور وجوده في بيئة مختلفة .

لو وجد بشار في بيئة مختلفة لظلت فيه برغم ذلك عوامل ثلاثة طبيعية لا نستطيع إنكار أهميتها . هذه العوامل هي عماه، ودمامته، وحدته الشعورية والجنسية . فمهما تكن البيئة التي يعيش فيها فلا بد من ان يتعذب قدراً ما من العذاب بسبب حرمانه نعمة البصر ، وبسبب قبح منظره ، ولا بد ان تلجئه حدته الشعورية والجنسية إلى نشاط جنسي أعظم مما يكتفي به الرجل العادي .

ولكن تصور الآن أنه وجد في يومنا هذا في بيئة معاصرة مهذبة تتحاشى الإشارة إلى دمامته ، ولا تأخذ عليه عماه جريرة . وافرض أنه لم يكن في هذه البيئة أجنبياً غريباً ، بل كان أحد أفراد الجنس السائد . فماذا كانت حاله تكون ؟

ما أن يفكر القارىء في هذا الفرض حتّى تتضح له الحقيقة في شخصية

بشار . ففي مثل هذه البيئة لم يكن بشار ليتعذب كل ذلك العذاب الذي لقيه . لم يكن ليجد من الناس اضطهاداً أو إيذاء او احتقاراً . ونتيجة هذا أن تكون نفسيته أعظم هدوءاً ، ورضى ، وسعادة ، وان تحقق له عبقريته الشعرية ما كان يريد من التقدير والاحترام ومن المكانة المرموقة في المجتمع . فتزول معظم الأسباب التي جعلته شقياً ، ساخطاً ، ناقماً على مجتمعه ، شديد الايذاء له والانتقام منه ، ولا ينتهي إلى ما انتهى إليه من الكره للبشرية .

صحيح أنه في مثل هذه البيئة يظل بسبب شهوانيته خارجاً إلى حد عما يألفه المجتمع ، ولكن مثل هذه البيئة تغتفر لعظمائها — وخاصة رجال الفن والأدب منهم — هذا الأفراط الجنسي وتغمض عينها عنه ، فيكون نتيجة هذا أن هذه الحدة نفسها لا تزيد فتطغى إلى الحد الذي رأيناه في بشار . فقد وجدنا طغيانها فيه يرجع معظمه إلى محاولته التعويض عما لقيه من مجتمعه من الاحتقار والبغض والإيذاء ، محاولة دفعته إلى الاسراف عنادا ومكايدة وانتقاماً .

وصحيح أن عماه كان يسبب له حسرة دائمة ، ولكن كثيرين من العميان عاشوا برغم عاهتهم عيشة سعيدة وتمتعوا بمنزلة محترمة عالية في المجتمع ، وانتهوا إلى كبت حسرتهم تلك حتى لا تظهر إلا بين الفينة والفينة . والذي عذب بشارا أشد العذاب لم يكن عماه في حد ذاته ، بل ما جره عليه من الإهانة والإيذاء .

وصحيح أن دمامته كانت تسبب له كثيراً من المضايقة والألم ، ولكن ما أظنه كبيراً ، فما أكثر الرجال الناجحين السعداء ممن اشتهروا بالدمامة الفظيعة ، وخير دليل على هذا أن بشارا نفسه ، في نفس البيئة التي عاش فيها ، تحقق له برغم قبحه نصيب عظيم من النجاح ، إن لم يكن مع رجال مجتمعه فمع نسائهم . وهو لو عاش في عصرنا لاستطاع أن يتخذ نظارة سوداء تخفي أشنع جانب من دمامته . بل في عصره هو استطاع نفر من خاصة أصدقائه ومسامريه أن يتناسوا قبحه في ظرف حديثه وحسن منادمته .

وصحيح أنه كان يظل لاذع النكتة ، فيسبب لنفسه بهذا خصوماً كثيرين .

ولكن لن يزيد الأمر فيه عن كثيرين آخرين من العظماء ذوي الخصوم ، فخصومه هؤلاء ما كانوا ليلجأوا إلى الاضطهاد المسرف ،إذ هو واحد منهم فلا يضطهدونه لأجنبيته ، وكذلك لا يضطهدونه لعماه او دمامته فقد بلغوا من التفكير والمستوى الخلقي درجة تربأ بهم عن هذا . فحين لا يلقى منهم اضطهاداً يكون لهذا أثره في التخفيف من وخز ردوده ، فلا تصل ذلك الحد من الإيلام والتسمم ، فقد رأينا أنها إنما بلغته لفرط ما لاقاه من إساءة الناس . وبعد فهذا برنار دشو له في رواياته ومقدماته وفي مقالاته النقدية ونوادره الاجتماعية ردودا لا تقل لذعاً عن ردود بشار ، آلم بها رجال مجتمعه إيلاماً عظيماً ولكنهم اغتفروها له بل انتهوا إلى تقبلها منه راضين بها مدركين لاستحقاقهم إياها .

لو وجد بشار في مثل هذه البيئة إذن لزالت معظم العوامل التي نغصت عليه حياته ، فيزول بزوالها معظم نواحي الشر في شخصيته ، فقد اتضح الآن أن معظم هذه النواحي لم يكن فيه اصيلا بطبيعة التكوين بل كان مكتسباً من آثار البيئة . فحين تزول معظم نواحيه الشريرة ينفسح المجال أمام نواحيه الخيرة الأصيلة التي رأيناها فيه ، فيتاح لها ميدان عظيم للنمو والزيادة والغلبة .

وهنا أنبه القارىء إلى الأهمية الحقة لفضائله تلك . فأهميتها الحقة ليست أنها « وجدت » فيه ، بل أنها « بقيت » فيه إلى ذلك الحد الكبير الذي رأينا برغم كل ما قاسى ، فلنتصور الآن ماذا كانت تصير لو لقي حياة أسعد وتقديراً أعدل . إلام كانت تصل طيبة قلبه ، وبره بأهله ، ورقته وحنانه ، وكرمه وسخاؤه ، ووفاؤه للأصدقاء وإعزازه لصداقتهم ، وفكاهته وظرفه وحسن حديثه ، وماذا كانت تنمو فيه من محاسن أخرى كثيرة ...

أي رجل مختلف كان حينئذ يصير ! ولكن لا داعي إلى تخيل وجوده في بيئة حديثة ، بل كان يكفي في إصلاح معظم عيوبه لو تأخر به الزمن جيلاً واحداً أو جيلين على أكثر تقدير ، فعاش لا في الوقت الذي كان يضطهد فيه العرب الموالي ، بل في الوقت الذي انحدر فيه الجنس العربي وزال سلطانه على الأمبراطورية الإسلامية ، فتحققت المساواة بين الأجناس المختلفة التي عاشت

فيها ، مع نوع من الغلبة للجنس الفارسي ، وفي الوقت الذي كان فيه الناس أرحب صدراً بخلاعة أهل الخلاعة وتشكك ذوي الشكوك .

بشار أذن شخصية تكونت معظم خصائصها بتأثير عوامل البيئة لا بأرغام عوامل التكوين الطبيعي . فإن شاء القارىء أن يزداد لهذا تقديراً فليقارنه بشاعر صح عليه الحكم النقيض ، بابن الرومي .

فابن الرومي كانت معظم أسباب فشله ودواعي ألمه وشقائه من تكوينه الجسماني والنفساني ، لا من تأثير بيئته ، ولو تصورنا وجود ابن الرومي في مثل تلك البيئة المعاصرة المهذبة التي تخيلناها لبشار ، لوفر عليه هذا كثيرا من أسباب ألمه دون شك ، ولكن أكثرها كان يبقى : من اعتلال صحته وضعف بدنه منذ الولادة ، وكثرة اختلالاته العصبية والجنسية والغدية ، وشدة مخاوفه وإفراط طيرته ، وشذوذ تصرفاته وغرابة أطواره ، وكثرة عقده الباطنة وصراعاته النفسية .

كل هذه العوامل التي وجدت بالطبيعة في أبن الرومي تعذب صاحبها عذاباً حقيقياً مهما تكن بيئته ، وتبقيه مضطرباً شاذاً عن مجتمعه شديد الشذوذ طول حياته ، فإن عدت على ضوئها إلى بشار وجدت أن ما عذبه من عوامل التكوين الطبيعي كان هيناً بالمقارنة .

* * *

في سنة ١٩٤٠ كنت أعرف زوجين من جزر الهند الغربية يعيشان في كمبردج ، لهما غلام في التاسعة من عمره . وكان هذا الغلام آية في الذكاء وتوقد الفهم ، وكان ظريفاً خفيف الروح ، وكان أيضاً رشيقاً وسيم الوجه جذاب الملامح ، وكان الناس يعجبون بملاحته وظرفه وذكائه ، فخيل لي أن مستقبله قد تم تحديده ، وأنه صائر إلى النجاح والفوز بحب الناس وتقديرهم طول حياته .

وفي صيف سنة ١٩٥٠ قابلته صدفة بأحد أندية لندن ، فأقبل على هاشاً محيياً ، وذكرني به ، وتأملته فإذا به يحتفظ بسابق وسامته ، وجلست أتحدث إليه فإذا به على عهدي به حلو الكلام ألوفاً مصادقاً ، فقلت ها تنبؤي قد تحقق .

ثم دعوته إلى تناول الغداء معي فقبل شاكراً متهللا ، ولكن ما أن ذكرت له اسم المطعم الذي اخترته حتى بدا على وجهه تغير عجيب لم أفهم سببه ، وخيل إلي لحظة أنه سيرفض ، ولكن سرعان ما علت وجهه ابتسامته المعهودة ، وهب من كرسيه بعزيمة ونشاط ، وصحبني إلى المطعم المختار .

وكان عهدي بخدم ذلك المطعم مخلصين في الخدمة ، مسرعين إلى التلبية ، حريصين على راحة الزوار ورضاهم . فخالطني شيء من الحيرة حين وجدتهم في هذه المرة على غير عهدهم من التحية الهاشة والاحتفاء والتلبية العاجلة . ولكن قلت في نفسي : هم اليوم شديدو الانشغال ، والمكان زائد الازدحام ، ونسيت المسألة برمتها ، وأقبلت على ضيفي متحدثاً محيياً .

وفجأة أدركت أن الخادم قد تغيب إلى حد غير معقول ، فابتسمت لضيفي واعتذرت له ، وقلت أنه يبدو أننا اخترنا يوماً شديد الازدحام .

وما كدت أتم اعتذاري حتى دهشت أعظم الدهشة للتغيير التام الذي طرأ على وجهه ، فقد تلاشى ذلك الوجه السمح المتهلل ، وتلك البسمة الحلوة المتوددة ، وحل محلها وجه كالح مربد ، وابتسامة قاسية متهكمة ، فلما نطق كذبت أذني ، إذ سمعت ، بدل الصوت المرح السعيد الذي أعرفه ، صوتاً خشناً أجش شديد الفظاظة . قال لي بسخرية مؤلمة : أتظن أن السبب هو ازدحام المكان ؟ ما أطيب قلبك ! بل السبب أنهم يحتقروني للوني ، ويتعمدون التباطؤ وإساءة الخدمة حتى لا أزورهم مرة أخرى ، فهذا مطعم راق لا يرحبون فيه بالسود وإن كان القانون لا يسمح لهم بإغلاق أبوابهم دونهم .

ولما أجبت مستنكراً ، قاطعني بحدة قائلاً : إن أردت أن أقنعك فاسمح لي بأن أطلب من الخادم شيئاً ، وانظر كيف يجيبني . وكنت حتى ذلك الوقت أعطي الأوامر لأنني الداعي ، ولكني لم أجد بدا من إجابة رجائه .

فنادى خادماً واقفاً إلى المائدة المجاورة ، فتصنع الخادم أنه لا يسمع ، ولكن صديقي ألح حتى اضطر الخادم إلى الإقبال ، فجاء وعلى وجهه علائم من الكراهية

والغضب لم أستطع أن أخطئهما ، فبادر صديقي قائلا بسوء أدب شنيع : لست الموكل بمائدتك ، فانتظر حتى يحضر سفرجيك !

فالتفت إلي صديقي وقد انفرجت شفتاه بابتسامة شيطانية مرة وقال : أرأيت !

ثم أقبل علي يحدثني بتجاربه ، ويقص علي أخباره منذ فارقته من سنوات عشر ، وطال بنا الحديث فعدنا إلى نادينا لنتمه ، وما حل المساء حتى كنت قد عرفت القصة بكمالها .

فذلك الصبي الظريف الخفيف الروح ، المرح الباش ذو المودة والرغبة في مصادقة الناس جميعاً ، قد صار شاباً حاقداً عظيم المرارة ، قاسي القلب ساخراً ، لا يشغل فكره سوى تدبير المكايد التي يغيظ بها البيض ويوقع بهم الضر دون أن يقع تحت طائلة القانون . وينتظر بنفاد صبر ذلك اليوم الذي سيتم فيه تعليمه فيندمج في الحياة السياسية ، ولا حاجة بي إلى أن أذكر أنه لم يجد مذهباً يرضي تعطشه إلى الانتقام سوى الشيوعية .

واستنكرت ما صار إليه ، وصارحته باستنكاري ، وبدأت أحاول مناقشته بالحجج المقنعة ، ولكني سرعان ما أقلعت عن هذه المحاولة إذ تبدى لي من حرارته وانفجاره أنه غير مستعد للمناقشة والاقناع .

ورحت أفكر فيه وفيما قال ، فما استطعت أن ألومه . فهذا فتى يقبل على العالم متودداً باسماً يود أن يصادق الجميع ، فلا يلقى إلا الإعراض بعد الإعراض ، والإهانة تلي الإهانة ، ويمتد به العمر سنة بعد سنة ، وهو كلما أدبر عن صباه وتوغل في شبابه ازداد الناس عنه ازوراراً وله مقاطعةً ، فتفتر بالتدريج عزيمته في محاولة اكتساب الأصدقاء ، ويزداد خيبة أمل ، حتى يبلغ اليأس التام ، ثم ينقلب إلى ذلك الحاقد القاسي الذي رأيته ، والله وحده يعلم ماذا سيكون منه من الشر حين يستكمل رجولته ويستتم مقدرته على الإيذاء والانتقام ، وحين يعود إلى بلاده بعد انتهاء تعليمه فينخرط في حياتها السياسية .

هذا مع أنه قضى فترة مراهقته في انجلترا ، وهي بلاد قد يكره أهلها الأجانب جميعاً ويحتقرونهم ، ولكنهم في العادة يكتمون هذا الكره والاحتقار في صميم قلوبهم ، ويأخذون أنفسهم في معاملتهم بالأدب التقليدي ، فإن ظهر منهم شيء فهو في الغالب لا يزيد على قدر من الجفاء والعبوس ، أو هذا على الأقل هو تصرف متعلميهم وأهل الطبقة الوسطى منهم ، فإن عرض للاجنبي في بلادهم إهانة فهي لا تصدر إلا من رعاعهم وجهالهم ، فهو يستطيع أن يغض النظر عنها ويترفع بكبريائه عن الأهتمام بها .

فماذا كانت حالته تصير لو أنه عاش في بلاد كأمريكا أو جنوب أفريقيا ، يحتقر فيها السود احتقاراً صريحاً لاخفاء فيه ، ويؤذون إيذاءً فعلياً ، ويلقون اضطهاداً مدبراً مسموحاً به من طبقات الأمة كافة ، اضطهاداً يقرّه العرف ، ويغضي عنه القانون ، أو يحلله تحليلاً رسمياً ؟

إنْ تأمل القارىء في هذه القصة فسيدرك عاملاً واحداً من العوامل البيئية التي صاغت شخصية بشار .

القسم الثاني

الشاعر

الجانب الأول : ظلام

نقادنـــا وشعر بشار

لم يكن مناص من أن يمثل شعر بشار كلا الجانبين في شخصيته ، جانب الظلام وجانب النور . أما أولهما فيتجلى في جزء من غزله نجده مفحشاً . وأما ثانيهما فيتجلى في سائر غزله ، ونجد فيه قدراً عظيماً من الرقة والحنان .

وليس العجيب أن نجد كلا الجانبين في شعره ، بل العجيب ان نجد نقادنا يسمحون لنفورهم من شخصيته بأن يفسد تقديرهم الفني لشعره، حتى لم يروا فيه سوى ما يؤذي ويبغض ، فإن رأوا في بعضه إجادة فهي إجادة صناعية ليس إلا ، وهم في ذلك قد ارتكبوا الخطأ الأول الذي يجب أن يتحاشاه الناقد الفني ، وهو أن يدع رأيه الشخصي في أخلاق الأديب يؤثر في تقديره الفني لأدبه ، وأقوالهم في شعر بشار خير مثال أجده في نقدنا الحديث على ضرر هذا الخطأ ووجوب حذر الدارس من الوقوع فيه .

فالشرط الأول في النقد الفني هو أنه مهما يكن رأيك في الأديب كرجل ، وفي شخصيته كفرد إنساني ، ومهما يكن نفورك عنه وذمك لأخلاقه ، ومهما يكن امتعاضك من سلوكه في حياته واستر ذالك لتصرفاته ، فإنه ينبغي عليك حين تأتي إلى أدبه الذي أنتجه أن تبذل أقصى جهدك في تناسي رأيك وشعورك هذين ، والإقبال على أدبه بذهن مفتوح ونفس سمحة مستعدة لتقدير الجمال الحقيقي فيه إن وجدت فيه جمالا .

وسر هذا الشرط أن الفنان مهما يكن في شخصه مرذولاً مبغضاً فقد تكون في فنه الملهم قطع تسمو على نقائص شخصيته ورذائل حياته وتتلقى الألهام الجمالي من منابع الفن الصافية التي لم تكدرها مرارة ولم يفسدها ما تلوثت به حياته من أقذار الأرض ومصائب الدنيا وخصومات المجتمع ، صحيح أنه لا بد أن يكون في فنه جانب يرى تأثره بهذه التجارب ، ولكن قد يكون فيه أيضاً ذلك الجانب الذي وصفناه والذي يسمو على تجاربه الأرضية المحدودة ويتصل بالروح الجمالية الخالصة يهتز بها ويستمد منها وحيه الفني .

أضف إلى ذلك أنه مهما تكثر عيوبه وتتعدد رذائله فإننا لا نستطيع أن نصدق أنه كان وحشاً أو شيطاناً ، بل لا بد أن كانت به محاسن من نوع ما مهما تكن قليلة العدد أو ضعيفة الأثر في سيرته البشرية ، فهذه المحاسن ربما تنطلق في بعض فنه وتستكمل أقصى حريتها وينفسح لها المجال حراً لا قيود فيه فتتجلى على أتمها وأروعها .

فالناقد الذي يسمح ببغضه الشخصي أن يؤثر في تقديره الفني قد يغفل هذا الجمال في فنه إذ ينغلق أمامه قلبه فيفل من حدة حسه الفني ويسمم ذوقه الجمالي . وان كان العطف لازماً في فهم الشخصية فهو أعظم لزوماً في تذوق الفن .

ولقد تحقق هذا الشرط النقدي البدائي في كتاب « مع المتنبي » فوجدنا مؤلفه برغم كراهيته للشاعر الذي يدرسه واستثقاله لظله ونفوره من دعواه العريضة واحتقاره التام له كرجل ، ينسى هذه الخصومة الشخصية نسياناً تاماً حين يأتي إلى شعره فيقدر ما به من جمال خير تقدير ويوفيه حقه الكامل من الأعجاب والأستجابة العاطفية بل ينجح في أن يكتب عن المتنبي أصح تقدير فني نجده عنه في نقدنا الحديث .

ولكن ما استطاعه طه حسين حين درس المتنبي لم يستطعه حين درس بشارا ، ولم يستطعه ناقدانا الآخران العظيمان العقاد والمازني . فاستمع الآن إلى بعض ما يقوله ثلاثتهم عن فنه الشعري .

يقول طه حسين :

« كان شعره كله (لاحظ قوله كله) اغراء بالفجور وحثاً على الفسوق وإفساداً حتى لأشد النساء حرصاً على الشرف وأوفرهن حظاً من الإحصان ... وأحسب أن صوت نفس بشار ليس بالرخيم ولا بالرقيق ، كما أنه ليس بهذا الصوت الضخم الذي لا يخلو على ضخامته من حلاوة ولين ، وإنما هو صوت لاحظّ له من الحلاوة ، ولعله يخيفك أكثر مما يستهويك ، ولعله ينفرك أكثر مما يرغبك ، ومهما تكن لبشار الأشعار الجياد البارعة فأنا لا أحبه ولا أميل إليه . والغريب أن كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحببه إلينا ولا يعطفنا عليه ، فهو ثقيل حتى حين يضحك ، وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحكك ويرضيك ... »

خلطه بين الحكم الشخصي والحكم الفني واضح في هذه السطور وضوحاً لا يحتاج إلى تنبيه ، وستجد هذا الخلط في سائر أحكامه وأحكام زميليه . فهو يقول أيضاً :

« أخبار بشار تمثله منافقاً في سيرته يداري الناس ويتقيهم ليعيش ثم ينذرهم ويخيفهم لينعم بعيشه ثم يسخر منهم متى أُتيح له ذلك . وإذن فهو أقل الناس حظاً من صدق اللهجة والعاطفة ، وإذا قرأت شعر بشار فلا ينبغي أن تبحث فيه عن شعوره وعواطفه ولا عما يحس او يؤمل بينه وبين نفسه وإنما ينبغي أن تبحث فيه عما يريد أن يظهره أو عما يريد أن يتكلف للناس من العواطف والشعور والميل . ليس شعره شفافاً كشعر أبي نواس والحسين بن الضحاك ومطيع وحماد عجرد ، وإنما هو شعر كثيف صفيق لا يدل من نفس صاحبه على شيء ، وهو كاذب أبداً لا يحفل بالكذب ... »

رأيت كيف يحكم على شعره بحياته . يقول : كان في سيرته منافقاً كاذباً . إذن كان في شعره منافقاً كاذباً كذلك ! بل يدعوك إلى ألا تحاول أن تجد في شعره عاطفة صادقة أو لهجة صادقة ، فيدلنا بهذا على أنه هو لم يحاول ، وجوابنا هو : لا غرابة إذن ان لم يعثر في شعره على صدق شعور أو عاطفة ، فالذي يقبل

على شعر شاعر بهذا اليقين السابق أنه لن يجد فيه خيراً فهو بالطبع لن يجد فيه خيراً .

ويقول أيضاً :

« هو إذن (لاحظ إذن هذه) ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق حين يمدح ولا حين يتغزل ولا حين يرثي » . ثم يعترف له بالصدق في موضوعين اثنين لا غير ، في الهجاء ، وفي شكوى سوء مكانه من الناس وحرمانهم إياه وبخلهم عليه بما كان ينتظر ، ثم يقول عن غزله :

« بين يدي غزل لبشار ليس بالكثير ولكنه ليس بالقليل أيضاً وهو سواء كان قليلاً أم كثيراً لا يمثل عاطفة ولا شعوراً صادقاً . وإنما يمثل أمرين اثنين ، يمثل تهالكاً على اللذة وإفحاشاً في هذا التهالك وافتناناً فيه أيضاً دون أن يراقب الشاعر في ذلك خلقاً أو أدباً أو ديناً ويكفي أن تعلم (لاحظ قوله يكفي أن تعلم) أن علماء البصرة من أهل الدين والوعظ والكلام ومن بينهم واصل بن عطاء والحسن البصري ومالك بن دينار جميعاً قد هتفوا به وشكوه بعد أن وعظوه ونصحوا له ، ويمثل رغبة في الفساد وإذاعة السوء » . ثم يتبع ذلك بالاستشهاد برائيته المفحشة ، ولكنه لا يتدبر سائر غزله . ثم يقول :

« هل أحب بشار حباً صادقاً ؟ هذا سؤال أحاول أن ألتمس الجواب عليه في شعر بشار فلا أجد إلى ذلك سبيلا ، فقد قلت لك أن شعره كثيف صفيق لا يدل على عاطفة ،وأن الكذب فيه كثير والتكلف فيه لا حد له،أريد تكلف المعاني .» ثم يستشهد بشعره في عبدة ، وهو شعر لا شك أن معظمه متكلف ، ولكنه ليس كل غزل بشار ، ثم يأتي بأعظم الأمثلة تدليلاً لنا على إفساد حكمه الشخصي لذوقه الفني ، وذلك حين يعرض لقصيدة بشار الرائعة : « أيها الساقيان صبا شرابي » وسأنقل للقارىء كلامه عنها كاملاً : يقول :

« وله أبيات زعموا أن الوليد بن يزيد بكى لها وهي لا تخلو من جودة ، وأنا أرويها لأن قصتها لا تخلو من عجب .

أيها الساقيـــان صبـــا شرابي واسقياني مـــن ريق بيضاء رود
ان دائي الظمـــا وان دوائي شربـــة مـــن رضاب ثغر برود
ولهـــا مضحك كثغر الأقاحي وحديث كـــالوشي وشي البرود
نزلت في السواد مـــن حبة القلـ ـب ونـــالت زيـــادة المستزيد
ثم قالت نلقـــاك بعد ليـــال والليـــالي يُبلين كل جديـــد
عندهـــا الصبر عن لقائي وعندي زفرات يأكلن قلب الحديـــد

« قالوا فطرب الوليد وقال من لي بمزاج كأسي هذه من ريق سلمى فيروى ظمأي وتطفأ غلتي ، ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه وقال : ان فاتنا ذاك فهذا .

« وفي هذا الشعر متانة وجودة ورقة ولكني لا أحب أوله وربما استسخفته ، ولست أدري كيف يستطيع الساقيان أن يسقيا بشاراً من ريق صاحبته ؟.. وأحسب أن هذه ليست صناعة السقاة . وإذا كانت هذه القصة صحيحة ، فهي إنما تمثل قة هذا الشاعر الذي أحبه وأعطف عليه وهو الوليد بن يزيد الذي فاته ريق سلمى رفمزج كأسه بالدمع يسفحه البكاء عليها .»

والطريف في هذه السطور أن هذه الأبيات من أروع الشعر العربي وأرقه للنفس وأعنفه تأثيرا في القلب ، يأتي إليها ناقد لا شك في إرهاف حسه الفني وسلامة ذوقه الجمالي وشدة تأثره بالشعر الصادق الجمال ، ولكنه لا يحب قائلها ولا يعطف عليه ، ولا يريد أن يرى في شعره جمالاً ، ولكن ذوقه الفني الصافي يعصيه ويتمرد عليه ويحاول خلسة أن يتأثر بهذه الأبيات الفائقة ويطرب لها ، ولكنه يشتد عليه ويقهره ويرغمه على النفور منها واستسخافها ، وهذه المعركة الطريفة واضحة في السطور الماضية ان تأملت فيها بضع دقائق ، فانك تجده يعترف مرغماً مكرهاً بأنها « لا تخلو من جودة » وبأن فيها « متانة وجودة ورقة »، ثم يكاد يقول بصريح العبارة : ولكني لا أحب قائلها ولا أعطف عليه، إذن فلا ينبغي أن أتأثر بها وأطرب لها ، فلأفتشن إذن عن شيء قبيح فيها ، فيجد هذا الشيء في بيتيها الأولين ، فيهاجمهما مهاجمة ليس أبعد منها عن النقـد الفني الصحيح ،

والذي يسخف حديث بشار إلى الساقيين بهذه الطريقة يستطيع أن يسخف معظم ما يستعمله الشعراء من الأقوال المجازية والأخيلة الشعرية ، وليس يحكم على أمنيته العاطفية باستحالتها المادية ، وإلا فماذا كان يقول طه حسين لو قرأ بيتاً لشاعر انجليزي شديد الشبه ببيت بشار هذا ويفوقه استحالة تحقيق ، يقول فيه الشاعر لمحبوبته : اشربي نخبي بعينيك ! ثم تواجهه مشكلة ، وهي أن الوليد بن يزيد طرب لهذه الأبيات وبكى لها . وهو من هو سليقةً شعرية وبصيرةً فنية، فيتخلص منها بأن يقول : هذا يدل على رقة الوليد — فأنا أحبه وأعطف عليه — لا على رقة بشار !

وأخيراً يأتي طه حسين إلى قصيدتين لبشار يستطيع أن يستجيدهما استجادة تامة وأن يسلم بصدق عاطفته فيهما ، ولكن ما هما ؟ هما الميمية :

أبــا جعفر ما طول عيش بدائم ولا ســالم عمــا قليل بسالم

والبائية التي يقول فيها :

إذا الملك الجبــار صعر خــده مشينــا إليــه بالسيوف نعاتبه

وتخصيصه هاتين القصيدتين بالاعجاب الخالص هو من أعاجيب نقدنــا الحديث ، فليس فيهما شيء إلا متانة الصياغة وطنطنة اللفظ ، وهذا عنصر من عناصر اللذة الفنية لا شك ، لكنه من أهونها وأصغرها قيمة وأشدها سطحية ، ونحن نسامح مشايخنا ذوي الأذواق البدائية والنظرات السطحية حين لا يروعهم في شعر بشار سوى هاتين القصيدتين وأمثالهما من شعره ذي الفخامة اللفظية ، فهذا وحده هو نوع الجمال الذي يستطيعون تقديره في شعر بشار أو شعر المتنبي أوسائر الشعر العربي . ولكن تأمل أعظم نقادنا المحدثين ، وأعمقهم ذوقاً وأصفاهم سليقة يرغمه بغضه لبشار على الانصراف عن شعره الصادق الجمال حتى يشارك مشايخنا في تخصيصهم شعره الطنان بالاعجاب ! وما فعله طه حسين هو ما فعله العقاد والمازني أيضاً ، لم يريا في شعره سوى رصانة اللفظ ، وجودة الصياغة ، فالعقاد يقول :

« أما شعره فرصين صحيح في الأكثر الأعم مما وصل إلينا منه ، وهو يقسمه

قسمين بدوي تغلب فيه الجزالة والجفوة وحضري تغلب فيه الرقة والنعومة ... وروح شعره هو الروح الذي يعرف به أمثاله من ذوي الطبيعة الحيوية والمزاج الدنيوي الذي يتخيل الأشياء كما يحسها في عالم الواقع القريب ويراها كما تبدو في صور المعيشة المعهودة وحقائق البيت والسوق ، فلا إلهام في شعره ولا حنين ولا أشواق ولا بدوات ولا خيال ، ولكنها تجربة الدنيا تملي عليه ما ينظم من الحكمة والوصف والغزل والهجاء فلا يمتاز فيها عن سواد الناس بغير اللسان اللبق والقدرة على النظم والتعبير ... ولا ينتظر القارىء أن يسمع من غزل بشار تلك النغمة الساحرة التي ترتفع بالنفس إلى عالم الأحلام والأشواق وتسبح بها في فراديس الأفراح والأشجان ، ولا يرج أن يطالع منه وصفا للحب كأوصاف أولئك الشعراء الكماليين الذين يجعلون المرأة المحبوبة أقنوماً ماثلا للعيون يجمعون فيه كل ما خامر نفوسهم من المعاني الخفية والآمال الممنوعة والمحاسن التي لا أسماء لها في لغة اللسان والمواجد العطشى إلى غير مورد . فكل أولئك غريب عن طبعه بعيد عن مشربه كما قلنا في الفصل السابق . وإنما كان غزل بشار وصفا للذات الحس التي يباشرها أو يشتاق إليها ، وكان حبه حبا «للنساء» لا حبا «للمرأة» أو كان حباً للأنثى التي يراها واحـــدة في كل امرأة على اختلاف الصفات وتعدد الأسماء ، فليس يحتاج الشاعر إلا لأن يكون «حيوانا» ذكياً لينظم مثل ذلك الغزل ويجيد فيه أحسن الإجادة ... فهو يفهم « الأنثى الجسد » ذلك الفهم الخليق بطبيعته الحيوانية ولذاته الحسية ولكنك لا تقرأ له بيتاً واحداً (بيتا واحدا !) يسمو به إلى إدراك « النفس» الأنثوية وما فيها من حلاوة صافية ورحمة سماوية وكنوز عطف تغذي بها وجدان الرجل وترضعه بها روح الحياة طفلا كبيرا كما أرضعته من قبل وهو طفل صغير .»

وهذا المازني الذي بذل جهداً يشكر عليه في إنصاف شخصيته نوعا ما من الإنصاف ، يأتي إلى شعره فلا يرى فيه إلا ما رأى زميلاه ، بل يكرر أحكامهما بنفس لفظهما أحياناً ، فيدلنا على أنه إن كان حاول أن يقبل على شخصية بشار بذهن مفتوح ، فهو لم يفعل هذا حين أقبل على شعره ولم يحاول أن يدرسه دراسة جديدة بل رأى فيه نفس الفكرة السابقة واكتفى بترديدها :

« فما كانت المرأة عند بشار إلا أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها ، وأداة يرضي بها غريزته ، وندر أن يرتقي إحساسه بها إلى المعاني النفسية ... وكل غزله حسي واقعي لا يرتقي فيه عن هذه المرتبة ولا يجاوز وصف المحاسن الملموسة أو ما يتخيله وراء اللمس أو السمع مما فاته بذهاب بصره ، ولكنه لا يرتفع إلا في النادر – وعلى سبيل التقليد والمحاكاة – عن نطاق الحس...ولم يكن معنياً بالصدق في الأعراب عن عاطفته،وإنما كان معنيا بسيرورة الشعر وشهرته...وليس لبشار في في غزله صدق يعرف من كذب ، فقد كان الشعر عنده صناعة وكان همهأن يقوله في أغراضه وأن يقال أحسن وأجاد ، لا أن يكون صادق السريرة فيه ... فلم تكن مزية بشار سمو المعنى ، وقوة الخيال ، أو صدق العاطفة ، أو إخلاص السريرة ، أو نفاذ البصيرة ، وإنما كانت قدرته على الأداء الجيد الموافق للمعنى الذي يعالجه والغرض الذي يقول فيه ».

فما نصيب هذه الأحكام من الصحة ؟

إن كان نقادنا الثلاثة قد شطوا في مهاجمة بشار فيجب أن نحذر من أن نشط في الدفاع عنه . فهناك حقيقتان لا بد أن نسلم بهما . أولاهما أنه لا شك كانعلى قدر عظيم من الشهوانية والشبق ، وثانيهما أن جزءاً من شعره لا شك داعر في ذاته ويحرض على الدعارة معاصريه .

ولكن هذا كل ما نسلم به – أما أن يصلوا بشهوانيته إلى حد «الحيوانية» فإسراف (١) وأما أن يصفوا جميع شعره بما لا يصح إلا على جزء منه فتجوزٌ لا يُعذرون فيه .

---

(١) من أشد التجني الذي يرتكبونه في هذا الشأن أنهم يستشهدون على « حيوانيته » بقوله : « طعام مز ، وشراب مر ، وبنت عشرين بكر » في جواب من سأله : أي متاع الدنيا آثر عندك ؟ مغفلين أن هذا كان جواباً على سؤال محدد ، وأن « متاع الدنيا » المقصود هو متعها الحسية ، ومصورين أنه فضل تلك الثلاثة على فن الشعر الذي علت فيه منزلته ، وفن الغناء والموسيقى الذي أولع به ، وفن المحادثة الذي أحبه وبرع فيه ، وعلى العلوم النقلية والعقلية الكثيرة التي تبحر فيها ، وكان في بعضها من الأساطين المقدمين ، والتي لا بد أن تحصيلها شغل جانباً كبيراً من وقته ومجهوده . =

فبشار لم يكن في شبقه وحشاً هائجاً بشعاً ، لا ولم يكن في نظرته إلى المرأة وفيما يتطلبه منها محبوساً على ناحيتها الجسمانية المحضة ، بل قد استطاع أن يرى في المرأة جمالاً آخر يعلو على الجمال الجسمي وإن كان يبدأ منه ، وأن يستمتع منها بالمتعة الرقيقة المهذبة التي لا إفحاش فيها ولا غلاظة . وشعره الداعر الحاض على الفجور ليس كل شعره ، ولا هو معظم شعره ، بل هو لا يتجاوز قصيدة واحدة وعدداً من الأبيات المتفرقة لا يزيد على العشرين ، أما سائر غزله فعذب النغمة سلس ذو حلاوة صافية وحنان بالغ الرقة .

والذي صرف نقادنا عن إدراك هذه الحقائق هو أنهم أقبلوا على شعره بفكرة سابقة تم تحديدها من فهمهم لشخصيته وحكمهم على سيرته ، فلم يروا في شعره ، ذلك الجزء الذي بدا مؤيدا لفكرتهم السابقة المحددة ، فاختفى عنهم سائر شعره وراء الظل الأسود الغليظ الذي ألقاه عليه شعره المفحش .

وسنبدأ في إثبات رأينا بعد قليل ، ولكننا لن نتغافل عن شعره المفحش بحجة أن الآخرين قد وفوه دراسة وأشبعوه نقداً ، بل سنبدأ مناقشتنا بالتأمل فيه ، تأملا لا يحاول التهوين من شناعته .

هذا الشعر يشمل . كما قلنا ، أبياتا متناثرة من مثل قوله :

قاس الأمور تنل بها نجحا	والليل ان وراءه صبحا
لا يؤيسنّك من مخبأة	قول تغلّظه وان جرحا
عسر النساء إلى مياسرة	والصعب يمكن بعد ما جمحا [1]

= عقدت معي صحيفة طلبة الجامعة « مقابلة صحفية » سألتني فيها عن آرائي وأعمالي في الأدب والنقد والإصلاح الديني . ثم تطرقت إلى أسئلة عن أسرتي وكيف أقضي أوقات فراغي . ثم سألتني ما أحب المطاعم إلي؟فقلت : أحب الكباب والملوخية بالأرانب فوق كل شيء. فكان من العناوين الكبيرة التي نشرت تحتها المقابلة : « النويهي يحب الكباب والملوخية فوق كل شيء ! » بعلامة التعجب هذه .

فهل كان يجوز لخصم أن ينتزع تلك الجملة من سياقها ، وأن يدلل بها على أن متعة الطعام أكبر متعة عندي ، مهملا ما في المقابله نفسها من آراء وحقائق أخرى أدليت بها ؟

(١) القصيدة التي تبدأ بهذه الأبيات الثلاثة في الديوان ٢/٩٧ .

وقوله :

قالوا حرام تلاقينــا فقلت لهـــم ما في التلاقي ولا في قبلة حرج
من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبـــات الفاتك اللهـِج

وتأثير أمثال هذه الأبيات في إغراء فتيان عصره وفتياته كان شديداً ، وخبثها الحقيقي أنها على نصيب عظيم من الصحة ، كما تشهد تجارب الحياة إلى يومنا هذا ، نضطر إلى تقرير هذا كارهين. لا ندّعي أن كل مخبأة تنتهي إلى المياسرة كما ادعى بشار ، ولا أن الفاتك اللهج يفوز بغرضه في كل حالة ، ولكن يؤسفنا أن نعترف بأن ما يدعيه ينطبق على حالات كثيرة جداً ، لا يغفل عن كثرتها إلا من يريد أن يغشي على عينيه ويصم أذنيه عن وقائع الحياة الكريهة .

إلا أن هذه الأبيات الواضحة المعنى السافرة الدعوة ليست شيئاً إذا قورنت برائيته : « قد لامني في خليلتي عمر ». ولكن الذي يدرس هذه الرائية دراسة متأنية سيستكشف منها حقيقة هامة : أن بشاراً لم يلجأ إلى نظم مثل هذا الشعر لمجرد شهوانية منه أو دعارة ، بل بدافع الانتقام. فهو قد وجد فيه متنفساً عظيماً لما ابتعثه معاصروه في نفسه من الحقد ينتقم من رجالهم باستباحة نسائهم ، وينتقم من شيوخهم بإفساد شبابهم .

فإن أردت أن تتبين مدى سخطه وحقده فادرس رائيته هذه ، ولو أنني سئلت أن أختار أشد الشعر العربي تشبعا بروح الانتقام لما اخترت لامية تأبط شرا أو رائية الأخطل أو سواها من القصائد التي تتهدد أعداء الشاعر أو أعداء القبيلة أو تتشفى فيهم ، بل لاخترت هذه الرائية . ولو أنني سئلت عن أعنف الشعر العربي سخطا على الناس وكراهية للبشر لما اخترت قول المتنبي :

ومـــن عرف الأيـــام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحـــم

أو ما يشاكل هذا من الشعر ، بل لاخترت رائية بشار . فشعر الجاهليين أو شعر المتنبي لا يزيد إذا قورنبها عن أن يكون غضب صبيان ورعونة أطفال . ولو

أنني سئلت عن أوغل الشعر العربي إفحاشا لذكرتها ولم أعمد إلى النقائض أو أمثالها من المهاجيات التي تصرح بأسماء الأعضاء المستورة أو تصف الإتصال الجنسي وصفا مكشوفا ، فهذه القصائد لا تزيد على بذاءة الرعاع في الشارع والسوق، بذاءة قد تؤذي الأذن ولكن لا يتغلغل ايذاؤها إلى أعمق من مركز السمع .

وهذه هي الرائية [1] ، فليتأملها القارىء :

١ ــ قــد لامني في خليلتي عمــرُ واللــوم في غير كُنْهِــه ضَجَر
٢ ــ قال : أفقْ ، قلت : لا ، فقال : بلى قد شــاع في النــاس عنكما الخبر
٣ ــ قلت : وإذ شاع ، ما اعتذاري مما ليس لي فيــه عندهــم عُذُر ؟
٤ ــ لا أكتم النــاس حب قــاتلتي لا لا ، ولا أكره الذي ذكروا
٥ ــ لُوما ، فلا لوم بعدهــا أبدا ؟ صاحبُكم ، والجليــل ، محتضَر
٦ ــ قم قم إليهــم فقل لهم قد أبى وقــال لا ، لا أفيق ، فــانتحروا
٧ ــ ماذا عسى أن يقول قــائلهــم وذا هوىً ســاق حَيْنَه القدر
٨ ــ يا قوم مــالي ومــالهــم أبــدا ينظر في عيب غيــره البَطِر
٩ ــ ماذا عليهم ، ومالهم ــخرسوا ! ــ لــو أنهــم في عيوبهم نظروا
١٠ ــ أعشق وحدي ، ويؤخذون به كــالترك تغزو ، فتؤخذ الخزر !
١١ ــ يــا عجبا للخلاف يــا عجبا بفي الذي لام في الهــوى الحجر
١٢ ــ مــا لام في ذي مودة أحــد يؤمن بالله ــ قــم ، فقد كفروا
١٣ ــ حسبي ، وحسب التي كلفت بها مني ومنهــا ، الحديث والنظر
١٤ ــ أو قبلــة في خلال ذاك ، ولا بــأس إذا لم تُحَلَّ لي الأُزُر
١٥ ــ أو عضــة في ذراعهــا ، ولها فوق ذراعي مــن عضها أثر
١٦ ــ أو لمســة دون مِرْطهــا بيدي والباب قد حــال دونــه السُتُر
١٧ ــ والســاق برّاقة مُخَلْخَلُها أو مصُّ ريق ، وقــد علا البُهُر

(١) الديوان ٣/١٦٩ . وفي الاغاني منها ٢٣ بيتا. وقد فضلنا رواية الأغاني في بعض المواضع ورواية الديوان في مواضع أخرى .

١٨ ــ واسترخت الكفّ للعِراك ، وقا لت : إيه ـِ عني ! والدمع منحدر
١٩ ــ انهض فما أنت كالذي زعموا أنت وربّي مغـــازلٌ أشِر
٢٠ ــ قد غابت اليوم عنك حاضنتي فــالله لي منك فيك ينتصر
٢١ ــ يا ربخذلي، فقدترى ضُعُفي مـــن فاسق الكف ، ماله شُكُر
٢٢ ــ أهوى الى معضدي فرضّضـــه ذو قوة ، مـــا يطـــاق ، مقتدر
٢٣ ــ ألصق بي لحيـــة لـــه خشُنت ذاتَ سواد ، كـــأنّهـــا الإبر
٢٤ ــ حتى علاني وإخـــوتي غيَبٌ ويلي عليهـــم لو أنهم حضروا !
٢٥ ــ أقسم بـــالله لا نجوتَ بهـــا ! اذهب ! فأنت المُساوِر الظَّفِر
٢٦ ــ كيف بأمّي إذا رأت شفتي ؟ أم كيف إن شاع منك ذا الخبر ؟
٢٧ ــ أم كيف ـ لا كيف ! ـ لي بحاضنتي يـــا حُبُّ لو كان ينفع الحذر
٢٨ ــ قد كنت أخشى الذي ابتليتُ به منكَ ، فمـــاذا أقول ، يا عُبُر !
٢٩ ــ قلت لها عند ذاك : يا سَكَني لا بأس ، إنّي مجرب خَبِر
٣٠ ــ قولي لهم : بقّةٌ لها ظُفُرٌ ! (إنْ كان في البقِّ ما له ظفر !)

* * *

بعض قرائها يتعجبون من تلك الأحكام التي أصدرناها عليها ، تارة نصفها بأنها أقسى قصيدة في الشعر العربي ، وطورا نصفها بأنها أفحش قصيدة ، وهم لا يرون فيها قسوة ولا فحشا يستطيعون أن يضعوا عليهما أيديهم . لكن هذا هو خبث هذه القصيدة : أن قسوتها وفحشها ليسا ظاهرين مكشوفين كحديث الصبيان أو رفث الرعاع ، بل هما كامنان كمون السم الزعاف في الحلوى المسمومة أو الحية الزاهية الألوان . فقد أخذ بشار حذره وتخير لفظه ، حتى لو أن قاضيا أراد أن يحاكمه عليها لما وجد إلى إدانته سبيلا .

على أن إدانتنا الأخلاقية لها ، وما سننتهي إليه من رفضها رفضاً فنياً ، يجب ألا يصرفانا عن الإنتباه الى ما فيها من إجادة فائقة . وأعتقد أن القارىء قد تبدى له من القراءة الأولى أن بشاراً يتعمد الأسلوب العامي فيها ، وسنرى دقائق نجاحه في

حكاية أسلوب الحديث اليومي ، وجعل أبياته تنبض بنبض الحياة الواقعة المهتز المتموج المضطرب .

تتألف هذه الرائية من أقسام أربعة . فقسمها الأول بمثابة تمهيد للقصة وإعداد للجو ، وهو أبياتها الإثنا عشر الأولى . وقسمها الثاني يصور الخطوات التدريجية الماهرة التي اتخذها لإغراء الفتاة ، وهو الأبيات الستة التالية . وقسمها الثالث يبدأ في الشطر الثاني من البيت الثامن عشر ويشغل باقي القصيدة ، ما عدا البيتين الأخيرين منها ، وهذا القسم الثالث عن حزن الفتاة وجزعها لما أصابها . أما بيتاها الأخيران فيعطيان رد بشار عليها .

أما قسمها الأول فحوار يدّعي بشار حدوثه بينه وبين صديق له، يعاتبه هذا الصديق على إسرافه في لهوه ومباذله ، ويذكّره بتأفف الناس من سلوكه وسخطهم على حياته الداعرة ، فيتصنع بشار الغضب ويقول : ما لهم ومالي ! لم لا يتركونني في شأني وينصرفون إلى شأنهم وينظرون في عيوبهم فيصلحوها قبل أن يؤاخذوني على عيوبي ؟

قلنا إن بشارا «يتصنع الغضب». وهذا بالضبط هو المفتاح الذي يمكنك من الوصول الى العاطفة الحقيقية للرائية. فبشار حين نظمها لم يكن غاضبا ولا حزينا، بل كان فرحا عظيم الجذل، إذ قد استطاع أن يغرر بفتاة عفيفة . وهو ليس مسرورا بما ناله من لذة جسمية فحسب ، بل هو يفرح فرحاً خبيثا إذ أُتيح له الانتقام من الناس باغتصاب فتاة من نسائهم العفيفات . فالغضب الذي يظهره بشار هو غضب متصنع . حاول إذن أن تتصور هذا الموقف الشعوري المعقد ، فليس الأدب بالبساطة التي يظنها الكثيرون . ليس مجرد شاعر فرح يصف فرحه، أو شاعر حزين يصور حزنه ، بل تخيل الآن رجلا هو في صميمه فرح قوي المرح والاغتباط ، ولكنه لسبب ما يتصنع الحزن ، أو يتصنع الغضب والحنق . وتخيل صوته المتهدج المضطرب بين العاطفتين ، الحقيقية والمدعاة . كطالب يرسب زميل له في الامتحان ، وهو يكره هذا الزميل لسبب ما ، فهو في حقيقته فرح شامت به ، ولكنه يتصنع الأسف والحسرة لما أصابه . أو كأب يصيح بطفله الصغير

متصنعا الغضب ، لأن طفله هذا صب دواة الحبر على ضيف له يستثقله ، ولكن الأب في حقيقته يود لو ينفجر ضحكاً وجذلاً ، لأن منظر الضيف مضحك جداً ، ولأنه في صميمه معجب بهذا «الفصل» من طفله الصغير ، مغتبط مما أصاب الضيف الثقيل من تلوث وجزع . فتذكر كيف يتقطع صوته اذ يتنازعه الانفعالان ، وكيف تتشنج أسارير وجهه بين الجذل المكظوم والسخط المتكلف ، وكيف تبرق عيناه بريقا عجيبا هو مزيج من الانفعالين [1] . ثم اقرأ الأبيات الإثني عشر الأولى وحاول أن تستمع فيها إلى هذا الصوت المتهدج .

ثم انتبه في قراءتك لهذه الأبيات الى الوزن الذي اختاره بشار لها ، اختار لها بحر المنسرح ، وهو بحر شديد التقطع والاضطراب [2] ، وهو بهذا يلائم ما يريد بشار أن يمزجه من انفعالين متناقضين ، ويلائم شيئاً آخر نريد أن ننتبه اليه الآن جيدا : هو الخلاعة المسرفة التي يريد أن يعبر عنها . قد قلنا من قبل إن هذه القصيدة بارعة في حكايتها لأسلوب الحديث اليومي ، والتقاطها لنبراته المتموجة ، لكن نضيف الآن أنه حديث من نوع خاص ، ونبرة خاصة . وما في وزن المنسرح من تقطع وتدافع في المقاطع بين طول وقصر ، وتمهل ثم قفز ، وتحرك بطيء ثم تحرك متلاحق مهتز ، يطوعه بشار في هذه القصيدة ليمثله اذ يتخلع ويهتز اهتزازا متخنثا يقلد فيه امرأة وقحة تتكلف الحياء . وهذا لا يتضح لنا الا إذا قرأنا الابيات ببطء شديد ثم بقفز مفاجىء ، وفصلنا بين مقاطعها مقطعاً مقطعا ، واهتززنا نحن أيضا في انتقالنا بين المقاطع .

لكنه لم يكتف بالوزن ، بل أنظر الآن في مهارته الباهرة في تقطيع عباراته وألفاظه تقطيعا يحكي تخلعه وتثنيه حكاية تامة ، وفي تراوحه من بيت الى بيت ،

---

(١) أستطيع أن اصرح الآن ، وقد توفي والدي والضيف المذكور كلاهما — عليهما رحمة الله — أن هذه تجربة حدثت لي في طفولتي .

(٢) سنزيد هذه الحقيقة شرحا وتحليلا حين نأتي إلى آخر قصيدة ندرسها لبشار في فصل « وداع الغزل ، ووداع الحياة » .

ومن شطر الى شطر ، بين الألفاظ الطويلة البطيئة التتابع ، والألفاظ القصيرة السريعة التتابع [1] :

قـــد لامني في خليلتي عمر   واللوم في غير كنهـــه ضجر !

لسنا ندري هل كان اسم صديقه «عمر» ، حقا ، وهناك رواية قديمة أنه كان عمر بن سعيد . لكن هذه الرواية ترد في الأغاني في ترجمة مطيع بن إياس ، حيث ينسب اليه صاحب الأغاني ستة أبيات مختلفة من هذه القصيدة ، وهي نسبة مؤكدة الخطأ . لكن الذي نلاحظه على أي حال هو ملاءمة هذا الاسم لما يحاكيه بشار من تخلع وتخنث . وفي لهجتنا المصرية تستعمل النساء «البلدي» ، أو الرجال الذين يتكلفون التخنث ، هذا التعبير « يا عمر ! » . واستمع الآن الى ما في الشطر الثاني من تلاحق وتموج : يبلغ نهايته في هذه الكلمة البارعة «ضجر» يعني بها : مسبب للضجر ، مستعملا المصدر «ضجر» بدل اسم الفاعل «مضجر» . كما نقول : دا قرف ! ، بدلا من : دا مقرف ! ومن الطريف أن الانجليز يستعملون كلمتهم التي تعني الضجر نفس الاستعمال ، فيقولون : أنت ضجر ! [2] ، او : لا تكن ضجرا ! [3] .

فالشطر الثاني يحمل النبرة التي في مثل قولنا : يوه يا أخي : ! ما بلاش عكننه بقه ! وهذا يبدأ في لفت نظرنا الى أن غضب بشار ليس جاداً . لكن هذا سيزداد اتضاحاً في البيت الثاني :

قال : أفق ! قلت : لا ! فقال : بلى !
قـــد شـــاع في الناس عنكما الخبر !

أنعم النظر في أسلوبه ، وانظر كيف تكوّن شطره الأول من ست كلمات

---

(١) شرحنا أثر الكلمات الطويلة وأثر الكلمات القصيرة في الفصل الأول من كتابنا « الشعر الجاهلي : منهج في دراسته وتقويمه » ، ص ٥٧ — ٦٠ .

(٢) You are a bother !

(٣) Dont be a bother !

قصيرة يجب أن نقف برهة بعد النطق بكل منها . يأتي بالمعنى المألوف لدى الشعراء من صديق يلوم صديقه العاشق ويقول له أفق ، وصاحبه يرفض الاستماع لملامته . لكنه يأتي به بأسلوبه الخاص الشديد التخلع . « قال : أفق ! » ، وهو لا ينطق بهذا الأمر في حزم ورجولة ، بل بتخنث عظيم كما تقول المرأة الخليعة : « اصحى يا راجل ! » وحين يعطي جوابه « قلت : لا ! » لا ينطق بكلمة النفي هذه بشدة وعزم ، بل كما تنطق بها نفس المرأة : « لا يا خويه ! » ورد صديقه : « فقال : بلى ! » يماثل أسلوبنا العامي : « الله بقه عليك ! » (١)

وانظر الآن في بيته الثالث كيف يرد على صديقه رداً ماهراً ، يقلب عليه حجته حين قال : « قد شاع في الناس عنكما الخبر » . يقول : اذا كان خبرنا قد شاع

---

(١) لا بد أن الكثيرين من القراء سيدهشون من طريقتي هذه في ترجمتي الشعر إلى لغتنا العامية، وقد ينفرون منها أو يرون أنني أسرفت في استعمالها ، ولكني أعتقد أنها لازمة لزوما تاما اذا أردنا تمثل هذا الشعر تمثلا صحيحا فهذا شعر يتخذأسلوب الحديث اليومي وقد كان شديد العامية في عصره ، فلا نفهمه حق الفهم اذا اكتفينا بترجمته إلى أسلوبنا الكتابي الحديث، بل لا مناص من أن نترجم الموقف كله إلى موقف شبيه به فيحياتنا المعاصرة ثم نتذكر ما يصدر عن الأشخاص فيه من حوار باللهجة الدارجة . ولست أظن انزعاج بعض القراء مناستعمالي هذا الأسلوب العامي فيدراسة هذه القصيدة وبعض القصائد القادمة إلا ناشئا عن عدم تعودهم لمثل هذه الطريقة في نقدنا الحديث . فرجائي أن تزول الغرابة شيئا فشيئا كلما مضوا في هذا الكتاب قدما .

تعقيب : صح ما توقعته من دهشة ونفور ، حتى لجأ أحد النقاد إلى السخرية والاستهزاء ، دون محاولة لمناقشة دفاعي هذا عن طريقتي أو مجرد الاشارة إليه. لكني أضيف إلى ما قلت حقيقة اخرى : هي اضطراري إلى استعمال هذهالطريقة والإكثار منها اذ أكتب شرحي على الورق الصامت ، محاولا أن أرشد قرائي كيف ينبغي أن يقرأوا هذا النوع منالشعر . ولو كانوا أمامي يسمعون قراءتي له لفهموا ما أعني مباشرة . وربما يجوز لي هنا أنأذكر ان محاضراتي التي أقرأ فيها مثل هذا الشعر تقنع سامعيها اقناعا تاما. وأنا بعد أرجو أن يكون قراء كتبي قد ألفوا طريقتي هذه وقل انكارهم لها اذ استخدمتها في كتب متعددة. ومهما يكن من الأمر فأنا مقتنع اقتناعا تاما بأن الدراسة الصحيحة للأدب القديم لا تكون إلا باحيائه، لا بمعاملته كأنه حفريات ميتة قد انقطع بها الزمن ، وأن إحياءه لا يكون إلا بتمثل مواقف مشابهة أو مقاربة من تجاربنا الحادثة، فبهذا وحده نستطيع أن نستخرج من الأدب القديم ما لا يزال في إمكانه أنيقدمه لنا من متعة وفائدة وعبرة ، وبهذا ننفذ إلى ما لا يزال يسجل من أعماق النفس البشرية .

حقا كما تدعي فما فائدة إقلاعي عن الهوى وقد حدث ما تخشى منه وليسوا بعد بعاذريَّ ؟ ولكن انظر كيف يصوغ هذا المعنى :

قلت : وإذ شاع ! ما اعتذاريَ ممّا ليس لي فيه عندهم عذر ؟

تأمل قوله : « وإذ شاع ! » يلتفت بها الى صاحبه مفاجئا كما نقول : إمسك ! قفشتك ! ثم تأمل أثر التدوير بين الشطرين اذ قطع كلمة «ممّا» بينهما، وتأمل الخلاعة الزائدة في استعماله هذه الكلمات القصيرة المتتالية : ليس — لي — فيه ، تتبعها كلمة أطول : عندهم ، ثم تختمها كلمة ذات مقاطع ثلاثة متدافعة : عُذْرُ . وهو في نطقه لكل منها يأتي بهزة جسمية شنيعة تذكرنا بالنساء « البلدي » اللاتي نراهن في الأحياء الوطنية أو في الأفلام المصرية الهزلية وإحداهن «تردح» للأخرى أو تتغنج وتتلوى أمام الرجل . واستعماله لحروف الجر والظروف « لي — فيه — عندهم » لا بد أن كان له في عصره تأثير أشد مما قد يكون له فينا ، إذ كان لا يزال جديداً ظريفا عجيبا ، أما نحن فقد طال تعودنا لعبث الشعراء بحروف الجر ، سواء منهم المتطرفون الخلعاء والمتصرفة حين يقولون « منه له فيه » وأمثالها .

أما وقد أبطل حجة صاحبه، فهو الآن يعلن إصراره على المضي في سلوكه دون إخفاءه :

لا أكتم النـــاس حب قـــاتلتي لا لا ! — ولا أكره الذي ذكروا !

لا نحتاج الى أن ننبه الى ما في تكرار أداة النفي من التقاط لنبرة الحديث الحي . أما الجملة الأخيرة من هذا البيت فيصرح فيها الآن بسروره الخبيث مما سبب للناس من ضيق وحنق ، وهو اذ ينطق بها ينفجر بإبتسامة هازئة بعد ما كان يتصنعه من حزن وغضب ، فتكون لها مفاجأة «الهبوط» الذي يسمى في الانجليزية « آنتي كلايماكس . »

لوما ! فلا لوم بعدهـــا أبـــداً صـــاحبكم — والجليـــل —محتضر

أو كما نقول : لوم يا خويا على كيفك لوم ! ايه يهمني ؟ ما انا متّ والنبي خلاص !

قـــم قم اليهم فقل لهم قد أبى وقال لا ! لا أفيق ! فانتحروا !

نعتقد أن عامية اسلوبه قد تم الآن اتضاحها ، يحكيها بتكرار فعل الأمر ، كما نقول :

قوم يا شيخ قوم ! وبتخفيف الهمز في الفعل « أبى » ، وبتكرار أداة النفي .

وأما جملتاه الأخيرتان « لا أفيق ! فانتحروا ! » فيعلن بها عناده ، ويعلن بها كيده ، لعذاله ، وبفعل الأمر « انتحروا » يتعمد إضحاك سامعه أو قارئه ، كما تقول نساؤنا : « يا عواذل فلفلوا ! » او كما «تصحن» احداهن (اي تدلك قبضتها اليمنى في راحتها اليسرى) وهي تقول لكي تغيظ خصمها : « الكيد والنحر سمك في البحر ! الكيد والنحر الخ ... »

ماذا عسى أن يقول قـــائلهـــم وذا هوىً ساق حَيْنَه القـــدر

يستعمل هنا الحجة التي نكثر من استعمالها للاعتذار عن سلوك صدر منا ، أو فعل فعلناه لا يرضى عنه الآخرون ، وهي وضع المسئولية على القدر الذي أجبرنا . لكنه لا يستعملها جاداً ، بل هو لا يزال في هزئه وسخريته بالناس ،فهو يستعمل ضدهم نفس الحجة التي يستخدمونها في تبرير أعمالهم . فإن أسلوبه لا زال نفس الأسلوب المتخلع .

يا قوم ! مـــالي وما لهـــم أبداً ؟ ينظر في عيب غيره البطر

يعود هنا الى تصنع التأفف من الناس ، لكن أسلوبه العامي الهازىء واضح في قوله « ما لي وما لهم ! » والذي يسهّل علينا فهمه أننا لا نزال نستعمل نفس التعبير في كلامنا وأغانينا . اما الشطر الثاني فهو نظير قولنا « اللي على رأسه بطحة يحسس عليها . »

ويستمر في تخلعه ، وفي غضبه المصطنع ، وفي جذله الذي يتصنع اخفاءه ، في البيت التالي :

ماذا عليهم، وما لهم ـــخرسوا !ـــ لو أنهم في عيوبهـــم نظروا

وتقسيم الشطر الأول لا يحتاج بعد الى تحليل . وهو ينطق بسبابه « خرسوا» كما تنطق به المرأة التي «تردح» محركة يديها مهتزة بكشحيها غامزة بعينها . وشطره الثاني تأكيد للمعنى والانفعال اللذين جاءا في البيت السابق .

أعشق وحدي ، ويؤخذون به ! كالترك تغزو ، فتؤخذ الخزر !

هنا يبلغ أقوى تصريح عن غبطته وجذله وشماتته . هو يدعي الشكوى من سخطهم عليه ، لكنه في حقيقته يشمت فيهم لأنه هو يتمتع بلذة العشق وهم ينالهم أذاه – فهو كالترك تغزو المسلمين وتؤذيهم وتقتل منهم ، ولكن لا ينالهم العقاب بل يقع على جيرانهم الخزر . وهنا ايضا سخرية ضمنية بالعرب الذين لا يفرقون بين ترك وخزر ، فكلهم في عيونهم أعاجم وأعلاج وكفرة !

أما البيت القادم فخلاصته تامة الوضوح :

يـــا عجبا للخلاف يـــا عجبا ! بفي الذي لام في الهوى الحجر !

انظر مهارة بشار في تنويع النغم بين شطري البيت الواحد . فالشطر الأول يتكون من ثلاثة أقسام طويلة ، لذلك يجب أن نقرأه ببطء وتطويل شديد وبأقصى ما نستطيع من مط وتثن في خلال مقاطع «يا عجبا» المكررة مرتين ، متذكرين مرة أخرى كيف تنطق نساؤنا بأمثال هذا من تعبيرات التعجب والاستهزاء . لكن قارن هذا الشطر بازدحام الشطر الثاني بكلمات كثيرة قصيرة متدافعة تمثل بتتابعها المتواثب ما يريد تصويره من حركات جسمية سريعة متخلعة : بفي الـ – لذي – لام – في الـ – هوى الـ – حجر . وتذكر تعبيراتنا العامية التي نستعملها مناظرة للتعبير العربي القديم « بفيه الحجر» لمن يقول كلاما نكرهه او نتشاءم به .

والآن نصل الى البيت الذي يختم به هذا القسم من القصيدة :

مـــا لام في ذي مـــودة أحـــــد يؤمن بالله – قم ! ، فقد كفروا !

وهو لا يستعمل هذه الحجة إلا ساخرا كعادته ، معبرا بهذا عن استخفافه بالدين ، وهو يعني الأثر « إن الله جميل يحب الجمال » وأمثاله : ويتلذذ بقلبه من

غرضه الطاهر الى الغرض الفاسد الذي يقصده هو . اما الجملتان الأخيرتان في البيت « قم ! فقد كفروا ! » فواضحتا العامية والسخرية : « قوم يا شيخ قوم ! دول كفره ! »

ذلك هو القسم الأول من الرائية . ومهما يكن رأينا فيه من الناحية الخلقية فنحن مضطرون الى التسليم بمهارته الفائقة في تصوير المعاني وحكاية الانفعالات والحركات حكاية صوتية بوسائل الإيقاع والجرس وائتلافهما في النغم والنبرة . حتى لتكاد الأبيات تكون تصويرا حسيا مجسما لما يريد أن ينقل من مضمون، مضمون ساقط خليع ، ساخر متّن .

ولو انتهت القصيدة هنا لربما قبلناها قبولا فنيا . لكنها لا تنتهي ، بل يخلص بشار الى الموضوع الأساسي الذي كان يمهد له ، وهو إغواؤه للفتاة الغريرة . فيبدأ بوصف الخطوات التي اتخذها بدهاء وتدرج حتى نجح في اثارتها . فأولاها :

حسبي ، وحسب التي كلفت بها　　　مني ومنها ، الحديث والنظر

هي أنه لما بدأ مجالستها لم يتسرع تسرع الغرّ الأرعن، الذي لا يستطيع كبح شهوته فيهاجم الفتاة مهاجمة تذعرها وتبتعث معارضتها العنيفة فيفر منه الصيد . بل تصنع أن كل ما يريد هو أن يستمتع معها بلذة الحديث البريء، والمؤانسة العفيفة. فحادثها في مختلف الموضوعات، وفاكهها بالنوادر والأخبار، وروى لها من ذخره الغني من الأشعار والملح، حتى هدأت، وبدأت تطمئن الى أن غرضه شريف حقا. وهي حيلة لا يزال يستعملها المجربون في هذا الميدان، فهم يبدأون بمحادثة الفتاة في شتى موضوعات السياسة والمجتمع ، والفن والأدب ، والسينما والمسرح ، بادئين بالمسائل البريئة ، ومتدرجين تدرجا ماهرا الى المسائل الحساسة ، لكن بادعاء أن مناقشتهم علمية خالصة ، حتى تطمئن الفتاة وتحس بالأمن، ويتضاءل خوفها وحذرها ، ولا تلتفت الى انزلاقها التدريجي الى مسائل ينبغي ألا تتحدث فيها مع الرجل . فلما تم له ذلك أخذ ينتقل الى الخطوة التالية :

أو قبلـــة في خلال ذاك ، ولا　　　بأس إذا لم تُحَلَّ لي الأُزُر

بدأ يتجرأ على قبلة ، لكن لاحظ قوله « في خلال ذاك » فحين تم هدوء الفتاة واطمئنانها ، وبدأت تجاذبه أطراف الأحاديث ، وتضحك لمزاحه الذي لا يزال بريئا ، بل بدأت تبادله مزاحا بمزاح ، تجرأ على أن «يخطف» منها قبلة سريعة عارضة ، « على الهامش» كما نقول ، لم يقبلها بشدة وإطالة وإلا عاد إلى إزعاجها وإخافتها — فلم تكد تحس بقبلته حتى كانت قد انتهت فلم تدع لها مجالا للاحتجاج الشديد ، فإن احتجت زعم أنه إنما قبلها قبلة بريئة من فرط إعجابه بحديثها وذكائها وظرفها ، وبذلك يرضي غرورها ويحملها على قبول القبلة . لكنه كرر هذه القبلات الخفيفات وهو مسترسل في حديثه ومفاكهته والتعبير عن إعجابه ، فلم تشعر الفتاة بأن قبلاته أخذت تكثر وتطول ، وتثير فيها لذة عجيبة لا تعيها تماما ، ولم تدرك إدراكاً واعياً أنها لم تعد تقبل قبلاته فحسب ، بل أخذت تبادله قبلة بقبلة . لكنه مع هذا النجاح يذكر نفسه في باقي البيت بضرورة الاستمرار في الحذر والتدرج وعدم اللجوء الى عمل طائش وإلا أفسد ما عمل هدم كل ما ظفر به .

فلما دام ذلك مدة كافية انتهى بها الى هذا الطور :

او عضة في ذراعها ، ولها فوق ذراعي من عضها أثر

طالت اذن القبلة واشتدت حتى تحولت الى عضة ، بل أخذت الفتاة تجاوبه في هذا ايضا ، دون أن تدرك المرحلة التي صارت اليها . ولعلها تزعم لنفسها أولا أنها إنما تعاقبه على عضته بعضة منها . لكن لا شك أنه قد نجح في إثارة غريزتها دون أن تعي ، فهي تجد في هذا التقبيل الطويل والعض لذة كبيرة . هل يستطيع وبشار أن يقدم على الخطوة الأخيرة الحاسمة اذن ؟ لا ، ليس بعد ، برغم كل ما أثار من تلذذها . فلا تزال أمامه خطوات أخرى :

أو لمسة دون مرطها بيدي والباب قد حال دونه الستر

ولكنها لا تزيد في مبدئها على أن تكون «لمسة» خفيفة سريعة سرعان ما يسحب بعدها يده وينظر رد فعلها ، فإن احتجت اعتذر وادعى أنها كانت حركة عفوية

من يده غير مقصودة . لكن هذه اللمسة لها فعلها الجديد في زيادة إثارتها . فلما كررها لم تعد تحتج . وهنا ابتدأ بشار يطمئن حقا الى احتمال نجاحه النهائي ، فهو لذلك يتأكد من أن الباب يسترهما بستائره ، وألا رقيب أو زائر يقطع عليهما حبل المغازلة .

والساق برّاقة مخلخلها او مص ريق ، وقد علا البُهُر

وصلت الغريرة المسكينة دون أن تدري الى المرحلة التي لن تستطيع بعدها ارتدادا ، ولا صدا له او قمعا لغريزتها هي . فقد سمحت لثوبها أن ينحسر عن قدميها بعد أن كانت تأخذ حيطتها في سترهما (وفي ايامنا هذه ، ينحسر عن ركبتيها بعد أن كانت تبالغ في إخفائهما[1])، والمخلخل موضع الخلخال ، ونفهم أن الثوب سينحسر انحسارا أكثر فأكثر . ثم لم تعد القبلة مجرد قبلة طويلة ولا عضة ، بل تحولت الى مص ريق متبادل شديد الإثارة . اما حين تعلو أنفاسها المتقطعة المتهدجة ، فهذا هو الدليل الذي لا يخطىء على أنها قد تمت استثارتها ولم يبق إلا التسليم الكامل :

واسترخت الكف للعراك ...

كانت الى ما قبل هذه المرحلة تحاول بين الفينة والفينة أن تدفعه عن نفسها بيدها ، لكن دفعها يضعف ويضعف ، حتى تسترخي كفها الآن تماما من طول المعاركة بينهما . وهو منظر نعرفه جيدا من الأفلام الأجنبية التي تفتنّ في تصويره ، حتى أن بعضها يكتفي بالرمز الى تحقيق الوصلة الجسدية بلقطة تركز على ذراع الفتاة المبسوطة وكفها المسترخية او المتشنجة ، وقد أخذت تقلدها بعض أفلامنا المصرية في هذا المنظر. كل هذا بدأ بجلسة بريئة وبقبلة هينة خفيفة لم تر الفتاة فيها بأساً ، ولم تدرك — في جهلها بحيل الرجال — النار التي ستتأجج من ذلك الشرر الصغير . وهذا كثيرا ما يكون مصير مثيلاتها من الغريرات اللائي ظن أولياء أمورهن أن إبقاءهن جاهلات بحقائق الحياة يكفي لحفظ شرفهن . وكم يحدث في مجتمعنا

(١) هذا اذا لم تكن منذ البدء ترتدي « ميني جيب » بطبيعة الحال!

في يومنا هذا من المآسي الناجمة عن هذا الظن المخطىء [1] .

ولكن انظر الآن دهاء بشار واحتياطه في نظم القصة . فبعد أن يقول : « واسترخت الكف للعراك» يقفز قفزة شديدة فيأبى أن يعطي تفاصيل ما حدث كما يفعل الشعر الجنسي المكشوف الذي يغص به الأدب العربي منذ الشعر الجاهلي إلى أن هوى الى درك انحداره في انحلال الحضارة العباسية وما تلاها. اما بشار فيقفز مباشرة الى ما بعد الوصلة فيصف ما قالت الفتاة حين أفاقت من نشوتها وأدركت فداحة ما فعله بها . ولو أن هذا البيت يكتب بلغة أوروبية تستعمل علامات الترقيم لكتبوه هكذا ، يضعون نقطا موضع الجزء الذي قفزه الشاعر :

واسترخت الكف للعراك . . . .
. . . . وقـــا لت : إيــه عني ! والدمع منحدر

وبشار يريد بذلك ألا يدع لأحد مجالا لمؤاخذته ومعاقبته . ولو أن لائما لامه لتصنع الدهشة وقال : ولكن أي شيء في هذه القصيدة يقارب ما تقبلونه من

---

(١) من العجيب المحزن أن نجد أحد نقادنا الكبار لا يدرك المغزى الحقيقي لهذا القسم من القصيدة فيغفل عن هذه الخطوات الماكرة المتدرجة التي اتخذها بشار حتى نجح في إثارة الفتاة الشريفة وتغليب شهوتها على عفافها ، ويظنها قد جاءت اليه دارية بما سيحدث مستعدة لقبوله وأنها لقيته في بيت من بيوت الدعارة . فالمازني يقول عن هذه القصيدة في كتابه عن بشار في سلسلة «أعلام الإسلام» (ص ٧٦) : « والمرء يقرأها فيخيل اليه أن هذا بيت من بيوت الدعارة السرية. والصورة كلها صورة فتاة « بنت عشرين بكر» – فقد كان بشار يحبهن صغيرات – بضة لينة من حوريات الأمصار المستراد لأمثالهن يغازلها ويلاعبها ويقارصها ويهم بها رجل قوي متين الأسر خشن الشعر وهي ذليلة مطواع بين يديه ، تقر له ، وتعترف بقوته ويلذ لها – وإن كانت عينها تذري الدمع – أن تلهج باقتداره عليها ، ومساورته لها ، وظفره بها ، ولا يحيرها إلا عضة بشفتها لا تدري كيف تخفي أثرها عن أهلها حين يعودون ». وبذلك يضيف إلى خطأه الفني في فهم القصيدة خطأ الظلم الشنيع لتلك المسكينة البريئة الجاهلة. أما قوله إنها يلذ لها اللهج باقتداره عليها فسيرى القارىء أن دموعها دموع الحسرة الصادقة وأن شكواها من بشار شكوى خالصة لا تلذذ فيها ولا لهج ، وانما هو خبثه الذي يضع على لسانها كلاما لم تقله، لكن دهاء بشار قد خدع ناقدنا الكبير للأسف الشديد .

أشعار النابغة والمنخل وامرىء القيس ونقائض جرير والفرزدق وأراجيز الرجاز وشعر غيرهم مما يكتظ بالوصف المكشوف والألفاظ الصريحة في تفاصيل العملية الجنسية! أفتقبلون ذلك وتحفظونه وتروونه — في مجالسكم وفي مساجدكم على السواء ! — ثم تعيبون هذا الكلام الهين البسيط الذي ليس فيه لفظ واحد مرفث ؟

ولو علم بشار ما سيأتي بعد عصره في تصوير اللذة الطبيعية واللذة الشاذة لازدادت حجته على القدماء قوة . لكن حجته إن خدعت القدماء لا تخدعنا . فنحن أدرى منهم بحقيقة الشعر الخبيث ، ليس أخبثه ما عرفوا من تصريح فج ، بل أخبثه ما يخفي غرضه بمثل هذا الدهاء . وتأمل الآن في القسوة البالغة في القسم الجديد من القصيدة الذي يبدأ بهذا البيت الثامن عشر . فبشار يريد الآن أن يصف جزع الفتاة ورعبها حين تفيق من شهوتها الوقتية فترى ما حدث لها وتدرك فرط الإيذاء الذي أوقع بها . ولكن حقيقة أمره أنه في وصفه لجزعها والتياعها ساخر منها هازىء بها شامت بما حدث لها متشف فيها . وهذه هي الشناعة الحقيقية لهذه الأبيات ، يتصنع أنه يحكي حزنها ونحيبها ، لكنه لا يحكيه بصوتها الخالص ، كما يفعل عمر بن أبي ربيعة مثلا ، فيحملنا على قبول شعره ، وبخاصة اذ نرى جزعه الصادق وحزنه المخلص الذي يستجيب لحزن الفتاة وإن يكن هو سبب مصابها . بل بشار يحكي كلام الفتاة بصوته هو هازئا متهكما . هذا ما يجب أن ينتبه اليه القارىء . لسنا في هذه الأبيات نسمع صوت الفتاة تتفجع على ما حدث لها ، ولكن نسمع صوت بشار يقلد تحسرها متهكما ساخرا . ويقلد صوتها الأنثوي في خلاعة مسرفة . وصوتها الأنثوي اذا صدر عنها كان صوتا طبيعيا ، هو صوت أنثوي لكنه ليس صوتا «متخنثا» . فإن شئت أن تفهم هذا الصوت الممزوج الذي يصدره بشار فهما صحيحا فتصور موقفا شبيهاً به . أفرض أنني ضربت شابا ضعيفا منكسرا فبكى وصاح متألما شاكيا . ثم جئت اليك فحكيت لك ما حدث مفتخرا بقوتي وأخذت أقلد صياحه وشكواه في صوت يتلوى سخرية واحتقارا وشماتة . هذا ما يفعله بشار في الأبيات القادمة ، مضافا اليه أنه يزيد على ماقالت فينطقها بمدح لقوته لم يصدر عنها .

الذي نسمعه من بشار ليس صوت الحكاية الدرامية الصادقة الذي نسمعه في في شعر عمر ، بل هو صوت التقليد الساخر المسمى بالانجليزية parody . لنستمع اذن الى الأبيات :

... ... وقا لت : إيه عني ! والدمع منحدر
انهض ! فما أنت كالذي زعموا أنت وربي مغـــازل أشِر

نقف هنا لنتأمل هذا اللفظ الماكر : انهض ! يصور به بشار وضعهما تصويرا غير مباشر ، فهو لم يصرح في أي بيت سابق بأنه اعتلاها . قارن هذا مثلا ببيت امرىء القيس المشهور في معلقته « اذا ما بكى من خلفها انصرفت له الخ ... » لتدرك مرة أخرى دهاء بشار ، وكيف يكون التلميح غير المباشر أشد إثارة في صميمه من التصريح الفج . و « الذي زعموا» يدلنا على أنه كان قد احتال عليها بعدد من القوادين الذين امتلأ بهم ذلك العصر ، والذين تخصصوا — رجالا ونساء — في خداع الفتيات البريئات وجلبهن الى حبائل الرجال . وعمر بن أبي ربيعة يصف حيلهم في بعض قصائده (١) . أكد أولئك القوادون لفتاة بشار شرف مقصده وعفة ضميره حتى قبلت أن تلقاه . ثم يتجلى من الشطر الأول من البيت التالي :

قـــد غابت اليوم عنك حاضنتي فـــالله لي منك فيك ينتصر

دهاء بشار اذ أحسن اختيار اليوم لمغامرته ، فاختار يوما كانت فيه وحيدة قد

---

(١) اليك وصف عمر لإحدى هؤلاء القوادات :

فأتتهـــا طبـــة عالمـــة تخلـط الجـــد مـــرارا بـاللعـب
تغلــظ القــول اذا لانــت لهـا وتراخــي عنــد سورات الغضــب
لــم تــزل تصرفهــا عــن رأيهــا وتأناهــا برفـــق وأدب

ويعجبني تعليق صديقه ابن أبي عتيق لما أنشده عمر هذه الأبيات ، وأعده من أبرع الفكاهات في تاريخ الأدب العربي . قال ابن أبي عتيق لما سمع وصف عمر هذا لقوادته : « الناس يطلبون خليفة — مذ قتل عثمان — في صفة قوادتك هذه يدبر أمورهم فما يجدونه ! » (أغاني دار الكتب ١٣٥/١) . لا عجب أن انخدعت فتاة بشار ومثيلاتها من الغريرات بحذاقة أولئك القوادات .

تركتها الأمة المكلفة بمرافقتها وحراستها ، او لعله هو الذي تخلص منها بوسيلة ماكرة . اما الشطر الثاني فليس بعده في التخلع والتثني . تأمل في تتابع حروف الجر : لي — منك — فيك ، وتصور اهتزاز بشار مع كل واحد منها . لكننا إن قبلنا خلاعته في القسم الأول من قصيدته حيث كان لا يصور الا خلاعته هو ، لا نستطيع قبولها هنا. فهو هنا يقلد تفجعها الأنثوي بصوته المتخنث في قسوة شنيعة لا تثير فينا الا الكراهية والسخط .

يا رب خذ لي ! فقدترى ضعفي   مــن فاسق الكف ، ماله شُكُر

لا بد أن هذا حدث فعلا . لا بد أن هذه المسكينة المخدوعة المغلوبة على على أمرها قد توجهت الى الله ، في ضعفها وعجزها ، بالشكوى وطلب الانتقام . لكن كراهة البيت أن بشاراً هو الذي ينطق هنا مقلداً دعاءها وتضرعها ساخرا من ضعفها وقلة حيلتها . وقولها « ما له شكر» يعني أنه طماع لا يقف طمعه عند حد . لم يكتف بالقبلة الخفيفة التي بدأ بها والتي قبلتها الغريرة دون أن تدرك ما ستجر وراءها . فهنا دهشة صادقة منها أن حدث ما حدث من تلك البداية التي كانت تظنها بريئة لا بأس فيها . لكن تذكر أن بشارا هو الذي ينطق بهذا التعبير ساخرا من جهلها وحماقتها . مفتخرا بدهائه ومكره اذ تدرج ذلك التدرج في إثارتها .

أما البيتان القادمان فهما أقوى دليل على أنه يمزج ما قالته الفتاة بما يضيفه هو اليها دون أن تكون قالته :

أهــوى إلى معضدي فرضّضه   ذو قوة ، ما يطاق ، مقتدر
ألصق بي لحيــة لــه خشنت   ذات سواد ، كأنها الإبر

فالشطر الأول منهما نستطيع أن نقبل أنه صدر عن الفتاة في شكواها من قسوته المؤذية . اما باقيهما فلا نصدق ابدا أن الفتاة قالته ، بل هو دون أدنى شك إضافة منه الى لسانها يريد بها أن يفخر بقوته الذكرية ، والذي يؤكد لنا هذا هو أنه مناقض للصورة التي رسمها بشار نفسه لبراءة الفتاة وطهرها قبل أن ينجح في الإيقاع بها ، وطهرها هذا هو مبعث تلذذه الأكبر . لكنه يهدف بهذه الإضافة إلى

الزهو أمام اصحابه من الرجال بشبابه القوي وعرامته الجنسية . ولعله يرمي ايضا الى تشويق بعض الأخريات من نساء عصره حتّى يتذوقن ماذاقته تلك الفتاة من عنف رجولته . فهو وإن كان قد كذب على تلك الفتاة حين أنطقها بما لم تنطق به ، يصور شعورا أنثويا لا شك في صدقه ، هو امتزاج ألم المرأة من خشونة الرجل بما تجده من لذة عجيبة مقترنة بهذا الألم أو لعلها صادرة عنه . هذا الموقف هو أتم مثال في التجارب البشرية على اقتراب اللذة والألم إذا بلغا غايتهما .

حتّى علاني ! وإخوتي غـيَّـب ويلي عليهم لو أنهم حضروا !

حين يقول « حتّى علاني » فهو يقترب من التصريح الى اقصى حد يسمح به لنفسه . ولكن أين هذه الكلمة الواحدة من شعر امرىء القيس والنابغة وغيرهما ؟ اما باقي البيت فشماتة ليس فيها خفاء ، ولا يحتاج القارىء الى أن أنبهه الى أن الشطر الثاني يقوله بشار لا الفتاة . فبشار نفسه هو الذي يسخر ويتشفى قائلا : ويلي — اي ويل بشار — عليهم لو أنهم حضروا . لاحظ أنه قال : ويلي عليهم ، ولم يقل : ويلي منهم . فهو لا يصف ما يخشاه منهم لو علموا ، بل يصور رعبهم وسخطهم وفضيحتهم لو علموا ما ألم بفتاتهم . فوجهه هنا ينفجر فجأة بالجذل الشديد يكاد لا يستطيع كبحه إذ يتخيل حالتهم تلك .

أما البيت الثاني فلعله أشد الأبيات إثارة لحزننا وحسرتنا على الفتاة :

أقســم بالله لا نجوتَ بهــــا ! اذهب ! فأنت المساور الظفر

شطرا هذا البيت مختلفان في النبرة اختلافا تاما . ففي الشطر الأول تتحول الفتاة من الجزع والنواح الى الغضب العظيم على بشار ، فتقسم بالله أنه لن ينجو بما ظفر به ، بل سيلقى مغبة جريمته . ولكن ما إن يخرج هذا التهديد من فمها منفسا عن غضبها الهائج حتّى تدرك سخفه واستحالة تحقيقها له . اذ تدرك عجزها التام عن الانتقام . فكيف تستطيع المسكينة أن تعاقبه ؟ هل تشكوه الى أبيها أو إخوتها ؟ لو فعلت لعاقبوهـــا قبل أن يعاقبوه ، وكان عقابهم رهيبا . فحين تـــدرك عجزها التام عن الانتقام تعود الى الإذعان لسوء حظها الذي لا تستطيع له تغييرا : اذهب !

فأنت المساور الظفر . تنطق به البائسة مخذولة يائسة مستكينة فتذهب نفسنا عليها حسرات . ثم يزيد من إيلام البيت أن بشارا هو الذي ينطق به هازئا من توعدها شامتاً باعترافها بعجزها مقلدا لاستكانتها بتخنث شنيـــع . يتضح على أشده في اضافته على لسانها وصفه بأنه « مساور ظفر » ، فما كانت لتصفه بهاتين الصفتين ، بل تصفه بأنه وحش خالٍ من الضمير .

والآن وقد نفست عن فجيعتها بعض الشيء بالبكاء والانتحاب ، وفرجت عن غضبها بالتهديد بالانتقام ، وانتهت الى أخذ نفسها بالإذعان للمصاب والرضوخ لطالعها المنحوس ، تلتفت الى الناحية العملية من مشكلتها ، فتحاول أن تفكر في مخلص منها ، وترجو أن يساعدها بشار على الأقل في حلها . اما الضرر البليغ الذي وقع بها فلا علاج له الى الأبد ، ولكن ألا تستطيع على الأقل أن تخفي أثر هذه العضة القاسية التي تورمت لها شفتها ؟

كيف بـــأمي إذا رأت شفتي؟ أم كيف إن شاع منك ذا الخبر؟

ما قصد بشار من حكاية هذا البيت؟ قصده أن يحملنا على الضحك والسخرية من هذه الفتاة التي حدث لها ما حدث من الجرح البليغ ولكن لا يهمها سوى ما حدث لشفتها من الجرح والورم . ولكن هل ينجح في قصده ؟ لا أظن . (١) فنحن لا نضحك ولا نسخر بل نزداد لها رثاء وعليه سخطا . لأن مشكلتها مشكلة حقيقية . فإن ما حدث لها من الانتهاك تستطيع إخفاءه عن أهلها ، أو هي تأمل في هذا . ولكن لها الحق كل الحق في أن تجزع من هذا الأثر الواضح البادي لكل من ينظر اليها وتفكر كيف تفسره تفسيراً مقنعاً .

أما في الشطر الثاني فهي تعبر عن تخوفها من أن يلجأ بشار الى فضح أمرها افتخاراً وشماتةً . وهي ترجو به أن تستخلص من بشار وعداً بأنه لن يفشي سرها .

---

(١) بل قد نجح مع المازني للأسف الشديد ، حين قال : « ولا يحيرها إلا عضة بشفتها الخ ..» فإذا كان قد خدع ذلك الناقد الكبير ، فكم — ترى — من القراء سينخدعون به ؟

لكن بشارا في بقية القصيدة لن يعطيها هذا الوعد، ولن يطمئنها من هذا الخوف، كما أنه لن يبذل أي جهد في مساعدتها لحل مشكلتها العملية .

ثم يستمر بشار في حكاية جزعها، على طريقته الخاصة من التهكم :

أم كيف - لا كيف ! - لي بحاضنتي . يا حب لو كان ينفع الحذر

الا أن في هذا البيت عنصرا جديدا نسمعه من الفتاة للمرة الأولى . فهي حتى الآن كانت مقتصرة على ندب سوء حظها أو التعبير عن سخطها على بشار . لكنها الآن تنتبه إلى نصيبها هي من المسئولية . فتعبر عن ندمها . فقد أخطأت حين قبلت أن تزوره بدون صحبة حاضنتها ، ولكن لات حين مندم ، وهذا معنى الجملة الاعتراضية « لا كيف ! ». كما أن قولها : يا حب - أي يا حبذا - لو كان ينفع الحذر ، يدل على أنها في قرارة نفسها كانت تتخوف من هذا العمل الطائش فذهبت إلى بشار وهي حـذرة . لكن خطأها الكبير أنهـا ظنت أن حذرها سيكفي في حمايتها ، ولم تكن تدرك كيف سيتغلب على حذرها وينسيها اياه . فحذرها لم ينفعها شيئا . ويزداد هذا العنصر اتضاحا في البيت التالي :

قد كنت أخشى الذي ابتليت به منك ، فماذا أقول، يا عُبُر !

في دراستنا لهذه القصيدة حتى الآن صببنا كل سخطنا واستبشاعنا الخلقي على بشار . وهو بلا شك المجرم الأعظم في المأساة . لكن واجب العدل يقضي بألا نخلي الفتاة من بعض المسئولية . حقا إنها حين زارته لم تكن تقصد أن تمكنه من نفسها - كما رماها المازني ظالما - وكانت تعتقد أنها ستكون جلسة بريئة كما أكد لها القوادون . لكنها لم تكن جاهلة تمام الجهل بالخطر الذي تعرض له نفسها . فإذا كانت قبل أن تلقاه قد خشيت شيئاً من هذا فقد كان واجب الحكمة والاحتراس يقضي عليها بأن ترفض دعوته ، أو تصر على اصطحاب حاضنتها على أقـل تقدير . فهي حين لبت دعوته وذهبت اليه وحيدة كانت تلعب بالنار .

لست من الذين يوقعون معظم اللوم في مثل هذه المأساة على المرأة ، قائلين إنها هي التي ستخسر فهي اذن الطرف الذي يقع عليه عبء التحفظ والاحتراس .

لست أوافق على هذا الحكم الخلقي الشائع الذي يصدره معظم الناس في مختلف البيئات والعصور . فهو حكم مغرض يضعه الرجال تحيزاً لجنسهم ويرغمون النساءعلى قبوله أو يقنعونهن بصحته ، حتى لتكون النساء أقسى حكم على الفتاة التي تزل ، فترى المجتمع يخص الفتاة في مثل هذا الموقف بمعظم اللوم وبأقسى العقاب ، وينسى في هذا ضعفها وقوة الرجل ، وينسى مجتمع كمجتمعنا أنه لم يفعل شيئا يكفل الوقاية الحقيقية للفتاة من هذه المزالق حين اكتفى بوضعها خلف الأسوار أو وراء النقاب ، تاركا إياها فريسة سهلة لذئاب البشر اذا ظفروا بها في فرصة تسنح لهم . لكني لا أريد أن ألجأ إلى المبالغة في الناحية المضادة فأخلي الفتاة من كل مسئولية ، إنما أصر على أن مسئوليتها هي المسئولية الصغرى لا الكبرى .

أما الكلمة الأخيرة من هذا البيت : يا عبر (بضم العين والباء) ، فليس من معانيها التي تعطيها معاجم اللغة ما يوافق هذا الموضع . ففيها ناقة عبر أسفار (بتثليث العين وسكون الباء) قوية تشق ما مرت به ، وكذا رجل عبر أسفار . والعبرة العجب واعتبر منه تعجب . وليس في هذا معنى يصح هنا .

ولكن المفتاح الى فهمها هو أن يتذكر القارىء ما قلناه وكررناه حتى لنخشى أن يكون قد مل التكرار . وهو أن المتحدث بشار لا الفتاة ، وإن نقل لنا بعض ما قالت ، فهو يمزجه بإضافات من عنده . فهذه كلمة ينسبها بشار اليها ولم تنطق هي بها . ويريد بها زيادة التهكم والخلاعة . فالظاهر لنا أنها كلمة سوقية شديدة الابتذال كانت شائعة بين النساء في عصره ، فأصلها مستمد من المعاني التي تحتويها المعاجم ، لكن النسوة يعبرن بها عن نظير ما تعبر عنه نساؤنا حين يقلن : يـــا دلعدى ! او : يا عمر ! او مثيلها[1] او ما هو أفحش منها من الكلمات الأنثويةالتي تنطق بها النساء خلاعة أو ينطق بها الرجال تخنثا وتعبيرا عن السخرية اللاذعة . ولا بد أن بشارا في نطقه إياها بلغ مدى إسرافه في التثني والتخلع وهو يمط مقاطعها

(١) ربما كان تعبيرنا « يا عمر » تحريفا لذلك التعبير القديم « يا عبر ». وقد يرجح هذا الفرض تقارب الميم والباء في مخرجهما من بين الشفتين . كما نرى في تحويلنا الفعل « يتبختر » إلى « يتمخطر ». وأمثال هذا التحريف كثير في اللغات .

الثلاثة المتتابعة. ولا بدأن مستمعيه من أمثاله من المُجّان ضحكوا لها ضحكا عاليا.

بهذه الكلمة يومىء بشار إلى أنه لن يساعد الفتاة على الخلاص من ورطتها ، وأنه على العكس سيتخذها مبعثاً لمزيد من التهكم والشماتة. لكنه يخدعهاأولا بقوله:

قلت لها عند ذاك : يـــا سكني   لا بـأس ، إني مجرب خبر

تسمع الفتاة هذا التأكيد فيسكن روعها بعض الشيء ، ويشع في وجهها بريق الأمل ، وتقبل عليه مبتسمة من خلال دموعها تنتظر منه حلا عمليا ينجيها من المأزق حقا ، فهو حقا ذو تجربة وخبرة في هذه الأمور كما اتضح لها الآن . ولكن ماذا تسمع ؟ كيف يرد بشار على أسئلتها الضارعة ؟ كيف يهدىء جزعها ؟ بم ينصحها للخلاص من ورطتها ؟

قولي لهم : بقة لها ظُفُـر !   (إن كان في البق ماله ظفر !)

لا أعلم في الشعر العربي كله بيتا يقارب هذا البيت قسوة وحقدا . ينفس به بشار تنفيسا كاملا عن كراهيته للبشر وتشفّيه منهم وعدم مبالاته بمصائبهم ، وتزيد فيه السخرية الى الحد السام الذي يسميه الانجليز cynicism .

تصور أولا خيبة أمل المسكينة وانهيار تفاؤلها حين تسمع رده ، وعودتها الى التفجع والنحيب واليأس بأشد مما كانت عليه . هو قد خدعها بكلامه الذي حكاه في البيت السابق والذي قاله لها برقة وملاطفة ، مناديا إياها « يا سكنى » ، ومهدئاً جأشها ، وواعداً إياها بحل ناجع من ذخيرة تجاربه. وخبراته . لكنها إذ استمعت اليه في لهفة لم تجد في اقتراحه حلاً عملياً ، وسرعان ما تبدى لها سخره وعدم اكتراثه . اذ ليس من البق ما له ظفر . ومثل هذه العضة الكبيرة التي تركتها أسنانه النهمة مستحيل أن تصدر عن بقة (والبق هنا البعوض) . ووخزة البقة معروفة دقيقة . لكنه يريد أن يقول : اغربي عني لعنه الله عليك، وعلى أمك وحاضنتك وإخوتك وعلى البشر أجمعين! ماذا يهمني جزعك او يضيرني مصابك او يعنيني ما سيحدث لك ؟ بل أنا سعيد كل السعادة أن أتيح لي أن انتقم فيك من

هؤلاء البغضاء الذين طالما عذبوني وألحوا في إساءتي واضطهادي . لا أستطيع أن انتقم من رجالهم ، فلأنتقم منهم في نسائهم .

فبشار يعلن بهذا البيت أقصى سخطه وحقده على معاصريه وعلى الناس جميعاً . فإذا قرأته فانطق به في حرارة كاوية وغيظ هائل ينفجر في هذه الكلمة الغليظة الثقيلة « بقة » ثم في جمعها « البق » . اقرأهما بحيث تتخذ من حرف القلقلة المضعّف المردد مرتين منفجراً لسخط طال أمده واستشرى سمه حتى قتل في قلبه — في هذه اللحظة المعينة — كل أواصر المرحمة الإنسانية .

الحكم الخلقي والحكم الفني

فما رأينا في هذه القصيدة الزاخرة ؟

فلنفصل في رأينا فيها بين حكمين مختلفين ، ولنبذل جهدنا في التمييز التام بينهما : الحكم الخلقي ، والحكم الفني .

اما حكمنا الخلقي فنقرره دون تباطؤ ولا نظن فيه مجالاً للخلاف . فهذه قصيدة تامة الشناعة الخلقية ، يفخر قائلها بارتكابه جريمة لا نستطيع قبولها ولا نجد لها مبرراً واحداً. ومهما يكن من إلحاح الناس في تعذيبه ومداومتهم على اضطهاده فهذا لا « يجيز » له أن ينتقم بهذا النوع من الانتقام في فتاة بريئة . فإن كان يظن أنه يحملنا على الإعجاب به وبانتصاره فلن ينال هذا إلا من اخسّنا وأشدنا إهداراً للحدود الخلقية . وسائرنا يسخط عليه أكبر السخط ولا يرى فيما نجح فيه من إغراء براعة تستدعي الإعجاب بل تغريراً يستثير المقت . وهو كلما أطال في التهكم على فريسته وتقليد تفجعها بسخرية وتخنث لم يحملنا على الضحك منها او الاستهزاء بها بل زادنا لها تحسراً وعليه غضباً واحتقاراً. فهو في غرضه هذا قد أخفق إخفاقاً تاماً .

كذلك أخفق في غرض آخر . إن كان يظن أنه بهذه القصيدة يغري الفتيان

بتقليده ويعلمهم كيف يغررون بالفتيات فقد نسي أنه دون أن يدري يلقي على الفتيات درساً بليغاً مخيفاً يحذرهن من الوقوع في حبائلهم ويبصرهن بالمهاوي التي تنتظرهن إن لم يبالغن في الحيطة والاحتراس فيقعن فيما وقعت فيه تلك التعسة من فخ منصوب . فهو من ناحية يهدم ما بناه من ناحية اخرى . والفتاة التي تقرأ هذه القصيدة وتفهمها فهماً صحيحاً وتكون حريصة على عفافها تجد فيها دروساً في صون شرفها لا تقاربها في نفعها الدروس التي تجدها في كتب الأخلاق المدرسية التي توزع عليها وعلى زميلاتها في مدارسهن . وحين تبلغ ابنتي درجة التعليم التي تمكنها من متابعة القصيدة فسأعرفها بها وسأشرحها لها شرحاً تام المصارحة ، مدركاً أنني بهذا أبصرها بحيل المغرين فأمنها بالطريقة الوحيدة المجدية من الوقوع في شباكهم .

فالخطر الحقيقي على الفتاة ليس أن يهاجمها مهاجم فيغتصبها عنوة ، فهذا نادر الحدوث ، وفي اكثر الحالات القليلة التي يحدث فيها تنجو الفتاة اذا قاومت مهاجمها مقاومة جادة . اما الخطر الحقيقي فهو أن تقع في هذه الحبائل الماكرة التي تتدرج من احداها إلى الأخرى دون أن تدري إلام تقود او تفطن إلى التطور البطيء من المرحلة إلى المرحلة . والذي يصون عفاف البنت ليس أن تحبس في عقر دارها لا تخرج منه ، ولا أن يغطي وجهها بنقاب كثيف كلما خرجت منه او يصاحبها حارس او حارسة كلما خرجت ، فلا شك عندي أن فتاة بشار كانت تلقى هذا النوع من الصيانة الذي لا صيانة فيه . ولقد جرب هذا النوع في الزمان القديم كما جرب في عصرنا الحديث فلم يكن كافياً لتجنب المآسي . بل كان الحبس والتقييد والفصل بين الجنسين يزيد من تشوق الفتاة إلى مقابلة الرجال فيزيد من استعدادها للسقوط . انما الذي يصون عفافها أن تبصر بحقائق الحياة وتشرح لها حيل الرجال حتى تفطن اليها ولا تقع فيها وتتدرج بينها بل تعرف كيف تبطل محاولتهم من أول خطوة فيها . ولكن هذا موضوع يخرج عما نحن بسبيله ولو حاولت علاجه لاحتجت إلى فصل يماثل فصلي هذا او يزيد . ويكفي أن أذكر أن هذه هي الوسيلة التي تتبع الآن في كثير من البلدان الغربية حيث تدرس للفتيات حقائق

الجنس في محاضرات تلقى عليهن في مدارسهن وفي كتيبات توزع عليهن .

ولكن ما رأينا في القيمة الفنية للرائية ؟

هذه مسألة أصعب بكثير . فإن أردنا الانتهاء فيها إلى رأي ذي قيمة فلنحذر من خطأين يسهل جداً الوقوع في أحدهما .

يجب أن نحذر ، أولا ، من أن نسارع من الرفض الخلقي إلى الرفض الفني . فالفن – رضينا بهذا او لم نرض – لا يحكم عليه في مجال النقد الأدبي بمقاييس الأخلاق . بل المقياس الصحيح الوحيد في مجال النقد الأدبي هو المقياس الفني المحض : هل يرضى شعورنا الفني او لا يرضيه .

لكن يجب أن نحذر ايضاً من الخطأ النقيض : أن نسرع ، في فرط تحمسنا لحرية الفن وإصرارنا على إطلاقه من قيود الخلق او تقاليد المجتمع ، إلى قبول القصيدة بصرف النظر عن قيمتها الفنية وتأثيرها الجمالي . وهذا ما يفعله للأسف الشديد كثير من الشبان المتحمسين اول ما يحررون أنفسهم من النظر الضيق المتزمت ، يطيرون إلى النقيض فيقبلون كل ما فيه خدش للخلق ظانين أن كل ما ينفر منه الخلق فهو بالضرورة فن . لا يدرون أنهم بهذا يقعون في ذلك الخطأ المنطقي البدائي الذي يسمى « عدم استغراق الحد الأوسط » . فهم في الحقيقة يقولون : الفن لا يتقيد بالأخلاق . هذه القصيدة لا تتقيد بالأخلاق . اذن هذه القصيدة فن ! او ضع الخطأ في صورة منطقية أخرى هي أيضاً فاسدة : بعض الفن يخالف الأخلاق . اذن كل ما يخالف الاخلاق فن !

فإذا فكرنا في المسألة في تؤدة وهدوء ، وحذرنا الوقوع في أحد الخطأين ، وحكمنا على الرائية بالمقياس الفني وحده ، فإلام ننتهي ؟

أول ما نقر به للقصيدة هو قوتها التعبيرية ونجاحها التصويري البالغ . فهذا شاعر حدثت له تجربة معينة أثارت فيه إحساسات وعواطف معينة ، وهو يريد أن يعبر عنها ويمثلها لنا حتى نفهمها فهماً تاماً . وقد نجح في هذا الغرض تمام النجاح ، بما اختار من وزن أحسن استغلاله ليطابق حالته الانفعالية مطابقة عجيبة ،

وبما فعله من تقسيم العبارات وتخير الالفاظ وتنويع الجرس والإيقاع والنغم ، وبإتقانه إعداد الجو ثم إتقانه التدرج من مرحلة في القصيدة إلى مرحلة تالية . فهو في هذا الغرض المحدد أبدى براعة لا مزيد عليها في شعر شاعر ، لا في الأدب العربي ولا في أدب آخر نعرفه ويحق لنا الحديث عنه .

وربما يعتقد بعض القراء أن هذا هو كل ما يطلب من شاعر ، وأنه إذا نجح فيه فقد أدى رسالته الفنية . أولا يتطلب من الشاعر أن يشعر شعوراً صادقاً ، وأن يعبر عنه تعبيراً صادقاً ، وأن يكون تعبيره هذا من القوة والإتقان بحيث يصور لنا عاطفته تصويراً كاملاً ؟

بلى ، هذا ما نتطلبه من الشاعر ، ولكنه ليس كل ما نتطلبه . بل نحن نتطلب منه ايضاً أن تكون عاطفته هذه عاطفة فنية ، أعني أن تكون عاطفة يقبلها الذوق الجمالي ويجد فيها القارىء إمتاعاً جمالياً . فإن كانت كذلك قبلنا قصيدته كعمل فني ، أما إن نفر منها ذوقنا — نعني ذوقنا الجمالي المحض ، لا احساسنا الديني ، او الخلقي — فإننا نرفضها ، ويكون رفضنا هذا رفضاً فنياً محضاً .

وتعليل هذا أن ليست كل التجارب والإحساسات البشرية بصالحة موضوعاً للفن ، بل منها ما يجب أن يتحاشاه الأديب وسائر الفنانين ، لا لأنه يخدش شعورنا الخلقي ، ولا لأنه يضر بالمجتمع (فهذه اعتبارات لا تدخل في موضوعنا الحالي) ، بل لأنه يثير فينا اشمئزاز جمالياً ، فنجده قبيحاً .

فلو أننا رأينا رجلاً يقضي حاجته في الطريق العام ، لمـا كان شعورنا مجرد احتجاج صحي ، او إدانة خلقية ، بل يكون قسم كبير منه ، قسم مستقل عن المشاعر الأخرى ، نفوراً جمالياً محضاً ، اذ يؤذي هذا المنظر ذوقنا الجمالي . لذلك يتحاشى الفنانون — أدباء ورسامين ونحاتين — تناول هذه التجربة التي هي من ألزم تجاربنا الحيوية ، ما عدا قليلين من الأدباء (منهم سويفت في الأدب

الانجليزي ، ورابليه في الأدب الفرنسي) تقوم ندرتهم شاهداً على كونهم الاستثناء الذي يثبت القاعدة . [١]

ولنعد الآن إلى الرائية . نسلم بأن بشاراً نجح نجاحاً فائقاً في تصوير عاطفته وتجسيم التجربة التي يصفها ، وهي تجربة صادقة وقعت له حقاً . ولكن بقي أن نسأل : أهذه عاطفة يقبلها الفن ؟ أهذه تجربة تدخل في حدوده الفنية الخالصة فتبعث فينا متعة جمالية ولا تثير اشمئزازاً ذوقيا ؟

هذا رجل يصف إغراءه لفتاة عذراء قليلة التجربة ضعيفة الحول ، ويصف ويصور دهاءه في اتخاذ الخطوات إلى إغوائها والتدرج في إثارة شبقها حتى يغلبه على رهبتها وخوفها . ولو اقترن وصفه بالحب الحقيقي للفتاة ، او تبعه العطف على مصابها ، لربما قبلناه . ولكنه لا يحبها هي ، ولا يعطف عليها إطلاقاً ، بل يتخذها مجرد فريسة للانتهاك ، ويفرح بمصابها ويشمت فيها . وهو يقلد تفجعها وتحسرها بأسلوب بالغ التهكم فظيع التخنث ، لا يدل على شفقة او رثاء بل ينفس عن قسوة هائلة وحقد مريع . وهذه كلها عواطف اذا اجتمعت صارت شديدة الإيلام لنا زائدة الجرح لشعورنا ، لسنا نعني الجرح الخلقي وحده ، بل الجرح الفني أيضاً .

فسر إيلامها الفني هو اجتماعها وتعاضدها على إيذائنا حتى تبلغ حداً لا يطاق . ولو كانت كل منها بمفردها في قصيدة لربما استطعنا قبولها .

قد نقبل قصيدة يزهو فيها الشاعر بنجاحه الغرامي بل يفخر بإغرائه فتاة عفيفة . ونحن نقبل فعلا قصائد من هذا النوع لعمر بن أبي ربيعة ، أهمها وأعظمها رائيته المشهورة . لكن عمر في قصائده المشار اليها يعبر عن حب حقيقي

---

(١) هناك أيضا تمثال « الصبي الذي يتبول » المشهور في بروكسل. وكان أحد التجار الأغنياء قد فقد ابنه أياما وأعياه البحث عنه ، ثم عثر عليه وهو يتبول، فأقام ذلك التمثال في نفس المكان تخليدا لفرحته . وهو تمثال يفخر به أهل بروكسل ، ويحبه السائحون، ويلتقطون له صورا كثيرة ، لكنه هو أيضا حالة خاصة لا يمكن تعميم الحكم منها .

لفتياته ، ويعبر عن عطف شديد عليهن وجزع صادق لمأزقهن وإن يكن هو سببه ، حتى إنه ليبكي معهن بكاء صادقاً على ما حدث منه :

وقد نقبل قصيدة يعبر فيها الشاعر عن سخطه على الناس ، ونحن نقبل فعلا قصائد من هذا النوع للمعري . بل قد نقبل قصيدة يزيد فيها السخط إلى حد تمنى الأذى للبشر والدعوة إلى الانتقام منهم والبطش بهم ، مثلما نقبل من المتنبي بعض شعره في هذا الغرض ، ونقبل ايضاً قصائد للجاهليين يتم فيها هذا الانتقام من الأعداء ويفرح الشاعر به ويتشفى فيهم . (١)

اما حين تجتمع كل هذه العواطف في تجربة واحدة فانها أمضّ من أن نطيقها . لذلك نرفض رائية بشار بالحكم الفني وحده .

ويعززنا في هذا الرفض اعتبار آخر مهم جداً ، وهو ايضا اعتبار فني محض : أن بشارا أخفق في أن يبتعث فينا المشاركة العاطفية له .

فهدف الفن ليس أن يصور عاطفة الفنان فحسب ، بل أن يحمل قارئه او ناظره أو سامعه على أن يشارك الفنان عاطفته ، فيفرح لفرحه ، او يألم لألمه ، او يزهو لزهوه ، او يغضب لغضبه . ونحن نعني المشاركة العاطفية الفنية ، لا الموافقة الفكرية الايديولوجية . وهذا غرض أخفق بشار إخفاقاً تاماً في الوصول اليه ، فلا نحن نعجب بمهارته في الإغراء، ولا نحن نسخر من الفتاة كما يريد منا أن نسخر منها . بل النتيجة الوحيدة لمحاولته هي أن ننفر منه وننحاز إلى صف الفتاة انحيازاً تاماً — نعني مرة أخرى الانحياز العاطفي الفني . والأديب الذي يعجز عن أن يثير فينا نظير عاطفته ، ولا يكن السبب ضعف بصيرتنا الأدبية او قلة تدريبنا الفني ، قد أخفق في أن ينتج أدباً .

---

(١) سبب قبولنا الفني لهذا النوع من الأدب أننا نرى أنه يحدث في قارئه وسامعه « التطهير » الذي يسمى في النقد الأدبي Catharsis .

هذا ، بتعديل طفيف ، وباضافة الأبيات الجديدة التي يحتويها ديوان بشار بن برد ، هو ما كتبته في دراسة رائية بشار في الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، منذ عشرين سنة . لكن بعض الزملاء والأصدقاء ، وعدداً من القراء ، قالوا إنني وقعت في الخطأ الذي حذرت منه ، فجاء حكمي على القصيدة حكماً خلقياً في حقيقته ، برغم كل ما بذلت من جهد في التفريق بين الحكم الخلقي والحكم الفني . فنفوري من القصيدة نفور خلقي ، وليس نفوري الفني المزعوم الا نابعاً منه ، ومتلوناً به .

وكنت أرفض هذا الرأي وأنكره . لكن تقدمي في السن ، واستمراري في القراءة ، واتصال تجربتي في الدراسة والتدريس ، أقنعني تدريجاً بما في قولهم من الصحة . ثم إن ازدياد تفكيري في هذه المسألة المعقدة ، مسألة الفن والأخلاق ، أظهر لي ما في كتابتي الماضية من سطحية وعدم نضج ، فالمثل الذي ضربته ، عن تجربة قضاء الحاجة الضرورية ، لا يكفي لمعالجة هذه المشكلة الشائكة المتعددة الجوانب ، بل هو تهرب منها باللجوء إلى تدليل ساذج .

وأهم من هذا كله أن رأيي في ارتباط الفن بالأخلاق قد تغير تغيراً كبيراً . فما عدت اوافق على تلك السطور التي كتبتها : « فالفن — رضينا بهذا أو لم نرض — لا يحكم عليه في مجال النقد الأدبي بمقاييس الأخلاق . بل المقياس الصحيح الوحيد في مجال النقد الأدبي هو المقياس الفني المحض ، هل يرضى شعورنا الفني او لا يرضيه . »

حقاً إنني كررت قولي « في مجال النقد الأدبي » مرتين . لكن هذا لا يكفي في مواجهة المشكلة . فما مجال النقد الأدبي هذا ؟ وما هذا المقياس الفني المحض الذي ادعيت وجوده ؟ الحق أنني كنت ما زلت متأثراً بعض التأثر بنظرية الفن للفن وحده ، وأنا أدري أنه ما يزال من نقاد الغرب ومن نقادنا من يؤمنون بهذه النظرية ، حتى في أشد صورها إسرافاً ، لكني لست من هؤلاء ، وقد بينت رأيي

الذي تطورت اليه في كتب متعددة ، أدخلها في هذا الموضوع كتاب « طبيعة الفن ومسئولية الفنان » ، وكتاب « وظيفة الادب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي » .

ولن أكرر هنا الحجج التي قدمتها في الكتابين المذكورين ، إنما الخص رأيي الراهن في قولي إننا لا نستطيع أن ننفي المسئولية الأخلاقية للفنان بتلك السهولة التي فعلتها سابقاً .

ليس معنى قولي هذا أنني « أطبق » على الفن المقاييس الأخلاقية التي توجد في مجتمع ما في عصر ما . فإني اتحرج أشد التحرج من هذا التطبيق ، وأعارض من يفعلونه . بل أعتقد أن من أهم وظائف الفنان أن يعارض بعض المقاييس الأخلاقية السائدة في مجتمعه وعصره ، ويدعو إلى تغييرها .

لكن ينبغي ألا يكون معنى هذا تحرير الفن من كل قيم أخلاقية ، والاحتكام فيه إلى مجرد قيم فنية مدعاة ، كما فعلت في فصلي الماضي . فالفن ، في منتهى مطافه ، نشاط بشري من النشاطات البشرية التي ينبغي أن تكون نتيجتها النهائية زيادة حظ الانسانية من الارتفاع ،المادي والروحي ، والسعادة ، المادية والروحية. ومحاولة إخراجه من هذه النشاطات وجعله استثناء من ذلك الحكم الإنساني العام لن يفيد الإنسانية ، ولن يفيد الفن نفسه في النهاية ، بل سيقوده إلى الانهيار ، كما قاد فعلاً مدارسه التي أسرفت في اطلاق الفن من الاعتبار الأخلاقي .

ليس هذا فحسب ، بل الفن أكبر خضوعاً للاعتبار الأخلاقي العام (مكرراً كلمة « العام » هذه ، ونافياً أن يكون معناها تقاليد أخلاقية معينة في مجتمع معين وعصر معين) ، من كثير من النشاطات الإنسانية الأخرى ، وذلك لعظم أهميته ، وفرط تأثيره في قارئيه وناظريه وسامعيه .

لست أنكر أن هناك « قيماً فنية » ، ومعظم عملي محاولة لاستجلائها لنفسي ، وتجليتها لطلبتي وقرائي ، فيما أدرس من إنتاجات الشعر العربي ، قديمه وحديثه . لكن الذي أنكره الآن ، والذي صرت إلى إنكاره منذ سنوات ، هو أن تكون

هذه القيم الفنية « جمالية » خالصة . فقد اتضح لي أن القول بوجود مثل جمالية « استاطيقية » خالصة هو محض خرافة .

اما حقيقة الأمر في القيم الفنية ، فهي أنها خلاصة اعتبارات كثيرة متشابكة متعقدة ، منها بلا شك الاعتبار الذوقي ، لكن منها اعتبار الصدق في التجربة والانفعالات ، والاعتبار الفكري ، والاعتبار الوطني ، والاعتبار السياسي ، والاعتبار الاجتماعي ، والاعتبار المادي ، والاعتبار الروحي ، والاعتبار الأخلاقي .

وأكثر الأخطاء التي تحدث في الأحكام النقدية تنجم عن تحكيم اعتبار واحد من هذه الاعتبارات المتعددة المتشابكة . وإهمال الاعتبارات الأخرى . والخطأ الذي وقعت فيه آنفاً هو محاولة تحكيم الاعتبار الذوقي وحده . ولو أني كنت أدرك تعدد الاعتبارات التي يمسها العمل الفني ويثيرها ، واستحالة فصل بعضها عن بعض ، لما تكلفت ما تكلفت من الجهد في إثبات أن نفوري من رائية بشار نفور فني محض ، وليس نفوراً أخلاقياً . بل لأدركت أن النفور الأخلاقي هو اعتبار مشروع يجوز لنا ، ويجب علينا ، أن ندخله في تقديرنا النهائي للفن — إذا أخذنا حذرنا في فهم هذا الاعتبار ، فلم نخضع فيه لتقاليد معينة مبالغة التزمت .

فاذا عدت إلى الرائية في ضوء موقفي الراهن ، وجدت أنني ما زلت أرفض إدخالها في دائرة الفن المشروعة ، لكني أسلم بأن رفضي لها يقوم في جانب عظيم منه على إدانتي الأخلاقية لها ، ولا أرى حرجاً في التصريح بهذا الاعتراف .

لكن هذا الرفض مني لا يصدر عني بطمأنينة كاملة وثقة تامة ، إذ أعود فأتأمل في صدق تجربتها وصدق انفعالاتها ، وفي قوتها التعبيرية الكبيرة ونجاحها التصويري الفائق ، وأسمع كلام اصدقائي وزملائي الذين يقولون إن هذا الجانب فيها يرجح على جانب كراهتها الأخلاقية ، ويستشهدون عليّ بما قلت بنفسي من أنها تهدم غرضها في إغراء الفتيان وتعليمهم طرق الإيقاع بالفتيات ، بما تقدم للفتيات من تبصير بحيل الرجال حتى يأمنّ الوقوع في حبائلهم.

لذلك أترك الحكم لقرائي ، آملاً أن أسمع آراءهم في هذه المسألة . ولست أعني المسألة العامة مسألة الفن والاخلاق ، فالكلام العام فيها قليل الفائدة ، إنما أعني حكمهم المحدد على الرائية نفسها ، هل يقبلونها في دائرة الفن او ينفونها عنها. ولن تعنيني آراء المتطرفين في أحد النقيضين ، من يأخذون الفن بالإلزام الأخلاقي المتزمت ، ومن يطلقون الفن من كل اعتبار اخلاقي .

فكلا هؤلاء وهؤلاء سيكون لهم رأي جاهز مسبق ، بالرفض أو بالقبول . إنما تهمني آراء من يشاركونني موقفي ، فيؤمنون بتعدد الاعتبارات التي تدخل في الحكم الفني ، واستحالة الفصل بينها ، وخطأ هذه المحاولة ، ويسلمون بأن الاعتبار الأخلاقي يجوز إدخاله في الحكم الفني ، لكنهم يحذرون التزمت فيه والإسراف في تطبيقه ، ويبذلون جهدهم في أن يسمحوا للفنان بأقصى حرية ممكنة . فما رأي هؤلاء في رائية بشار ؟

الجانب الثاني : نور

الرائية وظلها الكثيف

أخشى أن أكون بدراستي المصارحة للقصيدة الرائية قد هدمت على نفسي كل ما بنيته سابقاً من حمل القراء على مسامحة بشار والعطف عليه ، فقد اضطرني واجب الصدق النقدي إلى الكشف عن كل قسوتها ، لم أخف منها شيئاً .

ولست ألوم القارىء الذي تؤلمه الرائية فيضيق بصاحبها ويسخط عليه ويهم بأن يرتد إلى رأيه السابق فيه من الذم الخالص والادانة الكاملة . وأنا ما قرأتها إلا كدت أفعل ذلك . ولكننا يجب ألاّ نسمح لسخطنا من قصيدة واحدة بأن ينسينا كل ما استكشفنا من الحقائق ، سواء في تفهم نقائص بشار واستطلاع أسبابها ، أو في تجلية جوانبه الخيرة الهامة ، وإلا أفسدنا الصورة الصحيحة العميقة الشاملة التي كوناها عن شخصيته وعدنا نتحدث عنه كما يتحدث سائر الناس الذين يكتفون بالنظر إلى عيوبه نظراً سطحياً لا يتعمق أصولها .

مهما تؤذنا الرائية فيجب قبل أن نصدر حكمنا النهائي على بشار أن نسكن من غضبنا ونستعيد هدوءنا ونعود إلى التفكير فيه وفي حياته تفكيراً شاملاً واسعاً لا يطغى عليه انفعال واحد ناشىء عن تجربة واحدة . ولسنا نعني الآن وجوب العطف والتسامح في الدراسة الأدبية ، بل القاضي المحايد نفسه لا ينطق بحكمه وهو في حالة عاطفية هائجة ضد المتهم ، ولو فعل لما كان حكمه الذي يصدر عنه

في هذه الحالة حكماً عادلاً ، بل هو يرغم نفسه على الهدوء والتروي وضبط الشعور مهما تكن جريمة المتهم من الشناعة ، بل كلما زادت شناعة الجريمة زادت حاجته إلى ضبط شعوره وتهدئة انفعاله . هذا ما يفعله القاضي المحايد التام الحياد فلا أقل من أن نكون مثله .

لا بد أولا أن أنبه القارىء إلى أنه ليس في كلامي الذي سيلي أي محاولة في التخفيف من شناعة الرائية أو التهوين من قسوتها البغيضة وحقدها المذموم. ولا فيه أي محاولة لتبريرها بأي عذر من الأعذار . لن أحاول أن أخفف أو أهون ولن أحاول أن أبرر ، ولكني سأحاول أن « أفهم » . هذا كل ما سأفعله وهذا كل ما يعنيني .

فالحق أن ليس في هذه القصيدة ما يدعونا إلى تغيير رأينا الذي كوناه عن بشار بعد ما مضى من الدراسة المتمهلة المستوفية. صحيح أنها تطلعنا في بشار على قسوة مفرطة وكره للبشرية زائد ، ولكن لا تزال الحقيقة في هذا الكره وتلك القسوة ما قررناه من قبل ، أنهما صفتان مكتسبتان وليستا خصلتين أصيلتين .

بشار لم يكن شريراً في جبلته ولا قاسياً حقوداً بطبيعته ، بل الذي أثار فيه شره وقسوته وحقده على الناس ظروف مجتمعه وتجارب سيرته التي فصلنا الحديث عنها ولا نريد أن نكررها هنا . فليتأمل القارىء فيها مرة أخرى وليذكر نفسه وهو يقرأ الرائية بان الناس قد جلبوا على أنفسهم هذا الشر بسلوكهم نحو بشار .

بل الرائية نفسها تثبت ما نقول . فالقارىء وقد درسها دراسة متملية قد تبدي له أن إفحاشها غير مقصود لذاته ، بل للانتقام (١) . فما فيها من أسراف في

(١) في سنة قضيتها في الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٦٧ — ١٩٦٨) عرفت بنفسي عدداً من الأمثلة ، وسمعت وقرأت كثيراً من الأخبار ، لشبان من زنوج امريكا تطغى بهم نفس الروح الانتقامية ، فيعبرون عنها نفس التعبير الذي فعله بشار حين أغرى فتاة الرائية . فهم في سخطهم على ما يلاقون من البيض المتعصبين من الإساءة والا ضطهاد والمعاملة غير الا نسانية ، يصرفون جهدهم في إغراء الفتيات البيضاوات ، ويبلغون مدى بعيداً من الغواية والافساد ، يساعدهم عليه ما تجد فيهم اولئك الفتيات من جاذبية خاصة ، وما اشتهروا به من قوة جنسية يقال إنها تتفوق كثيراً على قدرة الرجال البيض . ولست أشير هنا إلى حوادث الاغتصاب القسري ، بل أعني حوادث الإغراء التي يتم فيها التسليم من جانب الفتاة .

القسوة متعمد ، أعني أنه ليس صادراً صدوراً طبيعياً عن نفسه ، بل هو الذي أرغم نفسه عليه مبالغة في الانتقام والمكايدة . فلا بد أنه حين قالها كان في أزمة نفسية حالكة السواد ، فالقصيدة إنما تدل على هذه الحالة الوقتية ولا تدل على عموم نفسيته أو إجمال سيرته ، اللهم إلا إذا وجدنا له شعراً آخر كثيراً من هذا النوع ، وهذا ما لا نجده .

نستطيع إذن أن نعود فنكرر — وإن كان أغلب ظننا أن القارىء سيصعب عليه الآن أن يقبل كلامنا — أن بشاراً في دخيلة نفسه وأصيل طبعه كان انساناً طيب القلب به استعداد للرحمة وتهيؤ للخير ، فإن كان قد انتهى إلى ما انتهى اليه فلسنا نريد أن نزعم أنه ليس ملوماً ، بل نريد أن نقرر أنه لم يكن وحده الملوم . بل هو برغم كل ما قاسى ظل إلى آخر أيامه محتفظاً بنصيب عظيم من هذه الطبيعة الخيرة ، تجلى لنا في نواحيه المضيئة العديدة التي استجليناها في القسم الماضي من هذا الكتاب .

وهنا تتبدى لنا — مرة أخرى — الروعة الحقيقية لهذه النواحي المضيئة ، وهي أنه احتفظ بها برغم كل ما اجتمع عليه من ظروف خليقة بأن تبتعث فيه القسوة والحقد والشر العظيم . فالرائية لا تغطي على هذه النواحي المضيئة ولا تكسفها ، بل تزيدها بالمقارنة تألقاً وبهاء .فنفس الرجل الذي اضطره مجتمعه إلى ما رأينا في الرائية من الفساد والاجرام ، استطاع مع ذلك أن يظل باراً بأهل بيته ، محباً لأصدقائه عطوفاً عليهم عظيم المودة لهم ، كريماً سخي الكرم عليهم وعلى غيرهم ، حناناً رقيق القلب نحو بعض المحيطين به وإن لم يكن نحو جميعهم ، آخذاً نفسه في كثير من الأحيان بالصبر والعفو والأعراض ، فكهاً حلو الحديث لذيذ المسامرة ، بل قد احتفظ بفكاهته الجيدة حتى الساعات الأخيرة من حياته ، وهذا كله يرغمنا على التساؤل مرة أخرى : ترى ماذا كانت حاله تكون لو عاش عيشة أسعد ولقي معاملة خيراً مما لقي .

ولكن دعك من هذا السؤال النظري وعد إذا شئت إلى الرائية نفسها . مهما يكن فسادها وإيلامها ، أفتستغربها من رجل لقي ما ذكرنا من المحن والآلام ،

وعاني ما وصفنا من الإساءة والاضطهاد ، وذاق ما سجلنا من نكد الطبيعة ونكد البشر ؟ لعلك إن فكرت في هذه المسألة انتهيت إلى هذا الرأي : ليس الغريب أن بشاراً نظم هذه القصيدة القاسية ، بل الغريب أننا لا نجد في شعره سواها من نوعها .

هذه هي الحقيقة التي أريد الآن أن ألح في تنبيه القارىء إليها ، ليس الغريب أننا نجد في شعره هذا السهم المسموم ، بل الغريب أننا لا نجد فيه سهاماً كثيرة مثله . ولقد وجد كارهون للبشر سددوا إلى قلب الانسانية سهاماً أكثر عدداً ، ولم يكن لهم معشار أسبابه في بغض البشرية ، لا من العاهات الطبيعية ولا من الظلم الانساني .

للقارىء أن يوافقني على ما قلت في مناقشتي الماضية، وله أن يخالفني ، لكنه لا يستطيع أن ينفي هذه الحقيقة التي ذكرتها ، أن رائية بشار فريدة في شعره ، فمهما يكن حكم القارىء عليه في هذه القصيدة ،فالواجب أن لا يدعها تغطي على سائر شعره ، وألا يقبل على هذا الشعر متأثراً بهذه القصيدة .

وهذا للأسف الشديد ما فعله نقادنا . فقد سممت عليهم الرائية نظرتهم في سائر غزل بشار ، فلم يروا فيه إلا ما وجدوه في الرائية من العنف الحيواني والانتهاك الوحشي ، فحكموا بأنه كان كذلك في جميع علاقاته مع جميع النساء ، وتبعهم – بطبيعة الحال – سائر المدرسين والدارسين في هذا الظن ، والحق أنهم وقعوا في خطأ منطقي بسيط . وهذا هو الخطأ : بعض شعر بشار شنيع . هذا شعر لبشار . إذن هذا شعر شنيع .

ولكني لا أريد أن اتجنى عليهم ، فما سميته خطأ منطقياً بسيطاً هو حقاً خطأ بسيط ، ولكن الذي أوقعهم فيه حالة نفسية عظيمة الاضطراب شديدة التعقد ، وكذلك الشأن في معظم أخطائنا المنطقية . إنما تبدو لنا بسيطة إلى درجة السخافة حين نضعها في القالب المنطقي ، ولكننا في حياتنا المرتبكة الانفعالات المعقدة العواطف لا نفكر في معظم المسائل في حدود القوالب المنطقية ، فهم قد

رأوا لبشار قصيدة هاجت فيهم أتم بغضهم وأشد استشناعهم ، فحكموا بأن قائلها لا بد أن يكون على نصيب معادل من الفساد والشر ، ثم حكموا بأن مثل هذا الفاسد الشرير مستحيل عليه أن يكون في أي مجال آخر طيباً رقيقاً . وحالتهم النفسية هذه نعذرهم عليها بل نوافقهم فيها ، ولكن أحكامهم التي نجمت عنها تامة الخطأ . فنعود نحن فنقول : بلى ، نفس الرجل الذي تصدر عنه هذه القسوة قد تصدر عنه آيات الحنان والرحمة في مجال آخر ، فالعواطف الإنسانية المتناقضة تتراوحنا جميعاً ، وما أكثر الرجال المتعففين الذين تنطق ألسنتهم أحياناً بهجر القول ورفث الحديث ، وما أكثر الذين يقسون على بعض الناس قسوة مفرطة ويرقون على بعضهم الآخر رقة مفرطة ، فوجود خصلة في بعض الأحيان لا ينفي وجود نقيضها في أحيان أخرى ، وقد قرأت من شهور قليلة عن رسام انجليزي كانت حالته مشابهة ، فله رسوم دينية غاية في الطهارة والنقاء ، والناس لا يعرفونه إلا بها ولا يتحدثون إلا عن دينه وطهره وفضيلته ، فلما مات عثر أحد أصدقائه المقربين بين أوراقه على رسوم جنسية فظيعة الإفحاش !

ولكن بشارا لنحسه قد حدث له العكس ، فرائيته قد ألقت على شعره ظلا كثيفاً شديد الحلكة ، لم يستطع الناس من خلاله أن يتبينوا في أي غزلية أخرى له عاطفة رقيقة أو حباً مخلصاً أو حناناً وادعاً ، فان وجدوا في غزله عذوبة لا يستطيعون انكارها ونغمة رقيقة لا يمكنهم تجاهلها قالوا هي عذوبة الخليع وسلاسة المتهتك الخبير الذي لا يقصد سوى أن يسهل شعره على الألسنة حتى يذيع وينتشر فيعم فساده بين الشبان والنساء ..

والحق أن هذا التعليل لرقة غزل بشار شديد الخطأ ، فالذي يستطيع أن يزيل عن غزله ذلك الظل الكثيف الذي ألقته عليه رائيته سيرغم على أن يعترف بأن ما فيه من عذوبة ظاهرة ورقة بادية ليس متكلفاً لمأرب عملي لا صلة له بينابيع الشعر ومصادر الفن ، بل هو ينبع عن نفسية عظيمة الحنان زاخرة الحب ، ويصدر عن قلب رقيق يهتز للجمال اهتزازاً شعرياً لا عن جسم يهتز له مجرد اهتزاز حيواني . فلتلك الرقة اللفظية حلاوة صافية وعذوبة خالصة مستحيل أن تكونا صدرتا تكلفا

عن وحش مفترس يلبس قناع البشاشة والابتسام ، أو أن تكونا نبعتا عن قلب صخري صلد هو في صميمه مغلق أمــام عواطف الإنسانية الرحيمة ولكنه يتصنع الرقة ليخادع الناس ويفترس الضحايا ، وكل ما تحتاج اليه لاستجلاء هذا الضياء المنير في سائر غزل بشار هو أن تزيح عنه ذلك الظل الكثيف الذي وصفناه . وهو عبء أكلف القارىء به وأنا أعرف جد المعرفة مبلغ صعوبته ، ولكنه شرط لا مناص من استيفائه أن أراد أن يحسن دراسة شعره ، فليحاول جهده وليكرر المحاولة ولينظر ماذا يرى .

صبية

تأمل في هذه القصيدة :

عجبت فطمة من نعتي لهـــا ... أيجيد النعت مكفوف البصر؟
بنت عشر وثلاث قسمـــت ... بين غصن وكثيب وقمـــر
درة بحريـــة مكنونـــة ... ما زها التاجر من بين الـــدرر
أذرت الدمـــع وقالت ويلتـــي ... من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتا بـــدد هـــذا لعبـــي ... ووشاحي حلـــه حتى انتثر
فدعيني معـــه يـــا أمتـــا ... علنا في خلوة نقضي الوطر
أقبلت مغضبـــة تضربهـــا ... واعتراها كجنـــون مستعر
بأبي والله مـــا. أحسنـــه ... دمع عين يغسل الكحل قطر
أيها النوام هبـــوا ويحكـــم ... واسألوني اليوم ما طعم السهر

وإنما بدأناك بها لأنها قد تكون أشد قصائده تأثراً بظل الرائية الكثيف ، فإن استطعت نفي هذا الظل عنها واستجلاء رقها وحلاوتها وظرف دعابتها سهل عليك باقي غزله فربما رأيت فيه رأينا .

فهنا أيضاً أنثى تبكي وتذري الدمع ، وتشكو قسوة بشار عليها . وفي هذه

القصيدة ــ وهي أيضاً رائية ! ــ حل للوشاح بل فيها ضرب عنيف . ولكن ما أعظم الخلاف بينها وبين الرائية السابقة ! هذه في واد وتلك في واد . هذه نسمة من نسائم السعادة والرضى وتلك لفحة من لفحات الجحيم . فهذه الرائية الجديدة مرحة طروب لاهية ، فيها نشوة حلوة لا مرارة فيها ومداعبة لا تصل حد الغلظة والجهامة ومكر صبياني لم يتحول بعد إلى دهاء قاس مسموم .

وأول ما يجب أن تعرفه أنها من أول شعره في الغزل ، فقد نظمها في صباه أو حين بدأ يدخل في عصر شبابه ، ولم يكن الناس قد أطالوا بعد في تعذيبه ، ولم يكن اضطهادهم إياه قد أوصله بعد إلى نهاية سخطه وحقده ، ولذلك لا تجد فيها كرها للناس ولا نقمة عليهم ، بل تجد رضى عن الحياة ومسالمة واستبشاراً ومرحاً ، فالقدماء يقولون أنه نظمها في حبه الأول ، والقصة التي تقصها القصيدة هي أنه لاعب صبية في الثالثة عشرة من عمرها فكان بينهما ما يكون بين الصبيان المتلاعبين من مخاصمة ينسونها في صبيحة اليوم التالي . فبشار يصف افتتانه بها، بجمالها الطاهر البريء وبسذاجتها الصبيانية المضحكة .

فان أردت أن تدرس هذه القصيدة لترى أصحيحة أحكامي هذه أم خاطئة ، فلنبدأ بأن نتفق على حقيقة لا أظن فيها مجالاً للخلاف : رقتها اللفظية العظيمة وما فيها من سلاسة عذبة . أفتخفي هذه الرقة قلباً غليظاً أم تمتزج هذه العذوبة بسم نقيع ؟ فلنتأمل أبياتها بيتاً بيتاً حتى نحقق هذه المسألة .

عجبت فطمـــة من نعتي لهـــا   أيجيد النعت مكفوف البصر

يريد بهذا البيت أن يصور سذاجتها الناشئة من صغر سنها وضحالة فكرها ، تسمع شعره في وصفها فتتعجب في حيرة شديدة من استطاعته وصفها وهو لا يستطيع أن يراها ، لا تدري أنه يستطيع أن يكوّن عنها في مخيلته صورة محببة جميلة مشتقة من استماعه لوصف الناس لها وفهمه هذا الوصف بترجمته إلى خياله الخاص ، ومن إحساساته التي يتلقاها هو عنها عن طريق السمع . والشم ، واللمس ، يسمع صوتها الحلو البريء ، ويشم رائحتها العبقة الزكية ، ويلمس

في ملاعبته إياها جلدها النضر الرقيق ، فيكوّن من امتزاج هذه الاحساسات ، مضافاً إليها الأوصاف العينية التي يسمعها ممن يرونها ، صورة عن جمالها وعن شخصيتها تحببه فيها ، فليس البصر هو طريق المعرفة الوحيد ، ولكن أنى لهذه الصغيرة أن تعرف ذلك ؟ فدهشتها في هذا البيت دهشة صبيانية حلوة تعجبنا بسذاجتها اللطيفة ، وبشار حين يهزأ منها فهو الضحك الممتزج بالحنان والإعجاب الذي يضحكه أحدنا حين يرى تصرفاً سخيفاً من طفل له ، لا يصل درجة السخرية الأليمة أو التهكم المر الذي وجدناه في وصفه لحيرة الفتاة الأخرى كيف تخفي أثر العض في شفتها ، وتحويله لاسمها من « فاطمة » إلى الصيغة العامية « فطمة » غاية في الظرف ، وهو أيضاً ناجم عن الحب والتدليل .

بنت عشر وثلاث قسمـــت بين غصن وكثيب وقمر

هذا بيت راقص التنغيم ذو موسيقية مرحة . قسم كلماته تقسيماً ماهراً بحيث تستقل كل تفعيلة من التفعيلات الست ولا تندمج إحداها في الأخرى ، حتى تستطيع إذا تغنيت في البيت أن تقف وقفات خمسا في خلاله تطلق فيها صوتك بالترجيع وتنوعه في ألحانه كما تشاء بين علو وهبوط واستئناف ومجاوبة . بنت عشر — وثلاث — قسمت — بين غصن — وكثيب — وقمر . والعنو بنات الأربع تسمح لك بترديد الصدى حتى تربط بين جميع أنغامك ، وتسمح للمغنين الذين جاءوا إلى هذا البيت فوضعوا فيه ألحانهم أن يستعملوا آلاتهم الموسيقية لتجاوب أصواتهم البشرية . وكأن بشارا حين يقول إنها بنت ثلاث عشرة سنة يعتذر عن سذاجتها في البيت الماضي . ولكنك لا تقدر جمال البيت تقديراً تاماً إذا نظرت إلى تقسيمه إياها بين الغصن والكثيب والقمر بالنظرة التي ينالها منا من يستعمل هذا الأسلوب في يومنا هذا من شعرائنا المعاصرين ، فهذا معنى قد ابتذل الآن لكثرة ما تعاوره الشعراء وقلبوه ، أما في عصر بشار فكان لا يزال جديداً ظريفاً لما تبتذله كثرة الاستعمال ، فانظر إليه نظرة معاصريه فلا بد أنهم اعجبوا بظرفه . وكذلك في قراءتك لكل الشعر القديم جاهليه وأمويه حاول أن تعثر على المعدن الأصيل الصادق الذي لم يرخص بعد بكثرة تداول الأيدي له في موضعه وفي

غير موضعه . فان قرأت مثلا قول زهير عن تنازع المها والدر والظباء في شبه المحبوبة فتخيل دهشة معاصريه وافتتانهم بهذا الأسلوب الطريف الغريب [1] .

درة بحريـــة مكنونـــة مازها التاجر من بين الـــدرر

وهذا ايضاً وصف أصيل لم يكن قد ابتذل بعد ، فالذي يستعمله في ذلك العصر ليس بالضرورة مقلداً كاذباً كالذي يستعمله في عصرنا وهو لم ير في حياته درة ولم يضمها بين أصابعه . وهو بيت يتلألأ تلألؤ الدرة وتتراقص أنغامه تراقص أضوائها ، ويعبر عن عاطفة صادقة أحسها بشار أمام تلك الصبية . فما هذه العاطفة ؟ ليست الحب وحده ، ولا الاعجاب وحده ، بل الإجلال ، يراها درة مكنونة ، أي يراها أنثى طاهرة الأنوثة لم تدنس طهارتها ولم تسترخص نفاستها ، فتبعث أنوثتها الطاهرة منه الخشوع والانبهار .

أذرت الدمع وقالت ويلتـــي من ولوع الكف ركّاب الخطر
أمتـــا بدد هـــذا لعبـــي ووشاحي حلـــه حتى انتثر

بهذين البيتين يبدأ القارىء في مواجهة الصعوبة الشديدة التي يلقاها كل من يحاول أن يتبل على غزله إقبالاً نزيهاً لا يتأثر بفكرة سابقة كونتها آراء الآخرين أو دراسة الرائية الأولى (التي نظمها بعد ا يقرب من نصف قرن من نظمه للقصيدة الحالية !) فلنفرض أن القارىء نجح في محاولته هذه فلم ير في البيتين إلا ما فيهما وحدهما . فماذا يجد فيهما ؟ ما القصة التي يقصانها ؟

القصة أن بشاراً الفتى كان يلاعب هذه الصبية . ولسنا نريد أن ندعي أن ملاعبته كانت رقيقة ناعمة ، بل كانت فيها خشونة ، ولكن ما أبعدها عن خشونة الرائية الماضية ! تلك كانت خشونة الذكر الهائج المغتصب ، وهذه لا تزيد على ذلك القدر من الخشونة الذي تجده في ملاعبة جميع الصبية . فقد بعثر لعبها التي كانت تلهو باللعب بها ، ذهبت صائحة به تلومه وتحاول منعه ، فتجاذبا تجاذب الصبيين المتشاجرين — لا تجاذباً آخر — فانحل في هذه « الخناقة » وشاحها .

---

(١) انظر كتابنا « الشعر الجاهلى » ص ٤٧٠ — ٤٧١ .

فهذ كل ما يدل عليه حل الوشاح في هذه الحادثة . سيبادر القارىء بأن يسأل : ولكن ما معنى « ولوع الكف ركاب الخطر » ، وما معنى « نقضي الوطر » في البيت الذي سيلي ؟ وهذا سؤال سنتأمل الجواب الصحيح عليه بعد قليل ، ولكن لا بد أولا من أن نتابع القصة لننظر ماذا حدث بعد ذلك . الذي حدث أنها ذهبت باكية تشكو إلى حاضنتها . فهذه أيضاً أنثى تذري الدمع وتندب وتصيح ، ولكن ما أعظم اختلاف هذا الموقف عن موقف الأخرى ! هذه دموع لا حرارة فيها ، دموع لاهية لا تعرف الكوارث الحقة في الحياة ، دموع الصبيان سرعان ما تجف وتحل محلها ابتسامة الرضى وتألق العين بالحبور واستئناف المرح والأقبال على الحياة، فهي دموع لا تثير فينا حزناً ولا سخطاً ، بل تحملنا على الضحك ثم العطف والحنان ثم شيء من الحسد نحسده هؤلاء الصبية الأغرار الذين لم يتجرعوا بعد من الحياة ما يجلب إلى عيونهم الدمع المرير المحرق، والذين أقصى مصابهم أن تتحطم دماهم أو تتمزق ملابسهم ، فنتذكر أيام كنا نحن أيضاً لا نعرف من نقمة الحياة ونقمة الناس إلا هذا القدر الهين .

تفر الصبية إلى حاضنتها صائحة شاكية، ولكننا نعرف أن صياحها وشكواها ليس الشأن فيهما الا كسائر الصبيان ، سرعان ما تنسى وتريد العودة إلى بشار لتلاعبه ، ولكن ما لم تكن تتوقعه ، وهو أن أمتها تحرم عليها العودة إلى ملاعبته . وهنا نستكشف سر « ولوع الكف ركاب الخطر » وسر « في خلوة نقضي الوطر » .

فهاتان جملتان لم تصدرا عن الصبية ، بل ينسبهما بشار اليها . وهو لا ينسبهما إلا بعد انتهاء « الخناقة » حين بلغه غضب الأمة وتحريمها على الصبية أن تعود إليه ، ولا يدفعه إلى ذلك إلا رغبة أن يغيظها ويزيد من غضبها ، وأن يضحكنا من هذه العجوز الحمقاء الغضبى التي تضرب الصبية على غير ذنب جنته ولسبب لا تستطيع أن تفهمه ، وهنا يجب أن نقف ونجتهد في استكشاف ما حدث حقاً لا ما يدعي بشار حدوثه حين ينسب إلى الصبية الجملتين الماضيتين .

الذي حدث هو هذا : عادت الصبية إلى حاضنتها تنوح وتبكي ، فقصت

عليها ما فعله بشار. وما فعله لم يكن سوى تهارش الصبية ليس من ورائه قصد سيء. ولكن الحاضنة لا تسلم بهذا، بل تظن فيه الظنون، وتفسره تفسير سيئاً، فتغضب لهذا غضباً شديداً، ونظير هذا يحدث كثيراً في قرانا حتى اليوم، تعود الصبية من ملاعبة بريئة مع فتى في القرية، فتثور في نفس أمها أو أخيها الظنون السيئة ويحاولان منعها من مثل هذه الملاعبة في المستقبل. فلما غضبت الأمة لم تجد أمامها من نصب عليه غضبها سوى الصبية البريئة المسكينة، فتلومها لوماً قارصاً، وتحرم عليها أن تعود إلى بشار أو تلاعبه بعد اليوم، فتدهش الصبية الجاهلة دهشة بالغة من هذا الانفعال الذي لم تتوقعه والذي لا تفهم له سبباً. تنسى في الحال ما آذاها به رفيقها فتنتصر له وتسأل الأمة أن تدعها تعود إليه، وتسألها وتلح في سؤالها لم تمنعها من لقائه، فتزداد العجوز غيظاً لأنها لا تستطيع مصارحتها بالسبب الحقيقي لغضبها وهو سوء ظنها بغرض بشار، وإلا نبهتها إلى حقائق الجنس التي لا تزال عنها غافلة، فحين تلح الصبية في سؤالها وتعلن تمردها على حكم لا تفهمه، لا تتمالك الحمقاء غيظها فتقبل عليها بالضرب الشديد الحانق، فتبكي الصبية أمر بكاء يعرفه الأطفال، وهو حين يأخذهم الكبار بذنب لا يعرفونه ويرون منهم تصرفاً قبيح الظلم لا يفهمون له مبرراً.

وتبلغ القصة بشارا فيضحك ضحكاً كثيراً ويسر من محنة تلك العجوز الحمقاء، فيعمد إلى نظم قطعته ويتعمد فيها أن يزيد من غيظها بأن يدعي أن قصدهما من الملاعبة كان حقاً ما تتوهمه الأمة بسوء ظنها. والدليل على أن هذا مجرد ادعاء منه أنه ينسب إلى الصبية ما لا يمكن أن تكون قد قالته. فحين يقول:

أذرت الدمع وقالت ويلتـــي　　　من ولوع الكف ركاب الخطر

فهو ينسب إليها تعبيراً لفظياً غامزاً إلى مغزى لم تكن تفهمه، ويركب الكلمات تركيباً كانت عاجزة عنه. وحين يقول:

فدعيني معـه يـا أمتـــا　　　علنا في خلوة نقضي الوطر

فالشطر الأول كلامها بلا شك ، ولكنه يأبى إلا أن يتمه بكلام يخترعه هو وينسبه إليها ، فمستحيل أن تكون قد قالت لأمتها الشطر الثاني أو ما في معناه ، ويبعد جداً أن تكون قد فهمت بعد المغزى الحقيقي لقضاء الوطر في الخلوة ، إنما هو الذي ينسب إليها هذا الأسلوب ليزيد من حنق الحاضنة . فاذا يفعل ذلك يثير ضحكنا الشديد من هذه العجوز الرعناء المجنونة حين يقول :

أقبلت مغضبة تضربهـــا واعتراهـــا كجنون مستعر

ولكن ضحك بشار وسروره من حنق الأمة ليس قسوة خالصة بل يخالطه حنان على الصبية وحزن لما أصابها ، يبدو في هذا البيت الجميل الذي لم نجد له مثيلاً في الرائية الأخرى :

بأبى والله مـــا أحسنـــــه دمع عين يغسل الكحل قطر

يزداد بها حباً وحنانا وعطفا حين يرى دمعها أو يتصوره ، وإن كان لا يملك أن يضحك من هذا « الفصل » ، فشأنه شأن الأب يرى طفله الصغير يتعثر فيقع فيبكي ، فيضحك من خطاه المضطربة ومشيته السخيفة ولكن ضحكه مقترن بالحب والعطف والأسى لجزعه الطفولي ، لاشماتة هنا ولا تشفي . فقارن بين استجابته لدمع هذه الصبية واستجابته لدمع الأخرى ...

ثم يختم قصيدته ببيت ظاهره الحزن :

أيها النوام هبـــوا ويحكـــم واسألوني اليوم ما طعم السهر

وفيه حقاً نصيب من الحزن ، ولكنه ليس حزناً خالصاً ، بل يمتزج به قدر كبير من البشاشة والنشوة والتفاؤل ، يتضح في طرب موسيقيته وأريحية تنغيمه ، فشأنه شأن الحزن الرومانتيكي ، لا يخلو من تلذذ وعذوبة .

* * *

هذه هي القصيدة التي قلنا إنها أشد غزله وقوعاً تحت ظل الرائية البغيضة ،

ولذلك لم ير فيها نقادنا إلا ما فسروه على حسب فكرتهم المستمدة من تلك ، وهذا خطأ أقل ما يقال فيه أنه يخلط بين فترتين من حياة بشار يفصلهما ما يقرب من نصف قرن . لست أدعي أن معظم القراء سيرون فيها رأيي من القراءة الأولى، ولا من القراءة الثالثة ، فانها قد تحتاج إلى تأمل ومحاولة مكررة حتى يستطيعوا أن ينظروا فيها نظرة لا ترى فيها ما ليس فيها ، ولكنْ دعنا الآن نستكشف فيها شخصية بشار حين قالها ، فان نجحنا في هذا كان نجاحنا قيماً ، لأننا بذلك نرى شخصية بشار كما كانت في أول شبابه قبل أن تتكالب على تغييرها ظروف حياته وأحداث سيرته فتدمغها بالطابع الذي رأيناه في آخر أيامه .

فأول ما يجب أن نبادر بتسجيله هو أن بشارا لم يكن قط إنساناً ناعماً ضعيفاً ، بل كان به منذ البداية – بطبيعة تكوينه – قدر من العنف والحدة والميل إلى المشاكسة ، يتجلى في مداعبته الخشنة للصبية ، ولكن هذا ما أقررنا به ، لم ندع قط أنه كان ملكاً وديعاً . ولكن لولا ظروف بيئته لما زادت هذه الصفات عما نجده في الكثيرين من الرجال من عنف الذكورة وحدة النفسية والجرأة والاقتحام ، فالعنف والحدة قد تخفي تحتها رقة وجدانية وطيبة قلب ، ولما اتخذت قالبها الشرير الطاغي الذي انتهت إلى تلبسه .

وثاني ما نسجله عليه أن به نزوعاً إلى الانتقام ومقابلة الخصومة بالخصومة ، يتجلى هذا في تعمده أن يزيد من غيظ الأمة وإيغار صدرها بما يدعي أن الصبية قالته ، وقد كانت هذه الصفة فيه السبب الأعظم في تكاثر مصائبه وازديادها شدة بعد شدة . كلما أساء إليه الناس قابلهم بالإساءة ، وكلما أمعنوا في الخصومة أمعن وتمادى ، حتى بلغ مرحلة الكيد المتعمد غير المبدوء .

ولكننا نرى فيه مع هاتين خصلة ثالثة ، هي الحنان على من يحبهم والرثاء لما يلم بهم ، نراه في أساه الصادق من بكاء الصبية . وهذه صفة استبقاها إلى آخر أيام حياته برغم كل ما لقي وقاسى ، فلو أن الظروف واتتها لربما نمت حتى تغلبت في التكوين العام لشخصيته على شكسه ومبادرته إلى الانتقام ، فلم يزد على العبث المفاكه الذي قد يؤلم ولكن يكون ألمه وقتياً سطحياً ليس فيه حقد

دفين أو رغبة في الإيذاء القاسي . وما أكثر أصدقاءنا المغرمين بما يسمى « المزاح العملي » ، نضيق به ونتبرم وقد يؤلمنا أحياناً إيلاماً مغضباً ولكنه لا يصدر منهم عن خصومة لدود أو حقد مسموم ، فسرعان ما نغفره لهم ونعود إلى مصادقتهم وإن كنا نفضل لو لم يكونوا على هذا الميل الخبيث إلى المداعبة الحادة ...

هذه دراستنا النفسية لهذه القصيدة المبكرة ، فلندرسها الآن دراسة فنية لنرى فيها ميزات صنعته الشعرية ، فانها على تبكيرها ترى خصائص فنه الغزلي التي سنراها في سائر غزله . فأول ما يلفتنا فيها سهولتها اللفظية العظيمة ، وسلاستها ورقة جرسها ، وهي صفة تزداد في أذننا حلاوة وفي قلوبنا تمكنا كلما كررنا قراءتها وغنيناها وترنمنا فيها ، فهي في الحقيقة لم تنظم للقراءة بل ليغني فيها المغنون المعاصرون لبشار ، ولذلك اختار لها وزناً خفيفاً وقافية رقيقة الجرس .

ثم نلاحظ قصرها وإيجازها ، فبشار يكتفي بأبيات قليلة تخلص إلى التجربة التي يريد وصفها خلوصاً مباشراً بلا مقدمات ثم تنتهي حالما ينتهي من وصفها بلا تذييل ولا استطراد . فهي أبيات قليلة في تجربة واحدة .

ولكن هاتين الميزتين لم يكن بشار هو مبتكرهما في الشعر العربي ، فقد سبقه إلى استكشافهما واستغلالهما عمر ابن أبي ربيعة . فبشار في الحقيقة يتبع السنة الشعرية التي استنها عمر ، من الاقتصار على المقطوعات القصيرة ، وتحري السهولة والخفة في الأوزان التي يختارها والقوافي التي يكثر من استعمالها ، وكفى أن نذكر أن ما يقرب من ربع ديوان عمر على روي الراء وحده ، ثم تحرى السهولة والرقة في الألفاظ والتراكيب التي يصوغها .

ولكن مشابهة بشار لعمر تقتصر على هاتين الصفتين ، فان أتقنا دراسة هذه الرائية وجدنا بشارا يختلف عنه في ميزتين عظيمتي الإهمية في الفن الشعري ، وهما وحدهما كفيلتان بأن تجعلا شعره تام الاستقلال والتميز .

فبشار منذ هذه القصيدة — أي منذ بدايته الفنية — لم يكن يمارس الحوار الدرامي الخالص ، أي لم يكن كعمر الذي لا ينسب إلى المتحدثين في شعره إلا ما

قالوه ، ولا يتحدث إلا بلهجتهم الصافية يحكيها حكاية خالصة ولا يدخل عليها نبرته هو . لم يكن بشار كذلك ، بل ما يعطيه في شعره من حوار يعطيه دائما بنبرته هو ، وكثيرا ما يدخل عليه من عنده عناصر لم تكن به أصلا ، كما رأيناه في هذه القصيدة يضيف إلى الصبية جملتين لم تقلهما ، وحتى حين يقتصر على حكاية ما قيل يحكيه دائما بأسلوبه هو ويخلط عاطفته بعاطفة المتحدث ، وقد رأينا هذا أيضا في الرائية السابقة ، فما أعظم الفرق بين حوارها والحوار في شعر عمر . ففي شعر عمر نسمع نساء يتحدثن حديثا مباشرا الينا ، وفي تلك الرائية سمعنا رجلا لا نخطىء صوته الذكري يقلد صوت النساء ، فان كان غرضه من ذلك التقليد مجرد المداعبة والتظرف أثار ضحكنا ومرحنا ، وإن كان غرضه التهكم الممض كان لنا فيه رأي آخر .

والميزة الأخرى نذكرها الآن ولكننا نترك تفصيل الحديث عنها إلى القصائد القادمة ، وهي أن بشارا لا يكتفي — كما يكتفي عمر — بالسرد العادي المطرد ، بل هو مغرم بأن يأتي في أواخر قصيدته بقلب فجائي وتحوير شديد لمجرى الحديث وتغيير لنبرته التي كانت سائدة منذ أول القصيدة ، فبينا هو حزين أو شاك إذ به ينقلب إلى نكتة مرحة يتغير بها صوته تماما ، وبينا هو جاد أو متوله إذ يفاجئنا بمزحة مبتسمة ترغمنا على الضحك الشديد . وهذا جاء به في هذه القصيدة في بيتها السابع فاضطرنا إلى أن نعيد قراءتها لنفهمها فهما جديدا ونرى غرضه الحقيقي من بيتيها الرابع والسادس في الشطر الثاني من كل منهما .

فتاة

غدا مـــالك بملامـــــاته	عليّ — ومـــا بات من باليه
تناول خودا هضيم الحشى	من الحور محظوظة عـــاليه
فقلت دع اللوم في حبهـــا	فقبلك أعييت عذاليـــــه
وإني لأكتمهـــم سرهـــا	غداة تقول لهـــا الحاليه :

عبيدة ، مـــالك مسلوبـــة وكنت معطرة حـــاليه ؟
فقـــــالت على رقبة : انني رهنت المرعث خلخاليه !
بمجلس يوم سأوفي بـــه وأن أجلب الناس أحواليـــه

هذه أيضاً مقطوعة بالغة الرقة عظيمة الخفة ، فألفاظها العذبة ذات التنغيم الرشيق ، وبحرها المتقارب بتتابعه السريع وتدفقه المسترسل ، وقافيتها السلسلة من الياء المتحركة والهاء الساكنة تسبقهما فتحة ممدودة بالألف ، كل هذا يشيع فيها عذوبة وبهجة كلما زدنا القصيدة قراءة ازددنا بها إعجابا . وبشار يلتزم في القافية ما لايلزم ليضاعف من موسيقية جرسها ، وحرف اللام من أعظم الحروف العربية سلاسة ومائية ، وكل هذا يظهر من القراءة الأولى للقصيدة ، ولكن الشأن فيها كالشأن في كل الشعر الجيد والموسيقي أيضاً ، لا تظفر بمتعتهما الكاملة إلا إذا كررت قراءة الشعر أو الاستماع إلى الموسيقى حتى تلين الأنغام على لسانك وأذنك وتستكشف فيها آيات جديدة من الانسجام والإتقان كلما عدت إليها .

وهذه أيضا قصيدة مرحة طروب ، لا حنق فيها ولا قسوة ، لم ينظمها بشار في صباه بل نظمها بعد اكتمال رجولته وتمام نضجه ، وهذا يثبت لنا أنه برغم ما لقيه من مجتمعه ظل في صميمه محتفظا برقة قلبه وحنان صدره ، وهي أيضا أبيات قليلة مباشرة في تجربة واحدة ، ولكن دعنا الآن نتأمل نفس الظاهرة الفنية التي أشرنا إليها في ختام عرضنا للقصيدة الماضية .

فبينا الحديث سائر سيراً عاديا مطرداً إلى البيت الخامس إذ ببشار يقلبه قلبا ليجيء بنادرة بارعة في منتهى الظرف ، وأي قارىء يقدر الفكاهة لا يضحك ضحكا شديدا من قول الفتاة فجأة : « رهنت المرعث خلخاليه ! » .

تصور هذه الفتاة تعود إلى أمتها المتكفلة بزينتها وتطييبها القائمة على ملابسها وحليها ، فتحس الأمة بنقص في أسباب زينتها تشعر به شعورا مبهما لم يتضح لها سببه بعد ، فتسأل الفتاة في حيرة : أليس هناك شيء ينقصك ؟ فتجيب الفتاة ، ولكنها قبل أن تجيب تتلفت يمنة ويسرة لتتأكد من أن لا رقيب ، ثم تفاجىء الأمة

بصراحة متحدية : بلى ! خلخالي ! تركته لدى بشار رهنا بأني سأزوره مرة أخرى !

ولكنها لا تفجأ الأمة وحدها بل تفجأنا أيضاً بهذا الجواب غير المتوقع ، الذي لم يسبقه في الأبيات الماضية ما ينذرنا به ، ولكننا لا نلبث أن نستجمع فهمنا فننفجر بالضحك ، ويزيد من مرحنا تصورنا لرعب الأمة وفزعها حين يثوب إليها رشدها فتدرك معنى ما نطقت به الفتاة ، وتقبل عليها مستنكرة ، ولكن الفتاة الطائشة الجموح تصر على التحدي ، وتكرر عزمها على الوفاء لبشار بوعدها مهما يصح الناس مستنكرين .

ولكن هذه القصيدة تختلف بعض الشيء عن سابقتها ، فتلك كانت تامة اللهو تامة السعادة ليس فيها إلا رضى عن الحياة ورضى عن الناس ، فان كنا وجدنا بها نبرة من الأسى فقد كانت هينة خفيفة وكان أسى لا يخلو من حلاوة وتلذذ . أما المقطوعة الحالية ففيها بعض التكدير حين يذكر بشار تعنيف مالك بن دينار إياه وتتبعه باللوم والمؤاخذة ، ولكنه تكدير ما يلبث بشار أن يتغلب عليه ويتناساه في إصراره على مرحه واستبشاره .

هناك اختلاف آخر بين القصيدتين ، وهو اختلاف شخصيتي المرأتين ، أما القصيدة الماضية فتصور صبية جميلة صغيرة لا تزيد على الثالثة عشرة ، متدفقة بالمرح الصبياني البريء . صحيح أن حيويتها الأنثوية قد بدأت تتفتح وتثمر ، ولكنها لم تدرك ذلك بعد ولا تزال عن سحر أنوثتها غافلة ، فهي لا تزال تلاعب الفتيان ملاعبة الصبية ، فان جذبوها أو مزقوا وشاحها لم تفقه في هذا شيئاً سوى جفاوة الأولاد في اللعب ، وعنفهم في المنازعة ، فتذهب إلى أمتها تشكوهم إليها فتغضب الأمة غضبا كأنه الجنون المستعر وتشتد عليها بالتقريع ثم الضرب ، فتدهش الصبية وتستخزي وتبكي لأنها لا تفهم سر هذا الغضب الزائد .

أما هذه القصيدة فتصور بنتا أكبر سنا بعض الشيء ، فتاة نظنها في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها ، بدأت تفهم سر الجنس ولذة مداعبة الرجال . صحيح أنها لم تتصل بهم اتصالا جسميا بعد ، ولكنها في مداعبتهم إياها بدأت

تفهم الدافع الكامن وراء ذلك وتفهم سبب المتعة التي تجدها في هذه المداعبة ، ولكنها في حداثة سنها لا تزال طائشة مندفعة هوجاء، يدفعها اغراء الشباب ورعونة الحيوية إليهم دون أن تدرك الخطر الذي ينتظرها ، فان حاول الناس تحذيرها وأخذها بالحكمة والاحتراس ثارت عليهم واستخفت بلومهم وتحدت أقاويلهم ، بل هي تلقي بنفسها القاء على بشار لا تدرك تمام الأدراك عاقبة هذه الرعونة .

امرأة

وبيضاء يضحك ماء الشبا ... ب في وجهها لك إذ تبتسم
وجـــارية خلقت وحدهـــا ... كأن النساء لديهـــا خدم
دُوار العذارى إذا زرنهـــا ... أطفن بحوراء مثل الصنم
يرحن فيمسحن أركـــانها ... كما يمسح الحجر المستلم
ظمئت إليهـــا فلـــم تسقني ... بري ولم تشفني مـــن سقم
وقالت: هويتَ فمت راشداً ... كما مات عروة غما بصم
أصفراء ليس الفتى صخرة ... ولكنه نصب هم وغـــم
صببتِ هـــواك على قلبه ... فضاق وأعلن ما قد كتم
فلمـــا رأيت الهوى قاتلي ... ولست بجار ولا بـــابن عم
دسست إليهـــا أبا مجلز ! ... وأي فتى أن أصاب اعتزم
فما زال حتى أنـــابت لـــه ... فراح وحـــل لنا ما حرم

أو تحتاج هذه القصيدة [١] هي الأخرى إلى أن نطيل في وصف رقتها العذبة ؟ بل سلاسة أنغامها ورشاقة ألفاظها وبحرها المرقص واضحة للقارىء من القراءة الأولى . وسيزداد بها استمتاعاً كلما زادها قراءة .

(١) يبدو أنها أبيات من قصيدة طويلة بلغتنا مقطوعات متفرقة منها . انظر محاولة الديوان (٤/١٥٦) جمع المتفرق منها . لكننا أثرنا ترتيب الأغاني للأبيات .

والأنثى التي نراها في هذه القصيدة مختلفة عن كل من سابقيتها ، فهذا امرأة ناضجة ما نحسبها إلا قد توسطت العقد الثالث من عمرها تم اكتمالها ورشدها ، اكتسبت خبرة بسلوك الرجال وفنونهم مع النساء فهي لا تلقي بنفسها عليهم كما فعلت الماضية بل تعرف قيمة التثاقل والتمنع والتظاهر بالصعوبة حتى تزيدهم بها هياماً وفيها رغبة . استمع إلى هذا البيت الظريف :

وقالت : هويت فمت راشداً كما مـــات عروة غماً بغم

وتصور هذه الأنثى تتدلل وتتمنع ، تقول له في إغراء ظاهر واحتجاج واضح الادعاء : أنت تزعم أنك تحبني ؟ فلم لا تكتفي بحبي حباً بريئاً « أفلاطونياً » ! لم لا تكون كعروة بن حزام العذري محباً مثالياً عفيفاً ؟ أم تريد مني شيئاً آخر ؟ انظر إلى الفخار الذي تكسبه إذا متَّ ميتة شريفة سببها الهوى العذري الطاهر ! فيزداد بشار أمامها تضرعا واستعطافاً لا يخلو من نبرة فارغة الصبر مؤداها : ما كل هذا الكلام عن الحب العذري والموت الشريف ! « على مين يا ست ! ».

وقد آن لنا أن نتأمل في حب بشار ، أي حب كان ؟

كان بشار يحب النساء حباً تحقيقياً ، ليس في هذا شك ، ولا نريد أن ندعي أنه لم يقصد منهن سوى الحديث البريء والمتعة العذرية ، بل هو دون ريب كان يود لو حظي منهن بالاستمتاع الجسدي الكامل . ولكننا نخطىء أشد الخطأ إذا قفزنا من هذا إلى الحكم بأن هذا الاستمتاع الجسدي كان كل ما أراده منهن ، لم يكن بشارا حيـــواناً لا يعنيه من الأنثى إلا أنهـــا أداة لإطفاء الشهوة الملحة ، ولا كان كالرجل الذي يطغي به الظمأ الجنسي فيذهب إلى المومسات المأجورات لا يبغي لديهن سوى الإرضاء الآلي لهذا الظمأ . بل كان بشار يتطلب في المرأة أكثر من هذا ، كان ينشد فيها ما يلتمسه الرجل ذو العاطفة المهذبة والظمأ الوجداني ، من الحنان الانثوي ، والرقة والوداعة ، والحديث الحلو والمسامرة الهنيئة ، وكل ما يتنسمه الرجل الراقي في كنف المرأة من روح الدعة والرحمة وظلال التعاطف والحنان . صحيح أنه لم تكن تتم له سعادته إلا إذا أتم هذه النشوة بالتحقيق

الجسمي ، ولكنه في هذا التحقيق نفسه لم يكن حيواناً هائجاً أو ذكراً جلفا من أولئك الذين لا يرون أنثى إلا حبسوا فكرهم وتشوقهم على ناحية واحدة منها .

ولا غرابة في هذا . لا غرابة في هذا برغم كل ما قاله الناس عن بشار ، فبشار كان شاعراً ، شاعراً ممتازاً عظيما ، لا تنس ذلك أبدا ، والدليل القوي على أنه لم يقتصر في المرأة على إشباعها الجسدي تجده واضحاً في غزله الرقيق الذي يفيض حناناً ، تجده مثلا في الأبيات الخمسة الأولى من هذه القصيدة .

فهذه أبيات ظاهرة الصدق تامة الأخلاص ، تعبر عن شعور نحو المرأة لا يستطيعه ذلك الصنف من الذكور . انظر إلى البيت الأول المتهلل المرقص :

وبيضاء يضحك ماء الشبـــا ب في وجهها لك إذ تبتسم

الذي لا يعنيه من المرأة إلا التحقيق الجنسي لا يهمه أتبتسم له أم تعبس ، ثم تأمل في هذه البسمة الوضاءة المتلألئة ، بسمة الجمال ، بسمة الشباب ، بسمة الوجه المحبب ، يجتمع فيها الجمال والشباب والحب فلا يعود وجه المرأة مجرد جزء مادي من جسم مادي ، بل يكتسي حلة عجيبة من البهاء ، أصله الجمال الجسماني دون شك ، ولكنه يعلو عليه كثيراً ، فتتنزل إليه مسحة روحانية من الملأ الأعلى ، وليس في الوجود كله أبهى من وجه الحبيب الشاب الجميل يبتسم لك هذه الابتسامة النورانية . وما أروع تعبير بشار : يضحك ماء الشباب في وجهها لك إذ تبتسم ! وما أروع هذه الكلمة الواحدة : لك ! نعم لك أنت يضحك وجهها فيضحك الكون كله وترقص الحياة أمامك سعادة وطرباً حين ترى هذه البسمة النورانية المتهللة .

فإن ظننت أن بشاراً لم ير هذه البسمة على أي حال ، فهو إنما يقول كلاما تقليدياً لا يدل بالضرورة على عاطفة صادقة ، أجبتك : إن صدق عاطفته يقطع به هذا البيت البديع إن كان القارىء ذا ذوق أدبي ناضج يميز بين كلام التقليد والتعبير الحار الصادق الحرارة ، فهذا بيت يستحيل أن ينظمه مجرد مقلد ، بل قائله قد خبر هذه البسمة وعرفها نوعا ما من المعرفة . فلنفكر إذن : أي معرفة أتيحت لبشار ؟

يرفض صدق البيت لأن قائله أعمى ، لا يدرك مبلغ حساسية العميان ، فإن شككت في هذا فارقب أعمى تعرفه ، وارقبه أياماً متعددة تراقب فيها تأثره بمن يلقاهم من الناس ، بعضهم يبتسم ، وبعضهم يعبس وجهـــه وإن كان حديثه متردداً مجاملا ، وابتسامة بعضهم صادرة عن صداقة مخلصة وابتسامة الآخرين تصدر عن النفاق الاجتماعي المألوف ، وابتسامة بعضهم سرور صادق وابتسامة الآخرين ممزوجة بالسخرية والاستخفاف ، وانظر هل يميز ذلك المكفوف بين كل تلك الوجوه أو تستوي أمامه ، ولا تسألني عن الوسيلة المضبوطة التي يعرف بها الكفيف فإني لا أدري ، وإنما أكتفي بتسجيل الواقع الذي يستطيع كل قارىء أن يتحققه بنفسه ، فأما إن كان من الماديين الذين يقصرون المعرفة على الحواس فإنه يستطيع أن يقول أن الاعمى قد استعاض عن البصر بتنمية الإحساسات الأخرى إلى درجة من الارهاف لا يستطيعها المبصرون ولا يصدقونها ، وأما إن كان من غير الماديين فربما يستطيع تفسيراً آخر . وقد سمعت بموسيقيّ انجليزي كان يستطيع أن يحكم بعمر المرأة ونصيبها من الجمال أو الدمامة بمجرد الاستماع إلى صوتها ، وقد أكد لي من عرفوه أنه لم يخطىء في حياته مرة واحدة . ومما يروى عن بشار نفسه أنه استمع يوما إلى امرأة فقال إنها جميلة الأسنان ، فلما سئل كيف عرف ذلك أعطى سبباً مادياً صرفاً ، فقال إنها تكثر من الضحك حتى تبدو أسنانها ، ولست أدري هل كان السبب الذي أعطاه بشار هو كل شيء ، فبشار نفسه كان لا يؤمن إلا بمعرفة الحواس ...

أضف إلى هذا كله أن استعمال بشار لأسلوب المبصرين لا يطعن بالضرورة في صدق عاطفته ، فإنه اضطر في أحيان كثيرة إلى استعمال الأوصاف البصرية كي يقرب إلى سامعيه أو قرائه المبصرين كنه العاطفة التي يحسها بترجمتها إلى اللغة التي يألفونها ، وإنك تجد نظير هذا في كلام العميان جميعاً ، شعرائهم وناثريهم ، في الأدب العربي وفي غيره من الآداب ، فليس استعمالهم لهذه اللغة طاعنا في صدق الإحساس الذي يحاولون وصفه ، ولا نطيل في هذا فقد عرضنا له في مكان سابق من هذا الكتاب ، حين تأملنا في بعض الأبيات التي يثبت بها بشار قدرة

المكفوف على الاستجابة للجمال ، ولكن تأمل الآن في الأبيات الأربعة التالية :

وجـــارية خلقت وحدهـــا كأن النساء لديهـــا خدم
دوار العذارى إذا زرنهـــا أطفن بحوراء مثل الصنم [1]
يرحن فيمسحن أركـــانها كمـــا يمسح الحجر المستلم
ظمئت إليهـــا فلم تسقني برىً ولم تشفني مـــن سقم

أتعرف رجلا لا يهمه في المرأة إلا ما يريد الرجل من المومس يقول هذا الكلام؟ بل هذا كلام واضح الصدق ظاهر الحرارة، يقوله رجل يحب المرأة حباً غير منقوص، حباً لا يقتصر على جسمها وما يقدمه له، وإلا لم يميزها على سائر الأناث فاستوين عنده جميعهن أو معظمهن، فبشار حين قال إنها خلقت وحدها وإن سائر النساء أمامها كالخدم كان يعني ما يقول بإخلاص ، صحيح أن هذا كان منه شعوراً وقتياً سيزول بعد فترة ويتجه إلى امرأة غيرها، ولكن هذا لا يطعن في صحته ما دام نحوها باقيا ، والبيتان التاليان :

دوار العذارى إذا زرنهـــا أطفن بحوراء مثـــل الصنم
يرحن فيمسحن أركانهـــا كما يمسح الحجر المستلـــم

يعبران عن شعور لا يقتصر على الحب ، بل يسمو إلى الاجلال الذي يبلغ منزلة التقديس، وصدق الشعور فيهما واضح لكل ذي دراية فنية تميز الصادق من المتكلف .

وحين يقول :

ظمئت إليهـــا فلم تسقني بريّ ولم تشفني من سقـــم

فأي ظمأ هذا ؟ وأي ري يبغيه ؟ لست أدعي أنه كان ظمأ عذريا يبغى الري

---

(١) دوار : صنم يدور حوله العابدون . ويبدو أن تشبيه بشار للمرأة الجميلة بالصنم في هذا البيت وفي مواضع أخرى من شعره مأخوذ من الأدب الفارسي الذي يكنى فيه عن الحسناء البارعة الجمـــال بالصنم ، كما في قول شاعرهم : « القصر الذي رأيته مثل إرم ، ناضراً بوجه ذلك الصنم . »

الأفلاطوني ، فلا شك أنه يريد منها التحقيق الجسمي فيما يريده . ولكن أهذه الشهوة الجسمية هي كل ظمئه وإرضاؤها الآلي هو كل ريه ؟ لو كان ذلك أما كان يجد رياً كافياً بغيرها من النساء ، أو بمومس يستأجرها لليوم أو للساعة ؟ أو كانت تصدر عنه الأبيات الماضية العظيمة الإكبار والتقديس ، أم كان يصدر عنه ما نراه في الأبيات التالية من الوله والتضرع حين يرى تمنعها ؟ :

وقالت : هويت فمت راشدا   كما مات عروة غما بغم
أصفراء ليس الفتى صخرة   ولكنه نصب هم وغم (1)
صببت هواك على قلبـــه   فضاق وأعلن ما قد كتم

ولكن بينا هو في هذا الحديث الحار الجاد ، إذ به يقلبه علينا فجأة فيحملنا على الإعجاب الممزوج بالدهشة من فرط ولعه بالنكتة والمداعبة حتى حين يكون في أشد جده :

فلمـــا رأيت الهوى قاتلي   ولست بجار ولا بابن عـــم
دسست اليها أبـــا مِجْلز !   وأي فتى أن أصاب اعتزم
فما زال حتى أنابت لـــه   فراح وحل لنا مـــا حرم

النبرة في هذه الأبيات الثلاثة مختلفة تماما . ويجب على قارىء القصيدة حين يأتي اليها أن يغير صوته فجأة من الشكوى الحارة المتضرعة إلى المداعبة المرحة المبتسمة ، يهمس بها في ممازحة ومكر ، وبشار يرغمنا فيها على أن نضج بالضحك الشديد ، ويزيد من فكاهة الأبيات أن تلتفت إلى هذا الإسم المضحك الذي اختاره لديوثه ، يسميه «أبا مجلز». فكثير من القراء في يومنا هذا لا ينتبهون إلى مدى فكاهة هذه التسمية إذ يظنونها اسما حقيقيا للرجل الذي أرسله بشار ، وهي ليست إلا كنية هزلية يخترعها بشار فيختار حروفا تصدر في اجتماعها نفس الرنة المضحكة التي تسمعها في بعجر ، وشنطح ، وزعرب ، وجعرب ، أو أمثالها ، والغريب أن

(1) لعل الرواية الصحيحة « نصب غم وهم » ، لتجنب الأيطاء ، وقد مزجنا في روايتنا لأبيات هذه القصيدة بين روايات شتى .

بعض معاصريه في ضيق أذهانهم واقفارهم من روح الفكاهة ظنوها اسما حقيقيا فأقبلوا عليه يسألونه من أبو مجلز هذا فإنهم لا يعرفونه! وكذلك الشأن في الكلمات الغريبة التي كان بشار مغرما بإقحامها في شعره ، من أمثال «الشنفران» و «ابن قنان» وغيرهما ، ثم يعجز معاصروه ومن تبعوهم من رجال اللغة عن اكتشافها في معاجم اللغة أو فيما يعرفون من لغات العرب ، فيقولون إنها حشو اضطر اليه حين أعوزه الوزن أو القافية ! وأعجب العجب أن نقادنا المحدثين يتبعونهم في ذلك ولا يلتفتون إلى أنها متعمدة لغرض المزاح والاضحاك، مع أنهم يستعملون في محادثاتهم أمثالها حين يسمون بعض أصدقائهم أو معارفهم أسماء هزلية، ويعرفون نظائرها في اللغات الأجنبية ، وفي الانجليزية منها المئات تفيض بها المسرحيات الهزلية .

وولع بشار بتغيير مجرى حديثه وتبديل نبرة صوته تبديلا مفاجئا يصدر عن روح الفكاهة التي وجدت فيه بأصالتها والتي يغفل الناس عنها أو ينكرونها ، فهي مستمدة من بصره بمتناقضات الحياة وإدراكه للمفارقات. وحيلته في القلب معروفة بكثرة في الأدب الانجليزي ويسمونها twist ، وهي تؤدي إلى هبوط فجائي في عاطفة القارىء يسمونه anticlimax ، فبينا عاطفته في تحرج واشتداد إذ تنفجر في ضحكة غير متوقعة ، ومن أحسن الأمثلة التي أتذكرها ما يقوله أحد الأشخاص في مسرحية لشكسبير ، وإنما أعطي هذا المثال لأنه في موضوعه قريب الشبه من أبيات بشار الماضية . فهذا الشخص محب ولهان يتحدث إلى محبوبته في ضراعة وشغف ، فيقول : سأحيا في فؤادك ، وأموت في حجرك ، وأدفن في عينيك ، وأيضاً سأذهب معك إلى بيت عمك ! (١)

وهو نوع من المداعبة يغرم بـه المصريون ، وهم مشهورون بولعهم بكل أنواع الممازحة ، وكم سمعت في مظاهرات الطلبة من خطيب متحمس ثائر ، ثم « تحزقه النكتة » فجأة فيضج مستمعوه بالضحك لما سمعوه من مزحة لم تكن

---

(١) Benedick to Beatrice, « Much Ado About Nothing », Act V Scene ii

منتظرة . ومن أجود الأمثلة التي لا أزال أتذكرها ما قاله لنا أستاذ جامعي جليل معروف بفكاهته البارعة كان يحاضرنا عن حسان بن ثابت ، فقال : وكان سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه جبانا !

خليعة

إن كنا رأينا في القصيدة الماضية امرأة متدلة متثاقلة ، فاننا سنرى في المقطوعة التالية امرأة تزيد على هذا فتتثنى تثنياً شديد الإغراء :

قــال ريــم مُرَعّـَث ساحر الطرف والنظر [1]
لست والله نـــائلي (قلت : أو يغلب القدر !)
أنت إن رمت وصلنـــا فانج ، هل تدرك القمر

تدلل هذه المرأة يصل إلى درجة الخلاعة . يصورها بشار تصويراً ناطقاً بهذا الوزن الذي اختاره . فاقرأ الأبيات ، هي ثلاثة أبيات لا غير ، ولكن فيها صورة كاملة لهذه الأنثى الخليعة المغناج تتلوى بكل أجزاء جسمها وتهتز اهتزازا يحاكيه هذا الوزن البارع ، فإن كنت لا تعرف هذا التثني المثير من واقع الحياة فأنت لا شك تعرفه من تمثيل بعض ممثلاتنا المشهورات في كثير من أفلامنا السينمائية !

وحتى في هذه القطعة القصيرة يأبى بشار إلا أن يدخل قلبه الفكاهي الذي يبعث ضحكنا الشديد، ولكنه لا يدخله هنا في نهاية القطعة بل في وسطها ، وهو الشطر الثاني من البيت الثاني : « قلت أو يغلب القدر ! » فهذا القول يقوله بشار سرا لا جهرا ، مناجيا به نفسه وهو يشهد تمنعها المدعي ، ولذلك وضعته بين قوسين . تصور إذن هذا المنظر . بينا هذه الأنثى في تدللها وتثنيها الخليع تتصنع الرفض والامتناع ، يقول بشار في نفسه بابتسامة ماكرة : (سنرى ! تزعمين أني لن

---

(١) مرعث : يلبس في أذنه الرعاث وهي الأقراط .

أنالك ؟ «صبرك!») ثم يستمر في تصوير تخلعها وادعائها أنها ستعجزه، لا تدري ماذا قال سراً وعلام عقد العزم !

هذه أبيات خليعة بلا شك ، ولكننا لا نستطيع أن نرفضها رفضا فنيا . فتصويرها الفني العظيم الصدق والقوة لا يمتزج به تصوير لعواطف أخرى كريهة من الحقد أو القسوة كما رأينا في الرائية . وإن كان بشار قد عقد العزم على الظفر بها فهذا لا يثير فينا رثاء لها أو حزنا عليها ، فهي ليست فتاة بريئة غريرة بل هي امرأة ظاهرة الأفحاش ، ولا شك عندنا أن بشاراً لن يكون أول من يظفر بها . ولذلك لا نجد في فكاهته البارعة (قلت : أو يغلب القدر !) ما يؤلمنا بل نرى فيها الجزاء الذي تستحقه هذه المتهتكة التي تدعي التمنع .

شريفات

أما الحديث في القصيدة التالية فعن نسوة من صنف تام الاختلاف :

لمـــا طلعـــن من الرقيـ ـق على بالبردان خمسا [1]
وكـــأنهن أهلـــــة تحت الثياب زففن شمسا
لمـــا طلعن حففنهـــا وأصخن ما يهمسن همسا
فســـألنني مـــن في البيو ت فقلت ما يؤوين إنســـا
ليت العيـــون الطـــارفـــا ت طمسن عنا اليوم طمسا
فأصبن مـــن طرف الحديـ ـث لذاذة وخرجن ملسا [2]
لولا تعرضهـــن لي ياقس كنت كأنت قسا ! [3]

هؤلاء نسوة شريفات فاضلات ، ويظهر من وصف بشار لهن أنهن أيضا من

(١) كان لبشار مجلسان في داره ، سمى أحدهما الرقيق وسمى الآخر البردان .
(٢) ملسا : طاهرات خاليات من العيب كما دخلن .
(٣) يخاطب الحسن البصري .

الطبقة الارستقراطية الغنية ، زرن بشارا لا لغرض سوى الاستمتاع البريء بحسن حديثه، واحتججن لهذه الزيارة بأنهن جئنه ليقول لهن شعرا ينحن به، وواضح أن هذا مجرد احتجاج ، ولكنهن يحتطن جداً قبل أن يدخلن منزله خوفا على سمعتهن لو رآهن رقيب ، ويظهر أن احداهن كانت أعلاهن مرتبة فهو يصف التفاف الأربع الأخريات حولها حتى يخفينها عن النظر وإصاختهن السمع قبل أن يدخلن حتى يتأكدن من خلو المكان . ثم يسألنه أفي منزله زوار آخرون ولا يدخلن حتى يؤكد لهن بالنفي .

وتجرؤهن على زيارة بشار برغم كل صفاته السيئة وسمعته المشينة يرينا أنه كان على قدر عظيم من حلاوة الروح وجمال المؤانسة ، حتى ليواجهن في سبيل مسامرته الظريفة وحديثه الفكه كل الأخطار . ويرينا أيضا أن بشاراً لم يكن يهم بالفاحشة مع كل امرأة تزوره، بل كان يقدر للعفيفات مركزهن وخلقهن ويكتفي معهن بلذة المحادثة وإمتاع المفاكهة .

وقصيدته هذه في نفس الخفة والرشاقة التي وجدناها في القصائد الماضية ، فلألفاظها عذوبة ورقة ولوزنها المجزوء نغمة ساحرة ، ولكننا لا نجد فيها نفس المرح بل نجد عذوبتها ممزوجة بطعم حريف ، لأن بشاراً حين نظمها كان حزينا ساخطا . وسبب ذلك أن الحسن البصري لما بلغه خبر زيارة هؤلاء النسوة له استغل القصة ليزيد من تشويه سمعته لدى الناس وتصويره بصورة الفاتك الخطر الذي لا يؤمن حتى على شريفات النساء وأخذ يحرض الناس على البطش به .

والذي يحزن بشارا هو أنه لم يحدث فيه مع هؤلاء الزائرات إلا الجلسة البريئة والحديث الحلال ، أفيتبعه أعداؤه بالتشنيع حتى في هذا القدر الهين من المتعة الشريفة ؟ وحزنه يتجلى في نغمة القصيدة كلها فرنينها مقرون بالأسى ، وروي السين الذي اختاره لقافيته أشد الحروف العربية تعبيرا عن الأسى والحسرة ، وهو وحده يشيع في القصيدة كلها روحاً كئيبة متشائمة . وهذا الشعور يتجلى على أوضحه في الأبيات الثلاثة الأخيرة ، حيث يتمنى أن تطمس عنه عيون المتجسسين،

ويحتج بأنهن لم يصبن إلا لذاذة من طرائف الحديث وخرجن طاهرات ملسا من العيب كما دخلن . ثم يأتي في بيته الأخير بقلبه المعهود !

لكننا لا نجد هذا القلب مزحة خفيفة مرحة كما في القصائد السابقة ، بل نجده وخزة قاسية ، فالحسن البصري كان يسمى بالقس لتعبده وزهده ، وهي تسمية كان يطلقها المسلمون على نساكهم المتقشفين ، ولكن بشارا يقلبها إلى اللقب الكهنوتي المسيحي ببراعة لاذعة ، يقول له : ماذا تريد مني ؟ أتريد أن تحرم علي حتى حلال الحديث البريء والمؤانسة الشريفة؟ أتريد جميع الناس أن يكونوا رهبانا متقشفين مثلك ؟ أتريدني أن أكون قسا مثلك ! تصور شيخا وقورا جليل الهيئة سابغ اللحية يقول له خصم له : يا قسيس !

طـــرب

لكن بشارا الذي ينظم تلك القصيدة الكسيفة الآسية حين يرهقه خصومه ، يستطيع أيضا حين يصفو له مجلس الأصدقاء . أن ينظم القصيدة الآتية العظيمة الطرب والانتشاء .

نروي أولا قصة نظمها : « وكانت بالبصرة قينة لبعض ولد سليمان بن علي، وكانت محسنة بارعة الظرف ، وكان بشار صديقا لسيدها ومداحا له . فحضر مجلسه يوما والجارية تغني ، فسر بحضوره ، وشرب حتى سكر ونام . ونهض بشار. فقالت : يا أبا معاذ ، أحب أن تذكر يومنا هذا في قصيدة ، ولا تذكر فيها اسمي ولا اسم سيدي ، وتكتب بها اليه . فانصرف ، وكتب اليه القصيدة ، ووجه بالأبيات اليها . فبعث اليه سيدها بألفي دينار وسر بها سرورا شديدا .»

كان هذا مجلس سعادة تامة لا نكد فيها كما لم يتح لبشار في حياته كثيرا . فالمغنية ليست رخيمة الصوت فحسب بل هي محسنة بارعة الظرف . فهي من النوع المثقف المتحضر الذي كان بشار يغرم بمحادثته . ويبدو أنها كانت تكرم بشارا وتحسن معاملته ولا يرى منها الا المجاملة واللطف . وسيدها صديق له ، يحضر بشار مجلس طربه فلا يطرده ، ولا يعبس له ، ولا يقبله كارها كاظما ،

بل يسر سرورا صادقا بحضوره ، الأمر الذي يدلنا مرة أخرى على أن بشارا كان سميرا حلو المؤانسة خفيف الظل لمن يستطيعون أن يبتعثوا الجانب المضيء من شخصيته :

فانظر الآن أي سعادة ومرح يستطيعهما بشار حين لا ينغص خصومه عليه حياته :

١ – وذاتِ دَلّ كأن البدر صورتها ... باتت تغني عميد القلب سكرانا :
٢ – « إن العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا »
٣ – فقلتُ : أحسنتِ ! ياسُؤْلي ويا أملي ! ... فأسمعيني ! – جزاكِ الله إحسانا :
٤ – « يا حبّذا جبلُ الريّان من جبل ... وحبذا ساكن الريّان ، من كانا »
٥ – قالت : فهلاّ – فدتك النفس – أحسنُ من ... هذا ، لمن كان صب القلب ، حيرانا :
٦ – « يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا »
٧ – فقلت : أحسنت ! أنت الشمس طالعةً ! ... أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا !
٨ – فأسمعيني صوتاً مُطربا هَزَجا ... يزيد صبّا ، محبا ، فيك أشجانا
٩ – (يا ليتني كنت تفاحا مفلّجة ... أو كنت من قُضُب الريحان ريحانا
١٠ – حتّى إذا وجدت ريحي ، فأعجبها ... ونحن في خلوة ، مُثّلْتُ إنسانا !)
١١ – فحرّكت عودها ، ثم انثنت طرباً ... تشدو به ، ثم لا تُخفيه كِتْمانا :
١٢ – « أصبحتُ أطوع خلق الله كلهمو ... لأكثر الخلق لي في الحبّ عصيانا »
١٣ – فقلت : أطربتنا ! يا زين مجلسنا ! ... فهاتِ ، إنكِ بالإحسان أوْلانا !
١٤ – لو كنتُ أعلم أن الحبّ يقتلني ... أعددتُ لي قبل أن ألقاكِ أكفانا !
١٥ – فغنّت الشَرْبَ صوتاً مُؤْنِقاً رَمَلا ... يُذْكي السرورَ ، ويبكي العين ألوانا :
١٦ – « لا يقتلُ اللهُ من دامت مودّته ... والله يقتل أهل الغدر أحيانا »

* * *

هذه الأبيات الستة عشر نادرة المثال في طربها القوي ونشوتها المتوثبة . اما في جودة تصويرها لمجلس الغناء الشرقي وما يحدث فيه من طرب وصياح فهي معدومة النظير . فإنها لتجسمه تجسيما يبلغ درجة الكمال . بشار تارة يصف غناء القينة وجمال صوتها وافتنانها في الألحان ، وتارة يصف تأثره هو بغنائها ، ووصفه هذا لو قرأه أوروبي لما فهمه ، لأن الأوروبيين إذا استمعوا الى الموسيقى أو الغناء لزموا الصمت التام ، وتحاشوا مجرد تحريك أيديهم أو أجسامهم ، حتى تنتهي القطعة [1] ، ثم لا يعبرون عن إعجابهم الا بالتصفيق . ولكن القارىء العربي يستطيع فهم القصيدة جيدا اذا تذكر واستعاد الى مخيلته ما يحدث بيننا الى الآن في مجالس الغناء حين تأخذ النشوة السامعين فيصيحون ويقاطعون ويستزيدون .

وقارىء القصيدة إذا أراد أن يحسن تمثلها فلا بد من أن يتغنى في أبيات الغناء ، وهي التي وضعناها بين أقواس ، ولا يكتفي فيها بمجرد القراءة . ويكون خيراً لو تشارك في القصيدة صديقان ، أحدهما يقرأ أبيات الحكاية والوصف ، والثاني جميل الصوت يغني بأبيات الغناء ، فيكون بينهما ما يشبه الحوار [2] .

فلننظر الآن في أبيات القصيدة ، لنرى دقائق وصفها وتصويرها ، وتدرج مراحل الطرب فيها .

وذات دل ، كأن البدر صورتها   باتت تغني عميد القلب ، سكرانا

لم تكن تلك القينة حسنة الصوت بارعة الغناء (كما سنرى بعد) فحسب ، بل كانت ايضا فائقة الجمال (وهي صفة لا تتمتع بها كثيرات من المغنيات ، للأسف

(١) كان هذا صحيحا منذ عشرين سنة ، ولا يزال صحيحا عن استماعهم للموسيقى الكلاسيكية والغناء الكلاسيكي . أما في السنوات الأخيرات فقد ظهر الفن البوب (أي الرائج) في الموسيقى والغناء ، وتنوعت مدارسه بين روك اند رول ، وخنافس ، وتويست ، وشيك ، وقرود ... وغيرها ، واشتهر فيه الفيس برسلي ، والخنافس الأربعة ، وكليف رتشاردز ... وغيرهم . والمستمعون له من المراهقين والمراهقات يصيحون ويصرخون ، ويخرجون عن طورهم ، إلى مدى يشابه ، أو يفوق ، ما يفعله مستمعونا ! وهكذا ارتدوا إلى الطرب البدائي الذي ما زلنا عليه .

(٢) هذا ما أفعله حين أدرس هذه القصيدة لطلبتي ، فأكلف منهم فتى وفتاة بتبادل الأبيات .

الشديد !). وبشار يعبر عن هذا الجمال الفائق بقلب التشبيه المعهود ، فلا يقول إنها تشبه البدر ، بل يقول إن البدر يشبهها . لكن لاحظ أن جمالها لم يكن من ذلك النوع الساكن البارد، مثل كثيرات من جميلات الوجه ثقيلات الروح اللائي لا يحركن منّا إعجابا زائدا ، بل كانت ذات دل . والى يومنا هذا نجد أن مغنياتنا اللائي يدركن أكبر نصيب من الشهرة والرواج لسن ذوات الصوت الحسن فحسب ، بل أولئك اللائي يستطعن الافتنان في فنون الدلال ، يزدن بها من طرب السامعين وإثارتهم ، بذكاء كبير ، إذ يوزعن نظراتهن المغرية بين أركان الحفل ، ويتصنعن الحياء احيانا والجرأة اخرى ، ويهتززن اهتزازات موقعة محسوبة حسابا دقيقا . ولو تذكرنا ما كانت عليه ام كلثوم من ثلاثين سنة ، أو عشرين سنة ، لأدركنا أن سيدة الغناء العربي نفسها — هذه التي وهبها الله أحلى صوت وأشجاه وأكبره قدرة على التنوع والتموج بين النغمات — لم تكن تكتفي بسحر حنجرتها الذهبية ، بل كانت تأسر سامعيها أسرا شديدا بخفة روحها ، وبراعة دلالها ، ورشاقة حركاتها . وهي الى هذا اليوم ، وقد علت في السن ، لا تزال تحتفظ بقدر كبير من هذه المقدرة الذكية . ولأدركنا شيئا آخر : وظيفة منديلها الحريري المشهور الذي لا تستطيع أن تغني الا به ، حين كان يخفق ويتموج ويرف في يدها رفيف الأجنحة الرقيقة .

لا جرم ان استثارت تلك القينة حبه الزاخر ، فغلب على قلبه . فاذا أضفنا الى متعة الصوت ، ومتعة الجمال ، ومتعة الدلال ، ومتعة الحب ، حقيقة أخرى يذكرها في آخر البيت — وهي أنه كان تحت تأثير الخمر — ادركنا أي مدى بلغته نشوته . فلنستمع الى أول بيت غنته القينة :

« إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ، ثم لم يحيين قتلانا »

هذا هو بيت جرير المشهور ، بلغ به غاية الرقة والعذوبة ، حتى كان له على سامعيه — ولا يزال له علينا — تأثير شديد لسيولته المتسلسلة وبساطته المحببة ، وحتى راج بين المغنين والمغنيات في عصره وفيما بعده ، فعده صاحب كتاب الأغاني من الأصوات المائة المختارة . وجرير يصف فيه العين التي كانت تفوز

من العرب بأكبر الاعجاب ، ولا تزال تفتن أكثرنا . وهي العين ذات الحور . والحور صفة معقدة متعددة الجوانب ، فهي تعني السعة الكبيرة للعين ، وتعني كبر مساحة السواد فيها ، حتى تكاد تشمل المقلة كلها ، وتعني أيضا نظرتها الناعسة ، المتكسرة ، الحيية الخجول ، الكسول شبه النائمة [1] . هذه هي العين التي كانت «تقتل» العرب ، والتي لا يزال أكثرنا يفتتن بها افتتانا شديدا ، اذ تنظر بها صاحبتها الينا في مسارقة وحياء نصفه طبيعي ونصفه متعمد ، مازجة بين الحياء والدلال ، لا كالنظرة الجريئة الصريحة المباشرة التي تنظر بها اليك احدى الانجليزيات مثلا ، اذ تلقاك فتواجهك ملء العين ، وتمد يدها اليك فتصافحك مصافحة رجولية وهي تقول : كيف أنت ! How do you do

من شرحنا هذا للعيون الحوراء يستطيع القارىء أن يتخيل كيف أن المغنية وهي تتغنى بالبيت لم تكن تغنيه فحسب ، بل كانت تطابق مضمونه بنظراتها التي وصفناها ، توزعها بين سامعيها ، حتى أثارتهم إثارة قوية ، نرى صداها في البيت القادم :

فقلت : أحسنت ! يا سؤلي ! ويا أملي !
فـــأسمعيني ! — جزاك الله إحســانا :

ماذا يصور هذا البيت في حقيقته ؟ هو يصور الحقيقة التي ذكرناها آنفا : أننا لا نكتفي بالاستماع الصامت والإعجاب العميق المكبوت حتى ينتهي الغناء . لا ! هذا لن يكفينا أبدا . بل لا بد أن نقاطع كل بيت — وأحيانا كل مقطع من الغناء — بالصياح العالي الذي نعبر به عن طربنا وتقديرنا . فهو نظير قولنا : الله ! يا حلاوة يا روحي ! يا منى قلبي ، سمعينا كمان ! سايق عليكي النبي ! كمان ربنا يخليكي !

« يا حبذا جبل الريان من جبل   وحبذا ساكن الريــان ، من كانا»

(١) في تحديد معنى الحور ، ومناقشة الأقوال التي جاءت في شرحه ، انظر ص ١٧٨ — ١٧٩ من كتابنا « الشعر الجاهلي : منهج في دراسته وتقويمه » ، لكي ترى اختلافهم في شرحه ، حتى اعترف الأصمعي بأنه لا يدري ما الحور في العين .

هذا هو البيت الذي يقترح بشار على القينة أن تغنيه . وهو بيت آخر من نفس القصيدة لجرير ، وهو ايضا بيت رائع العذوبة والسلاسة ، لا يزال يعجبنا ببساطته البدوية الساحرة . وقد كان من أهم الاكتتابات الجديدة التي قدمها لجرير الى الشعر العربي أنه وصل بالنسيب المألوف الى قمة جديدة من السهولة الغنائية ، يأتي الى المعاني التي يألفها البدو فيجددها تجديدا حقيقيا بصوغه إياها في عبارات بالغة الرقة والانسياب والتدفق ، فيخلق المعاني نفسها خلقا جديدا ، ويمهد لما سيفعله الشعراء المحدثون بعده من نبذ الأساليب البدوية العسرة ، وزيادة نصيب الشعر من الرقة والغنائية ، وتفضيل الأوزان القصيرة الخفية المتراقصة .

لكن هل تستجيب القينة لاقتراح بشار ؟

قالت : فهلاّ — فدتك النفس ! — أحسن من
هذا ، لمن كان صب القلب ، حيرانا :

لا تقبل القينة اقتراحه ، وتقترح بدلا منه بيتا تدعي أنه أحسن من البيت الذي اقترحه ، وأنه أكثر إمتاعا لمن دله الحب قلبه ، وحير عقله (تعني بشارا نفسه ، إذ رأت افتتانه بها). وشعورنا الأول حين نسمع رفضها — كما لا بد أن كان شعور بشار — هو العجب الكبير ، فما عهدنا بالمغنيات أن يرفضن طلبا لمستمع ، وبخاصة من كان في منزلة بشار . لكن عجبنا سيزول حين نسمع البيت البديل الذي ستغنيه . إلا أننا قبل أن نأتي اليه نلاحظ التقسيم الرائع المتموج لهذا البيت ، يقطعه بشار في خمس فقرات متتابعة ، لكي يحكي بهذا تمايلها وهي تنطق بردها عليه ، فهي تزيد من دلالها وتثنيها ، منوعة صوتها في الحديث بين نبرات الإغراء .

« يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والاذن تعشق قبل العين أحيانا »

اتضح السر وزال العجب . ألم أقل لك إنها مغنية كبيرة الذكاء ؟ فالبيت من شعر بشار نفسه ! وهو من أشهر أبياته وأكبرها رواجا في عصره وبعد عصره . تخيل الآن طربه الزائد ولذته المضاعفة ، اذ يسمع ذلك الصوت الشجي يتغنى بشعره هو. ولا بد أن القينة ضاعفت هنا من جهدها في الإتقان ، وبلغت درجة جديدة من

التّرخيم والإشجاء . لا جرم أن يزداد بشار طربا الى طرب ، فيستغرق بيتين كاملين في التنفيس عن إعجابه ، لا بيتا واحدا كما فعل قبل :

فقلت : أحسنت ! أنت الشمس طالعة ! أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا !
فأسمعيني صوتا مطربا هزجا يزيد صبا ، محبا ، فيك أشجانا

وهو بهذا لا يصور ازدياد طربه فحسب ، بل يصور ما لا يزال يحدث في حفلات غنائنا حين يزداد انفعال السامعين درجة بعد درجة ، ولا يكتفون بالتعبير عن إعجابهم بغناء المغنية ، بل يطارحونها عبارات الحب والغرام . فهو يشبهها بالشمس السافرة ، ويتحدث عن القلب ، والأحشاء ، وإضرام نيران الهوى ، والصبابة ، والحب ، والأشجان ، فيكون كسامعينا حين يصرخون : يا حبيبتي ! يا قمر ! يا فل ! يا ورد ! آه يا خفّة ! جننتينا يا سومه ! لهلبتينا يا روحي ! نار يا حبيبي نار !

واستمع الى صياحه في ثاني البيتين يتقسم ويتموج في شدة اضطرابه ، يتجلى في الألفاظ المتتابعة المتراقصة المتجاوبة التنوين ، فتنوينها المتتالي يحدث في البيت ترجيعا لذيذ التنغيم : صوتا ، مطربا ، هزجا ، صبا ، محبا . وتأمل بنوع خاص أثر السجع بالباء المضعفة في الكلمتين الأخيرتين ، يبدو أنه زاد من تأكيد البائين وزاد من انفعال صوته في النطق بهما ، كأنه يقول : دبت والله دبت خلاص ! ويبدو لنا في البيت كله أن بشارا قد هب الآن واقفا على قدميه وهو يتمايل من من فرط نشوته ، كما يفعل عدد من سامعينا في يومنا هذا . ولاحظ أيضا أنه يطلب اليها أن تستعمل الآن لحنا خاصا من الحان الغناء ، هو لحن الهزج ، فيظهر لنا أنها لم تكن استعملته من قبل .

لم يكتف بشار بالبيتين السابقين تعبيرا عن نشوته ، بل يأتي الآن بيتان عجيبان رائعان حقا :

(يا ليتني كنت تفاحا مفلجة أو كنت من قضب الريحان ريحانا
حتى إذا وجدت ريحي ، فأعجبها ، ونحن في خلوة ، مثلت إنسانا ! ! !)

ماذا يفعل بشار في هذين البيتين ؟ هو الى الآن كان يحكي ما نطق به جهرا في التعبير عن اعجابه وانتشائه . اما هنا فهو لا يصور تأثره الظاهر ، بل يصور الخوالج التي كانت تدور في عقله ، ولذلك وضعناهما بين قوسين كبيرين . ولا تنس أنه كان ثملا ، وهذان بيتان لا نظير لهما في وصف تخيلات السكران حين يجتمع عليه السكر والطرب . وبشار لم ينطق بالبيتين جهراً، بل هما ما تهيئه له مخيلته ، فإن كان نطق بشيء فما زاد على أن تمتم ببضع كلمات غير مفهومة . فعليك حين تقرأهمـــا أن تمتم بهما في تخبط وخفوت مقلدا تطوح السكران وتلعثمه المعروف .

ولكن انظر الآن في هذا الخيال الغريب المضحك : يتخيل أنه قد انقلب الى تفاحة مقسمة (وهذا أكثر إبانة لرائحتها الزكية ونشراً لها)، او الى قضيب من قضب الريحان . فمرت به تلك القينة وهو على هذه الحال . فأعجبها شذاه ، فحملته معها الى مخدعها وأخذت تتشممه — وإذا به ينقلب انسانا كما كان ! — وأدرك شهرزاد الصباح ...

وهذا الخيال البالغ في الإغراب لا يصدر إلا عن خيال سكران . ولكنك لا تعدم شيئاً قريباً منه في أحلام اليقظة التي تراود الصحاة حين يأخذهم الطرب . فكم منا انصرف عن حفلة غناء أثارته فيها «صباح»او غيرها ، أو عن فيلم سينمائي أثارته فيه «بريجيت باردو» أو غيرها — فانصرف الى بيته ، وهو في طريقه اليه ، وبعد إيوائه الى مضجعه ، يدبر الصدف التي تبدو له ممكنة جدا ، والتي يلتقي فيها بمن بعثت نشوته من مغنية فاتنة أو نجمة مغرية ، وبالطبع تقع في حبه ويعجبها ظرفه وخفة روحه فتطارحه الغرام !

فحركت عودها ، ثم انثنت طربـــا تشدو به ، ثم لا تخفيه كتمانا :

هذا بيت مهم ، يضيف عنصرا جديدا الى الصورة المتكاملة لذلك المجلس . فهو لا يصور طرب السامعين ، بل يصور طرب المغنية نفسها ونشوتها ، حين تسمع كل ذلك الاستحسان المتزايد والانفعال المتضاعف من سامعيها ، فتستجيب لهم أتم استجابة ، وتبذل الآن أقصى جهدها ، وتصل أعلى قمتها في الإجادة ،

ولا تبخل بشيء من فنها . فهي الآن «تنجلي» حقا كما نقول . فتم المجاوبة والانسجام بينها وبين السامعين . وهذا لا يحدث الا في الربع الأخير من حفلة الغناء ، وقد كانت المغنية تدخر له قصارى مجهودها وأغنى ثمرات تدريبها الفني الطويل . وهل تستطيع أن تتصور إحدى مطرباتنا « تنجلي » لو لم يعطها سامعوها هذا الهتاف والصياح والحب والتوله ، فاستمعوا اليها في صمت تام كما يفعل المستمعون الغربيون في الحفلات الموسيقية الراقية ؟

« أصبحت أطوع خلق الله كلهمو   لأكثر الخلق لي في الحب عصيانا »

هذا البيت الذي تغنيه الآن لا نعلم قائله ، ويقترح شارح الديوان أن يكون بيتاً آخر لبشار نفسه ، وهو اقتراح يبدو لنا وجيهاً ، لأنها وقد بدأت تغنيه في شعره لن تخذله بالعودة الى شعر غيره . ومهما يكن من الأمر فاختيارها للبيت ماهر جدا ، ذو مغزى بعيد. فهي اذ رأت افتتان بشار بها تعده هنا وعدا خفيا بأنها ستجزيه على هذا الحب وستطيع ما يأمر به .

أما وقد بلغت المغنية أتم اجادتها ، فإن بشارا يبلغ أقصى انفعاله :

فقلت : أطربتنـــا ! يا زين مجلسنا !   فهات ! إنك بالإحسان أولانـــا !
لـــو كنت أعلـــم أن الحب يقتلني   أعددت لي قبل أن ألقاك أكفانا !

حين يتحدث بشار عن القتل والأكفان ، فإن انفعاله قد وصل الى درجة الصعق والتشنج ، وهي درجة ترينا كثير من الأخبار القديمة أن العرب كانوا يبلغونها حين يخرجهم الطرب الزائد عن طورهم [1] . وهي أيضا درجة يبلغها بعض

---

(١) تأمل مثلا في الخبر الآتي ، يروى عن يزيد بن عبدالملك – أمير المؤمنين وخليفة المسلمين – حين سمع غناء لمعبد : « فصاح يزيد : أحسنت والله يا مولاي! أعد فداك أبي وأمي ! فأعاد ، فرد عليه مثل قوله الأول ، فأعاد ، ثم قال : أعد فداك أبي وأمي ! فأعاد. فاستخفه الطرب حتى وثب وقال لجواريه : افعلن كما أفعل . وجعل يدور في الدار ويدرن معه وهو يقول :

يـــا دار دوريـــني   يا قرقر امسكيـــني

مستمعينا المعاصرين ، حين نراهم وقد اندفعوا قائمين من كراسيهم ، وجحظت عيونهم ، وفغروا أفواههم ، ومدوا أيديهم يصيحون في عصبية ناشجة : آه يــا ناس ! متّ خلاص ! موتيني يا سومه ! منك لله يا سومه ! يا هوه ! ثم يتهالكون في كراسيهم ، وقد أجهدوا إجهادا تاما .

نصل الآن الى خاتمة القصيدة وخاتمة الحفلة :

فغنت الشرب صوتــا مؤنقــا رملا | يذكي السرور ، ويبكي العين ألوانا
« لا يقتــل الله مــن دامت مودتــه | والله يقتل اهل الغدر احيــانــا »

هي لحذقها تغني بلحن جديد ، هو لحن الرمل ، فتجعل نفس الوزن الشعري الذي عليه كل أبيات الغناء — وهو بحر البسيط — يتموج بأنماط أخرى من الإيقاع والنغم. والسامعون في إجهادهم التام قد وصل طربهم الى أقصى شحذه ، وأشده وقعاً على نفوسهم ، حتّى استحال من فرط حدته الى بكاء ، كما يتحول كل انفعال قوي ، حتّى انفعال السعادة ، الى بكاء حين يبلغ منتهاه . فهم بين ضحاك هستيري ، وبكاء هستيري ، يعطون دليلا على تقارب اللذة والألم حين يبلغان حدهما ، وينقلب احدهما الى الآخر ، ويمتزجان . اما البيت الأخير الذي تختاره القينة خاتمة لغنائها — ولعله هو أيضا من شعر بشار — فهو شاهد أخير على ذكائها . فهي تريد به أن تطمئن أولئك السامعين الذين هاجت صبابتهم ، الى أن الحب — بخلاف ما يدعيه المتزمتون — لا ضير منه ولا إثم فيه ما دام مخلصا وفيا خاليا من الغدر بالحبيب . مثل هذا الحب فليبارك الله فيه . اما ما تكرهه وما تدعو على صاحبه بالهلاك دائما (واحيانا هنا معناها دائما ، كما هو استعمال العرب في

= آليت منــذ حــين | حقــا لتصرميني
ولا تواصليـــني | بــالله فارحميني
لم تذكري يميني

فلم يزل يدور كما يدور الصبيان ويدرن معه حتّى خر مغشيا عليه ، ووقعن فوقه ، ما يعقل ولا يعقلن . فابتدره الخدم فأقاموه وأقاموا من كان على ظهره من جواريه ، وحملوه وقد جاءت نفسه أو كادت . » أغاني دار الكتب ١/٦٨ — ٦٩ .

هذا الأسلوب)، فهو الحب الذي يدنسه الغدر . وبهذا ينصرف السامعون من مجلسها — ومنهم من سينصرف الى نوع آخر من اللذة — وقد اطمأنت مخاوفهم ، اطمئنانا مؤقتا على الأقل ، من أن يكونوا يرتكبون إثما بهذا النوع من الحياة اللاهية المستمتعة الذي اختاروه .

فإذا أعدنا النظر في القصيدة ككل ، وجدنا فيها شاهدا آخر على صدق التصوير وواقعيته . وهو تقسيمه اياها بين غناء الجارية وبين طربه هو وصياحه مع سائر المستمعين . فاذا أحصينا أبيات الغناء التي غنتها القينة وجدناها أربعة فقط من ستة عشر بيتا . أي أنها لا تزيد من حجم القصيدة على الربع . وهذا مساو أو مقارب للنسبة التي تجدها إذا أحصيت عدد الدقائق التي يشغلها الغناء في احدى حفلاتنا وعدد الدقائق التي يستغرقها تعبير المستمعين عن إعجابهم واستزادتهم وتنفيسهم عن انفعالهم . وحين غنت أم كلثوم أغنيتها المشهورة « أنت عمري » التي لحنها لها محمد عبد الوهاب ، استغرقت الوصلة التي غنتها فيها أمام جمع السامعين ما زاد على ثلاث ساعات . فلما سجلتها في اسطوانة ، بدون صياح من سامعين او استزادة مسرفة ، لم تزد على نصف الساعة الا قليلا !

* * *

وهكذا نجد بشارا برغم ما لقي وقاسى ، وكل ما فاض به قلبه من الحقد والنقمة ، يستطيع المرح الخالص والمؤانسة الصافية حين تواتيه الفرصة وتكتمل له أسباب التصادق والمودة فتصدر عنه مثل هذه القصيدة الطروب ذات الرضى التام . وهي صفة احتفظ بها حتى أواخر أيامه . وبقاؤها فيه على الرغم من كل أرزائه وخصوماته وشكوكه المعذبة يثبت لنا أنه في أصالة طبعه كان من الصنف المستبشر المرح الذي يريد مصادقة الجميع ، فماذا تراه كان يصير لو خلت حياته من آلامها ولم يسممها عليه خصومه ؟ لا شك أنه كان حينئذ لا يقل سعادة وصفاء عن عمر أو أبي نواس فلا نسمع في شعره إلا ما نسمع في شعرهما من أنغام السعادة المنطلقة الحرة ولا نذوق منه إلا ما نذوقه منهما من القراح الذي لا يخالطه ثقل ولا قذى .

صحيح أننا كنا نسمع فيه بين الفينة والفينة نغمة حادة أو مزحة لاذعة ولكنها ما كانت تزيد في إيلامها إلى الحد الطاغي الذي لا يحتمل بل كانت فكاهتها تخفف من لذعها، وطيبة قلب صاحبها تسهل لنا قبولها . فان كان بشار لعماه ودمامته محتوما عليه ألا يخلو من قدر من المرارة فقد كان استعداده للفرح ونزوعه إلى الجوانب المضيئة الباسمة من الحياة لا يقلان عما نجد في عمر وأبي نواس. ففيه ما فيهما من القدرة على الاستمتاع العميق بمباهج الحياة وفيه ما فيهما من إيثار للتفاؤل وعزوف عن العبوس والتشاؤم . فانك لا تجد في شعرهما قصيدة تفوق هذه القصيدة مرحا ونشاطا. هذا مع أنهما كانا مبصرين وهو كفيف وكانا وسيمين وهو دميم وكانا محبين معززين وهو مبغوض محتقر . فليفكر القارىء مرة أخرى في ذلك الفتى الجامايكي الذي قصصت قصته ...

خشوع

يــــاليلتي تزداد نــكرا	من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت اليــــ	ـك سقتك بالعينين خمــرا
وكــــأن رجع حديثهــا	قطع الرياض كسين زهرا
وكــأن تحت لســانهــا	هاروت ينفث فيه سحرا
وتخــــال ما جمعت عليـ	ـه ثيابهــا ذهبــا وعطرا
وكــــأنهــــا برد الشرا	ب صفا ووافق منك فطرا
جنيــــــة إنسيــــة	أو بين ذاك أجــل أمرا
وكفــاك أني لــم أحط	بشكاة مــن أحببت خبرا
إلا مقــــالــــة زائر	نثرت لي الأحزان نثرا
متخشعـــــا تحت الهوى	عشراً وتحت الموت عشرا

بهذه القصيدة نعود إلى تأمل حب بشار للنساء : أكان شهوة جسمانية محضة؟. هذه قصيدة أخرى تنفي ذلك . فليلاحظ القارىء مرة أخرى أني لا أدعي أن

بشارا أحب حبا أفلاطونيا ، لا أدعي ذلك الآن وما ادعيته قط ، فلا شك أن عاطفته في هذه القصيدة تقوم على الأحساس الشديد بالجمال الجسدي للمرأة ، ولكن أليس هذا هو شأن كل حب من الرجل للمرأة مهما يكن سموه وتحليقه ؟ بلى ، إن كنا ممن يخلصون التفكير ويصرون على نزاهة الحكم ، ولم ننخدع بما قد يدعيه البعض من استطاعتهم تمثل الجمال المثالي المجرد . فالحب الأفلاطوني نفسه لا بد أن ينشأ عن جمال جسماني يجده صاحبه في المرأة أو يظنه فيها ، ثم يتسامى في نظرته إليه حتى يستجلي في صورته المادية انعكاسا من المثل الذي يؤمن به . فالمُثُل الأفلاطونية قد يكون لها وجود حقيقي قائم بذاته في عالم آخر ، ولكننا معشر البشر لا نستطيع إدراكها إلا إذا تجسمت لنا في شكل حسي ، والذي يدعي القدرة على الادراك التجريدي يخدع نفسه ويخادع غيره .

فلنبحث الآن في هذا الحب الأفلاطوني . أله وجود في واقع الحياة ؟ أهناك من يقتصرون في نظرتهم إلى محبوبتهم على الاستمتاع الروحي المجرد لا يبغون متعة سواه ؟ لن ألجأ إلى ما يلجأ إليه البعض من الأنكار التام لوجود هذا النوع من الحب أو التكذيب البات لكل من يدعيه ، فانه ربما يوجد ، ولكن وجوده مقصور على فترة من الميوعة العاطفية يمر بها الفتى في بدء تفتحه العاطفي ، ثم يخلص منها حين يتم نضجه ، فان بقي فيها سائر حياته فهو من الشواذ الذين يحدث لهم اضطراب جسمي أو عقلي يعوق تطورهم ويبقيهم في مرحلة ينتقل منها معظم الناس ، وهؤلاء قلة خرجت على القاعدة الطبيعية فهم لا يقاس عليهم ولا يستمد من سلوكهم حكم يطبق على سائر الناس أو مثال يطالبون بمحاكاته .

فالحق أن معظم حبنا البشري يستلزم الاستمتاع الجسمي ويقوم على أساسه . ولكن ليس معنى هذا أنه يبقى في جميع الناس محدودا في هذه المتعة الجنسية ، فان بعضنا يستطيع أن يتخذها بداية لنشوة أعلى ومرقاة يصعد عليها إلى أفق أسمى . وهكذا كان حب بشار بلا مراء . يبدأ بالجسد ثم يتسامى إلى الروح . ونقادنا الذين رأوا افتتانه بالجمال الجسماني فحكموا بأنه لا يعرف إلا النزوع الحيواني وقعوا في خطأ بدائي فحواه أن كل من افتتن بالجسد لا يستطيع الافتتان بالروح ، وكل من

تطلب متعة الجسد ينصرف عن نشوة الوجدان ، فهم في الحقيقة يقسمون الحب قسمين لا يرون لهما ثالثا : إما الحب المادي وإما الحب المثالي ، وهو خطأ قد نغفره للفتيان في فترة تهوسهم الخيالي ولكن لا نسامحه في نقاد ناضجين حصيفي التفكير صادقي الملاحظة لحقائق الحياة .

عد الآن إلى القصيدة وتأمل أولا رقتها البالغة ، بألفاظها وأنغامها ووزنها ورويها ، أكانت هـــذه الرقة تتحقق لرجل ليست المرأة عنده « إلا أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها ، وأداة يرضي بها غريزته » ؟ أم هي رقة « ليس يحتاج الشاعر إلا لأن يكون حيوانا ذكيا » لتتأتى له ؟ أيمكن أن تكون رقة صناعية متكلفة يستطيعها أي صناع حاذق فلا تدل على حنين صادق وشوق مخلص ؟

ثم تدبر وصف بشار لهذه الفتاة ، انظر أولا وصفه لها بأنها «بكر» وما يشيعه هذا اللفظ في القصيدة كلها من معاني البراءة والطهر ، والوداعة والحياء ، التي تقرنها أذهاننا بالعذراء ، وهي لفظة تتخذها جميع الآداب التي نعرفها رمزاً لهذه المعاني ، فان قرنها أحدنا بالأفحاش والاغتصاب فهذا إثمه هو لا إثم بشار في هذه القصيدة ، أو هو ظل الرائية الأخرى لا يزال يفسد عليه نظره في غزل بشار ، فليس في باقي القصيدة كلمة واحدة تعززه .

وهذه اللفظة تعطيك مفتاح هذه القصيدة ، فشعور بشار فيها نحو الفتاةشعور إجلال يصل حد الرهبة والخشوع ، خشوع البشر أمام السر الألهي المحجب .

ثم يصفها بشار وصفا يستمده من أسلوب المبصرين :

حـــوراء إن نظرت اليـــ   ـك سقتك بالعينين خمرا

ولكنه سرعان ما يعمد إلى وصف ناحية من جمالها يعرفها حق المعرفة ، جمال صوتها وفتنة حديثها :

وكـــأن رجع حديثهـــا   قطع الرياض كسين زهرا
وكـــأن تحت لســـانها   هاروت ينفث فيه سحرا

والذي يقول هذا الشعر الجميل قد شغف حقا بصوتها الجميل وحديثها الفاتن . والذي يفتنه في المرأة حديثها ليس حيوانا همه الأشباع الجسمي . وليس هذان البيتان هما كل ما قال بشار في وصف شغفه بالحديث ، فله في هذا المعنى أشعار كثيرة جمعها نقادنا المحدثون فلا نحتاج هنا إلى الاستشهاد بها ، والعجيب أنهم حين يجمعونها لا يلتفتون إلى المغزى الحقيقي لكثرتها في شعره ، ولا إلى استحالة صدورها من رجل يقولون عنه إنك «لا تقرأ له بيتا واحدا (بيتا واحدا!) يسمو به إلى إدراك «النفس» الأنثوية وما فيها من حلاوة صافية ورحمة سماوية وكنوز عطف تغذي بها وجدان الرجل ». فلم شغف بحديث المرأة كل هذا الشغف وافتتن إلى هذا الحد من الافتتان ؟

وليس أقطع في الدلالة على صدق افتتانه هذا من طريقته في الوصف ، صحيح أن ثاني البيتين ليس إلا التشبيه التقليدي الذي لا يدل بالضرورة على إعجاب صادق ، وإن كان لا يطعن بالضرورة في صدق الإعجاب ، ولكن أولهما يحتاج إلى نظر ملي ، فأسلوبه تام الابتكار تام الجدة على الشعر العربي ، والشاعر الذي لا يكتفي بالتشبيه المعهود بل يجهد نفسه في أن يعبر عن شعوره الشخصي تعبيرا شخصيا مستقلا يدل على صدق العاطفة التي يدعيها ، وخصوصاً إذا لاحظنا أن هذه المحاولة تلجئه إلى أسلوب غريب لم يعهده سامعوه ، ولا يزال غريبا على الكثيرين منا برغم سيرورة شعره ، بل أحد نقادنا العظام يصعب عليه فهمه فيذهب في تفسيره مذهبا لا يمكن أن يكون الشاعر قصده ، نعني المازني حين يقول [1] عن هذا البيت : « وأولى به أن يكون تشبيها لأنفاسها وطيبها ، وإن كان مقبولاً بمعنى أن نسيم الرياض ينعش الجسم ويحيي النفس ».

فليس غرض بشار أن يصف أنفاسها وطيبها أي رائحة فمها حين تتحدث ، وإنما غرضه أن يحدد الصفة السمعية المحضة لصوتها . أي وقعه على الأذن ، أو قرع تموجات الصوت في الهواء لطبلة أذنه ، وما لهذه التموجات من تكرر وأثر ينقطع

(١) صفحة ٦٨ من كتابه عن بشار في سلسلة أعلام الإسلام .

ويستأنف ويسترسل برهة بعد انتهاء الوقع الحسي ، وهذا يتضح لك إن تأملت كلمة « رجع » . فبشار كان مفرط الحساسية بتأثير الصوت ، فلم يكن يسمع فيه نغمة واحدة أو نغمتين إحداهما عالية ، والأخرى منخفضة ، أو إحداهما رقيقة والأخرى ضخمة ، بل كان يسمع فيه أنغاما متجددة متناهية لا عدد لها ، لا يستطيع المبصر تمييزها احداها عن الأخرى اللهم إلا إذا كان موسيقيا موهوبا .

وغرابة وصفه أن يشبه رجع الحديث بقطع الرياض المكسوة بالزهر ، وهذه لا تسمع ، بل ترى ، فهو ينقل تأثيره العاطفي من حاسة إلى حاسة ، والذي يدفعه إلى هذا هو أنه يحاول أن ينقل شعوره الدقيق إلى المبصرين بلغة يفهمونها . والمفتاح إلى فهم محاولته هو كلمة «قطع»، فالرياض التي يختارها للتشبيه هي إذن قطع مختلفة الألوان ، لأن كلا منها ينبت زهرا مختلفا ، فهو يقول للمبصرين : إن الأنغـام المختلفة التي أميزها في رجع حديثها هي كالألوان المختلفة التي تراها عيونكم في الرياض المزهرة . وشرحنا هنا ليس مجرد تخمين ، بل الدليل على صحته بيته الآخر :

وحديث كـــأنه قطع الرو ض ففيه الصفراء والحمراء

فالأذن الموسيقية المرهفة يتتابع عليها رجع الحديث فتميز فيه بين عشرات الدرجات الصوتية ، كالعين المبصرة تميز بين عشرات الظلال اللونية ، وبشار يخاطب أناسا معظمهم لا يستطيعون هذا التمييز المرهف في درجات الصوت ، ولذلك يختار لهم تشبيها قد يفهمونه ، ولو أنه كان يخاطب موسيقيا متخصصا لما احتاج إلى هذا التشبيه بل لفهم غرضه مباشرة .

والعجيب أن الموسيقيين النابغين الذين نعرف سيرهم كانوا كثيرا ما يخلطون بين حاسة السمع وحاسة البصر ، فيتخيلون للأنغام ألوانا أو يرون الألوان فتستدعي إلى مخيلتهم الموسيقية نغمة معينة ، وهذا يستطيع علماء النفس تعليله بتداعي الخواطر واقتران نغمة معينة ولون معين بتجربة واحدة فاذا تكررت التجربة استدعى أحدهما الآخر . ولكن ما شأن بشار وهو لم ير ألوانا ؟ العلة هي أنه إنلم يكن اللون الأحمر

مثلا فانه سمع الكثير من وصف الناس له وحديثهم عنه وشعورهم نحو الأشياء التي تتلون به ووصفهم لهذا الشعور في نثرهم وشعرهم، فكون لنفسه من هذه الأوصاف « كنها » خاصا للون الأحمر ، فحين تقرع أذنه نغمة يجدها بقريحته الموسيقية الحساسة تثير فيه عواطف مشابهة فطبيعي أن يربط بينها وبين اللون الأحمر . ولا بد لنا في متابعة هذا كله أن نتذكر ما تدل عليه أخباره من أنه كان شديد الشغف بالموسيقى والغناء ، بل يقولون إنه « كان صاحب صوت حسن » ، ومعنى هذا بالطبع أنه كان كثيرا ما يلجأ إلى التغني في مجالسه السعيدة ولا يكتفي بالتكلم أو الانشاد [١] . فاذا ضممنا هذا إلى تأثره الشديد بجمال صوت المتحدثات والمغنيات فقد يحق لنا أن نستنبط أنه لو أتيحت له فرصة التعلم والتدرب منذ صباه لكان موسيقيا متخصصا . فهذا إذن تفسير قرنه بين الأنغام والألوان ، وبيته العجيب الرائع :

وإذا دخلت تقنعي بالحمر ، إن الحسن أحمر ! [٢]

يذكرني بما روى لي عن ذلك الموسيقي الانجليزي المكفوف الذي ذكرته سابقا ، فقد قص على أصدقاؤه أنه كان يجلس إلى البيانو فيقول لهم : تظنون أني لا أعرف الألوان التي تتحدثون عنها ! هذا هو اللون الأحمر — ثم يوقع على أصابع البيانو لحنا خاصا . وهذا هو اللون الأزرق — ثم يوقع لحنا آخر ، وهكذا .

فبشار لم يقصد وصف رائحة أنفاسها وتشبيهها بنسيم الرياض في الطيب أو الأنعاش ، وإنما يريد أن يصور للناس اللذة السمعية التي يجدها في الاستماع إلى صوتها ذي الأنغام المتعددة الدقيقة ، فلجأ إلى تشبيه يستطيعون أن يفهموه فشبه تعدد

---

(١) أضيف إلى هذا أن مخطوطة كتاب طبقات ابن المعتز التي صورها ونشرها عباس إقبال نجد فيها هذه الجملة « وكان مفنناً بارعاً » ويغلب على ظني أنه تحريف صحته « وكان مغنياً بارعاً » .

(٢) كرر نفس التعبير في قوله (الديوان ٤/٥٩) :

هجان عليها حمرة في بياضها تروق بها العينين ، والحسن أحمر

الأمر الذي يدل على أنه تمثل للون الأحمر كنها خاصاً لا نستطيع إدراكه بالطبع ، لكنه فتنه فتنة قوية .

هذه الأنغام بتعدد الألوان والظلال التي يرونها بعيونهم ويصفونها في حديثهم وأدبهم الشعري والنثري ، ولكن الذي نقصد إليه من هذا الاستطراد هو إثبات صدق عاطفته، فان الشاعر الذي يلجأ إلى هذا الوصف الغريب محتوم أن يكون صادقا في الشعور الذي يدعيه ، وهو افتتانه الخالص بحديث المرأة ، والذي يشغف بالحديث هذا الشغف لا يكون احساسه نحوها مجرد إحساس الحيوان الذكر نحو أنثاه . على أن بشارا في البيت القادم :

وتخـــال مـــا جمعت عليـــه ثيابها ذهبـــا وعطرا

يعطي الدليل الأعظم على أن انفعاله أمام جمال المرأة لم يكن مجرد الشبق الجسمي ، بل هو هنا يمتزج بالخشوع والرهبة ، فالرهبة والخشوع خير وصف للشعور في هذا البيت . يفكر بشار في جمال جسمها ، هذا ما نسلم به ، لا ندعي أنه يفكر في جمال روحها ، ولكن إذا بهذا الجمال الجسمي سر خفي مرهوب يخشع له ويقشعر حين يفكر فيه كما يقشعر العابد إذ يدنو من محراب إلهه الذي يعبده ، وهذه القشعريرة تكاد تحس بها احساسا جسميا إذا تأملت رمزه « مـــا جمعت عليه ثيابها». لا يقول جسمها ، ولا يقول أعضاءها كذا وكذا ، بل ليس يقول جمالها ، بل يرمز إليه بهذا الرمز المبهم ،« ما جمعت عليه ثيابها». فالذي جمعت عليه ثيابها شيء نفيس محجب لا يكتنه سره المستخفي، ولكن يصل منه إشعاعات تنم عليه، فهو شيء وهاج متألق له بريق الذهب يكاد سناه يذهب بالأبصار ، وله شذى أرج شديد الفعل بالعقل يثير في رأسه دواراً ، ولأمر ما يحرقون في محاريب العبادة أنواع العطور ، ويوقدون الشموع والنجف ذات الضوء المقطع المهتز ، حتى في عصرنا الكهربائي يؤثرونها على المصابيح الكهربائية ذات الضوء الثابت ، واضطراب بشار ودواره تحس به أيضا في قوله «تخال» فهو لا يدرك تماما حقيقة انفعاله وإنما هذا ما يخاله . وتشبيهاه نجد أحدهما مرة أخرى مستمدا من أسلوب المبصرين ولكن ثانيهما شيء هو به جد خبير .

ثم تأمل قوله :

وكأنها برد الشرا ب صفا ووافق منك فطرا

فلنفكر مليا في هذا الشعور الذي يصفه ، أي شعور هو ؟

تكون شديد العطش بعد يوم طويل مرهق من أيام الصوم ، ثم يقبل إليك قدح من الماء البارد السائغ الشهي ، فتشربه فيروي غلتك ، فأي شعور تشعر به ؟ لا شك أن أول ما تشعربه هو الارضاء الجسمي ، كنت تشعر بألم جسمي من فرط عطشك ، فقد انتهى الآن هذا الألم وأعقبته لذة الري ومتعة الراحة الجسمية . ولكن أهذا كل شيء ؟ بل يتبع ارتياحك الجسمي ارتياح نفسي عجيب ، تهدأ وتقر وتحس بالرضى والبشر وتبتسم للناس والحياة ثم تنتعش روحك وتخالطها الأريحية وتحس بنشوة من الاستبشار نسميها السعادة . هذا هو الشعور الذي يصفه نحو محبوبته ، يبدأ بأن يكون إرضاء جسميا وينتهي بأن يكون نشوة روحية .

وهذا هو الشأن في كل المتع الروحية التي نستطيعها نحن أبناء آدم ، حتى النشوة الفنية الصادقة تبدأ باستمتاع حسي تستمتع فيه أذننا بكلمات أو أنغام جميلة الوقع على الأذن أو تستمتع فيه عيننا بألوان وأجرام جميلة الوقع على العين. بل هذا هو الشأن في النشوة الدينية تبدأ بالطرب الحسي من تنغيم القرآن المعجز أو حلاوة ترنيم الأناجيل والمزامير أو شجى ألحان الأرغن أو الدفوف أو شذى عطر الأعواد والبخور . ذلك أقصى ما نستطيع معشر البشر فليقل أنصار الحب الأفلاطوني ما يقولون .

فإن بقي عندك شك في سمو عاطفة بشار فاستمع إلى هذا البيت :

جنيـة أنسيـة أو بين ذاك أجل أمرا

أفقائله لا يرى في المرأة إلا «أداة يرضي بها غريزته» ؟ أم هو لا يحتاج « إلا لأن يكون حيوانا ذكيا » ؟ أم هو رجل لا يدرك ما في النفس الأنثوية « من حلاوة صافية ورحمة سماوية » ؟ ما معناه ؟ هي شيء عجيب محير لا يستطيع أن يفهمه، والشيء الوحيد الذي يثق به هو أنها ليست مجرد مخلوق بشري . أفجنية هي ؟ ولكن

لا شك أن لها جسم الإنس وصفات الإنس . أم تراها نصف إنسي ونصف جني ؟ أم تراها شيئا سوى هذا كله ، مخلوقا آخر من جنس مختلف تماما ، لا هو بالأنس ولا هو بالجن ، بل يشبه كلا منهما في بعض صفاته ، ولكنه يفوقهما تماما ويعلو عليهما معا ؟

الذي يشعر بهذا الشعور نحو المرأة لا يمكن أن يكون اقتصر على أن يفهم « الأنثى الجسد » فهما حيوانيا ، بل لا يمكن أن يكون اقتصر على بشريتها ، إنما تجلى له فيها مغزى يبدأ بالبشرية ويتصعد بها ، مغزى علوي، مغزى إلهي .

أما الأبيات الثلاثة الأخيرة فيقص فيها بشار قصة هذه القصيدة ، وهي أنه انتظر محبوبته في ليلة واعدته عليها ، ولكنها لم تأت ، ثم أرسلت إليه جاريتها تعتذر إليه بمرضها ، فقضى زمنا يتنازعه ألمان ، تارة يتأجج شوقا وحرمانا وتارة يكاد يقتله الخوف عليها لما بلغه عنها من مرض سمع به ولا يعرف كنهه أو مقدار خطورته . والذي لا يرى في هذه الأبيات حرقة صادقة غير مدعاة قد صمم على ألا يرى ببشار لونا واحداً من الصدق :

وكفاك أني لـــم أحـــط ... بشكاة من أحببت خبرا
إلا مقـــالـــة زائـــر ... نثرت لي الأحزان نثرا
متخشعـــــا تحت الهوى ... عشر وتحت الموت عشرا

أيها الساقيان صبا شرابي !

كل هذه قصائد جميلة مطربة ، وهي وحدها كافية أن تنزله في الشعر العربي منزلا رفيعا ، ولكن أجمل شعره عندي ، وأشده جميعا تأثيراً فيّ ، هو أبياته الفائقة الشجية ، وددت لو كتبتها بماء الذهب إن كان في هذا اكرام للشعر :

أيهـــا الســـاقيان صبـــا شرابي ... واسقيـــاني من ريق بيضاء رود
ان دائي الظمـــا ! وان دوائي ... شربة من رضاب ثغر برود

ولهـــا مضحك كغر الأقـــاحي　　　وحديث كالوشي وشي البرود
نزلت في السواد مـــن حبة القلـ　　　ـب ونـــالت زيادة المستزيـــد
ثم قـــالت : نلقاك بعد ليـــال　　　والليالي يبلين كـــــل جديد
عندها الصبر عن لقائي وعندي　　　زفرات يأكلن قلب الحديد [1]

لعلامتنا الجليل الأستاذ احمد أمين مقالة طريفة [2] يشرح فيها الرأي القائل بأن الذوق لا يعلل ، فيروى من أدلة أصحابه أن «الناظر ينظر إلى الصورة فيستجملها أو يستقبحها ، فإن أنت سألته : لم استجملها أو لم استقبحها ؟ لم يحر جوابا ، وإذا أجاب أجاب بكلمات منمقة ، ولكنها جوفاء ، لا تحوي علة ولا توضح سببا ، وإنما هي نفس الدعوى بألفاظ رشيقة جميلة ، وإذا رأيت طاقة من الزهر قلت : ما أجملها ! ولكن ان سئلت : لم كانت جميلة ؟ قلت : إنها منسقة ، إنها بديعة الألوان ، إن نفسي لترتاح إلى رؤيتها ، إنها لتسر النظر وتبهر العقل ، وأنت غني عن أن أقول لك إن هذه ألفاظ وجمل قد ترضي البلاغة ، ولكن لا ترضي المنطق ... لا شيء في الحقيقة إلا الذوق الذي لا يعلل ، وهذا هو الشأن في الأدب ، وأظهر مثل لذلك ما فعله عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ، فماذا صنع ؟ إنه يأتي بالبيت الجميل ثم يقف ويتساءل : فيم كان جماله ؟ فما هو إلا أن يصوغ لك جملا رشيقة ، فيقول : إن هذا اللفظ يروقك ويؤنسك . وغيره يثقل عليك ويوحشك ، وهذا الوضع يبهرك جماله . وهذا النظم يأخذ بلبك ما فيه من نسج وصياغة ، ووشي وتحبير ... »

ثم يمضي في تفنيد هذا الرأي وإن سلم بأن فيه شية من الحق ، ويقول إنه إن كان الفن نتيجة الذوق لا محالة ، فان الذوق يمكن تربيته وترقيته . وتفنيده صحيح ، وادعاؤه عن إمكان تربية الذوق وترقيته مصيب ، للأسباب التي يذكرها ،

---

(١) القصيدة التي ترد فيها هذه الأبيات في الديوان ٢/٢٧١ . وفي البيت الأخير منها قراءة أخرى : « يأكلن صبر الجليد » .

(٢) مقالة «كيف يرقى الأدب» في الجزء الأول من فيض الخاطر .

ولأنه ليس من الحق أن يقال إن كل بضاعة الناقد الأدبي أن يقول ما أجمل وما أروع . أو إن هذا ليروقني ويؤنسني ، وإن هذا ليبهرني جماله. بل في استطاعته ــ إن كان ناقدا مجربا ــ أن ينجح في اقناع قارئه بوسائل في التحليل عملية ، ونصائح وإرشادات إذا اتبعها قارئه وكان ذا استعداد فطري حسن انتهى إلى أن يرى في الشعر المدروس نفس الجمال الذي يدعيه الناقد .

كل هذا صحيح ، ولكني أعود فأقول : ان في الأدب قطعا معجزة الجمال ، يأتي إليها الناقد فينبهر ، فان حاول «تحليل» جمالها كان أقصى حيلته الادعاء الذي لا يقوم عليه دليل ، وكان أقصى أمله أن يثير في القارىء نفس الحالة العاطفية التي تخالجه ، بأن يسهب في وصفها فلعل انبهاره تنتقل عدواه الى القارىء .

فهأنذا أجد نفسي في نظير هذا الموقف ، لا أدري ماذا أقول لأشرح للقارىء مبلغ تأثير هذه الأبيات فيّ ، وعزائي الوحيد أن أرى من نقاد الادب ، عربيه وغربيه ، من هم أعظم مني مكانة وأرسخ قدما ، يجدون أنفسهم بين الفينة والفينة في مثل هذا المأزق العسر ، حين تجبههم معجزات الأدب بأتم روعتها فيصعقون ولا يستطيعون كلاما «يرضي المنطق».

ماذا أقول ؟ هل أتحدث عن رقة الألفاظ وعذوبتها ، أو عن ما في التنغيم من حنان وإشجاء ، أو عن ملاءمة بحر الخفيف ، بهدوئه وجلاله ، لهذا الحزن الهادىء الجليل الذي يتملك الشاعر ، لا ثورة فيه ولا سخط ، بل أسى وجداني وشجن وديع شديد التأثير في القلب .

كل هذا صحيح ، ولكنه بأجمعه لا يكفي في تعليل مقدار الشجى الذي تبتعثه هذه القصيدة ، فهذا «المقدار» أعظم بكثير مما يبدو أن هذه الألفاظ اللغوية المألوفة حقيقة بابتعاثه. فأنا أكتفي بأن أنبه القارىء إلى أن هذه المقطوعة أشد شعر بشار احتياجا إلى الغناء . فقراءتها لا تكفي أبداً ، بل يجب وجوبا أن يتغنى فيها ، وما أظن أسبوعا يمر بي إلا حاولت ذلك وتمنيت لو كان الله وهبني صوتا جميلا من أجلها ، وتمنيت لو استكشفها بعض مغنينا البارعين ، فغنوها بدلا من

هذه الأغاني السخيفة السقيمة التي يفسدون بها أذواق الناس كل يوم ، فانهم سيجدون في هذه المقطوعة كل ما تشتهيه أنفسهم من العاطفية والجوى والحرقة ، ولكنها عاطفية صحيحة لا مرض فيها ، وجوى سليم لا ميوعة فيه ، ولا سقم ، وحرقة صادقة لا كذب فيها ولا مبالغة ، ولقد هممت مرات بأن أكتب إلى أشجاهم صوتا وأصدقهم نشوة فنية أسأله غناءها وألحف في السؤال، مشترطاً شرطاً احداً : أن يكون تلحينه فيها بسيطاً إلى أقصى حد من البساطة ، عربياً خالص العروبة لا شية فيه من التقليد الأفرنجي أو «التجديد» المزعوم .

ولكن دعنا من هذا كله ، فلنتأمل هذا الظمأ ، الذي يتحدث عنه بشار والذي تنطق به القافات الثلاث في البيت الأول ، فتمثل لنا ما يحدث للعطشان من تحريك الحلق انتظارا للشراب ، أو ما نسميه «بلع الريق». أي ظمأ هذا ؟

أهو ظمأ إلى مجرد شراب مادي ، أم هو ظمأ إلى مجرد شراب بشري ؟ بل هو ظمأ روحاني رفيع ، وإن كان الشاعر لا يعبر عنه هذا التعبير . صحيح أن منشأه تعطشه إلى جمالها الجسمي ، إلى اللذة المادية لريقها البارد الشهي . وصحيح أن الشاعر يقول إن دواءه شربة من رضابها . ولكنه لا يقف عند اللذة المادية ، وهذا الدواء الذي يريده ليس إلا بدءاً للنشوة العليا التي ستليه. وإلا فتأمل في كل بيت من أبيات المقطوعة يلي البيتين الأولين ، تجده لا يريد تقبيلها فحسب ، بل يريد أيضا أن يستمع إلى ضحكها ، وان تداعب أذنه نغمات حديثها ، وهو هنا ينقل إحساس السمع ، لا إلى إحساس البصر كما فعل سابقا ، بل إلى إحساس اللمس ، فيجد لهذه النغمات على مسمعه نعومة ودقة وإرهافا يكاد يكون ملموسا كوشي البرود حين تتحسسه أطراف الأصابع [1] . ثم تأمل في نزولها في السواد من حبة قلبه ، ونيلها ريادة المستزيد .

فالذي يتأمل البيتِ الرابع يقطع بصدقه ، فهذه اللهجة الحارة الشجية «نزلت

---

(١) وهذا ما يفعله كبار الموسيقيين أيضاً ، يجدون للانغام ملمساً ويتمثلون في الألحان المختلفة درجات مختلفة من النعومة والملاسة أو المتانة والسمك أو الأحجام المستديرة والمربعة والمثلثة .

في السواد من حبة القلب »، وهذا التعبير الدقيق « السواد من حبة القلب»، وهذه النجوى الرالهة «ونالت زيادة المستزيد» ترن أنغامها بالصدق . أما لهفته ونفاد صبره في البيت الخامس ، وزفراته اللائي يأكلن قلب الحديد في البيت الأخير ، فهي أعظم بكثير مما تستدعيه رغبة جسمانية محضة .

وهاتان هما الحقيقتان اللتان لا أظن فيهما مجالا للشك . للقارىء أن ينزل الأبيات منزلة في الشعر دون ما أدعي لها ، وأنا أدعي لها الذروة العليا التي لا منطلق بعدها ، فالخلاف في قدر الأجادة مشروع في النقد وربما تتحكم فيه عوامل شخصية لا يمكن التجادل فيها . ولكن ما أظن ناقدا منصفا يستطيع أن ينكر هاتين الحقيقتين : ان اللهفة في هذه الأبيات تامة الصدق ، وأنها لهفة تعلو كثيرا على اللهفة المادية . فبهذه الأبيات وحدها أستطيع أن أواجه نقادنا الذين يتهمون بشارا بالنفاق والكذب في كل شعره ، وبصفونه بالتكلف في كل شعور يدعيه، وينكرون أن يوجد في شعره الهام أو حنين أو أشراق أو بدوات أو خيال ، ويدعون أن كل صبوته صبوة الجسد إلى الجسد . فإن لم نجد في هذه الأبيات نغمة ساحرة ترتفع بالنفس إلى عالم الأحلام والأشراق وتسبح بها في فراديس الأفراح والأشجان فلنستأنف التأمل فيها ، ولنعده كرة بعد كرة ، ولنتغن بها يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر ، ولنعش مع قائلها ولنفتح له قلوبنا ولا نغلقها دونه ، ولنسمح لشجنه وحنينه بأن يتغلغل إلى السواد من حباتها ولا نقم في سبيله العراقيل والحواجز : ثم لننظر ماذا نرى ، فان ظللنا على رأينا فيها من الانتقاص فقد يكون لرأينا بعد هذه المحاولة المخلصة قيمة، أما قبلها فلا . فالسبيل الواحدة إلى التقدير الفني الصحيح أن تبذل جهدك في المشاركة العاطفية ، فان لم تفعل فليس بمستغرب ألا تجد جمالا في أي عمل فني ، قصيدة كان أو صورة ، أو قطعة موسيقية أو تصويرا منحوتا .

على أنه لا يزال بيدي وسيلة في الأقناع ألجأ الآن اليها ، وهي وسيلة كثيرا ما تكون في النقد الأدبي خير الرسائل ، بل يدعي البعض أنها دائما خير الوسائل ، وهي المقارنة . فلعلها تقدم إلى القارىء معونة عظيمة في تكوين رأيه الخاص عن قصيدة بشار . فأسوق اليه قطعة من أروع الشعر الانجليزي وأشهره . ثم أتأمل في

مقدار اتفاقها مع قصيدتنا العربية ومقدار اختلافها عنها. وهي القطعة الآتية للشاعر الاليزابيثي المعروف بن جونسون : Ben Jonson

Drink to me only with thine eyes,
And I will pledge with mine;
Or leave a kiss but in the cup
And I'll not look for wine.
The thirst that from the soul doth rise
Doth ask a drink divine;
But might I of Jove's nectar sup.
I would not change for thine.

كلما تذكرت أبيات بشار تذكرتها ، وكلما أحزنني أن مقطوعة بشار لم يتغن فيها أحد كبار مغنينا تعزيت بأن مثيلتها الأنجليزية قد وضعت فيها بضعة من أعذب الألحان . وهذه ترجمتي المتهافتة لتلك المقطوعة الفائقة :

بعينيك اشربي نخبي — أعـــاهدك بعينيـــا
ذري لي قبلة في الكأ — س تكفي عطشي ريا
ولو أني رشفت الرا — ح من ربي الهيـــا
لما استبدلت من ذاك الـ — طلا القدسي إنسيـــا

هذا إذن هو السبب الذي يدفع بالشاعر إلى طلب الري الإنساني . هو في الحقيقة يريد النشوة الالهية ، ولكن أنى للبشر بها إلا عن سبيل النشوة الأنسية ؟ ولذلك يريد أن يستمتع بالنظر إلى عينيها الساحرتين ويتذوق ريقها الحلو ، فهذا مسلكه إلى الانتشاء الروحي ، لا يجد سواه .

لا شك أن المقطوعة الانجليزية أتم تعبيرا وأقوى تصريحا ، فالشاعر يصرح بتعبيرات «ظمأ الروح» و «ري الروح». ولكن هذا هو كل الفرق ، وهو بعد فرق أسلوبي سطحي ، أما الفكرة الكامنة فهي هي والعاطفة المختزنة هي هي ، فان لم تجد بشارا يستعمل هذه التعبيرات فلا يصرفنك هذا عن تعمق فكرته الحقيقية التي

يودعها كل بيت من أبياته الستة ، فانما منعه من مثل ذلك التعبير المحدد أنه لم يكن معروفا في تاريخ الشعر العربي إلى عصره . فلا تحسبن أن وجه المشابهة بين الشاعرين يقتصر على أن كلا منهما يرفض الخمر ويطلب قبلة الحبيبة ، فان الشعور الذي يضمنه بشار هذه الكلمة الواحدة : «الظمأ» هو هو الذي يطنب الشاعر الإنجليزي في وصفه ببيت كامل : « الظمأ الذي يتصاعد من الروح ». بهما نفس الداء وهما يلتمسان نفس الدواء ، ولا يريان اليه وصولا إلا عن سبيل قبلة الحبيبة . فان كان بن جرنسن يريد إلى جانب هذه القبلة أن ينظر إلى عينيها ، فان بشارا يريد أن يسمع ضحكتها وحديثها . وإن كان الشاعر الأنجليزي يصرح في بيتيه الأخيرين بأنه لو وجد سبيلا إلى الخمر الإلهية لما احتاج إلى قبلتها ، والشاعر العربي لا يقول شيئا من هذا ، فلاحظ اختلاف العصرين والثقافتين .

النهـاية

وداع الغزل ، ووداع الحياة

هذا — أيها القارىء — هو الشاعر الذي قالوا عنه إنه لا ينظم الشعر إلا تكلفا ومعابثة ، وإن ما بشعره من رقة لا يمكن إنكارها إنما هي رقة تصنعها تصنعا وكان غرضه منها لا أن يعبر عن حنين صادق في قلبه ، بل أن يسهل رواية شعره على الألسنة حتى يذيع ويعم فساده . على أن الدليل النهائي على مكانة الغزل من نفس بشار هو مبلغ حزنه حين نهاه المهدي عن إدخاله في شعره . فلو كان لا ينظم الغزل إلا للهو والتعابث أو لمآرب عملية لما حزن كل ذلك الحزن وتفجع إلى تلك الدرجة من التفجع حين منع منه ، فحسرته هذه تدل على أن الغزل كان له متنفسا صادقا عن حاجة نفسية ملحة غلابة .

والقارىء الذي درس ما مضى من قصائد غزلية صادقة العاطفة قاهرة الإحساس ورآه يفرغ فيها خالص شعوره ويعبر بها عن ظمأ جسمه وروحه يستطيع أن يقدر وقع هذا النهي على نفسه . فالمهدي إذ حرمه الغزل إنما حرمه الحياة دون أن يدري ، ولعل هذا هو الذي حدا به إلى تقبل القتل برضى واستخفاف ، فأي خير بقي له في الحياة ؛ وأي مطلب للشاعر الصادق الذي يحجز عن متنفس روحه وملاك وجدانه ؟

وسندرس الآن قصائد خمسا يضمنها جواه ولذعته ، وهي من آخر القصائد التي

نظمها في حياته . نبدأ منها بالتائية المشهورة [1] وإليك أولا مناسبة نظمها .

كان المهدي قد نهى بشارا عن الغزل ، وكان بشار قد حاول التهرب من هذا النهي بأن يصف محاسن المحبوبة ثم يقول إن الخليفة قد نهاه عن الغزل بها . كما فعل في قصيدة (الديوان ٢ / ١٠٧) وصف فيها دل الجارية وطيب رائحتها وشعرها وعينيها وحواجبها وثديها وثغرها وخدها وكفها وساقها وأسنانها ... ثم قال : نهاني الخليفة عن ذكرها ! لكن المهدي لم ينخدع بهذه الحيلة ، فأصر على نهيه ، وحرم بشارا عطاياه على مدائحه . فلما تجلى لبشار أن الخليفة جاد في نهيه ، وأن عليه أن يهجر الغزل هجرا نهائيا — وقد رأينا مكانة الغزل من قلبه ومنزلته في رسالته الشعرية — قال هذه القصيدة الرائعة الشديدة التأثير :

١ — يا منظراً حسناً رأيتُهْ   من وجه جارية ، فَدَيْتُهْ
٢ — بعثتْ إليَّ تَسومني   بُرْدَ الشبابِ ، وقد طويته
٣ — وتقول : إنّك قد جَفَوْ   ت ، وكنتَ لي شَجَناً حَويته
٤ — فأريد صَرْمَكَ تارةً   وإذا ارعوى قلبي نهيته

ارعوى هنا ارتد عن عزيمة الصَرم ، أي عاد فلانَ وأراد الرجوع الى حبك .

٥ — وأرى عليك مهابة   ويَحلُّ ذنبُك لو بَغيته

المعنى : أنني لو أردت الإساءة اليك ومعاقبتك على هجرك إياي لكان هذا حلالا لي ، لفرط جنايتك عليّ ، لكن يمنعني منه ما لا أزال أجده في قلبي من تهيب إيذائك .

٦ — ثم اعتذرتَ من الصدو   د ، فما سخطتُ ، وما ارتضيته

يبدو أنه اعتذر لها بعذر واه ولم يخبرها بالسبب الحقيقي الذي سيصرح به في

---

(١) الديوان ٢/٢٤ . وليس في الأغاني منها الا اثنا عشر بيتا. وقد فضلت رواية الأغاني في مواضع ورواية الديوان في مواضع اخرى حين تختلفان . كما قدمت شرحا للأبيات التيقد يغمض معناها ، والتي لم يشرحها شارح الديوان ، أو قدم لها شرحا ظننته مخطئا .

الأبيات القادمة . فتقول إنها لم تقتنع بعذره ذاك لكنها مع ذلك لم تغضب عليه .

٧ – يا سَلْمَ طاب لكِ الفؤا دُ ، وعزّ سُخْطُكِ فاحتميته

قبل أن يصرح لها بالسبب الحقيقي لهجره إياها يؤكد لها أن قلبه لم يفسد عليها قط بل ما زال يحبها كما كان . ويقول إن الذي حمله على تقديم ذلك العذر الواهي أنه كان يتحاشى إغضابها لو علمت أنه لن يعود الى زيارتها ابدا ، فكان يتعلل بمشاغل عارضة . لكنه سيخبرها الآن بالعقبة الحقيقية .

٨ – واللهِ ربِّ محمـــد ما إن غدرت ، ولا نويتـــه

٩ – أمسكتُ عنكِ ، وربمـا عرَضَ البلاء وما ابتغيتـــه

١٠ – إن الخليفــة قـد أبى وإذا أبى شيئــا أبيتـــه

١١ – ومخضَّبٍ رَخْص البنـا نِ بكى عليَّ ومـا بكيتـــه

«وما بكيته» ، لا لغلظة في قلبي ، لكن محاولة مني من أن أقاوم اشتياقي إليه ، حتى لا أعصى أمر الخليفة . يؤكد امتثاله لرغبة الخليفة .

١٢ – ودعاني الرَّشَــأ الغَرير إلى اللّعــاب فمــا أتيتــه

١٣ – ولقد أخذت من الصَّفــا ما في الضمير ، وقــد لَوَيتــه

لوى المدين دائنه مطله ولم يؤد إليه دينه . والمعنى : ضميري لا يزال يصفي الحب لحبيبي وإن كنت أماطل في زيارته ، فأنا أكتفي بما في أعماق قلبي من محبة له ولا أسعى الى تحقيقها .

١٤ – ويشــوقُني بيتُ الحبيب إذا ادّكرت ، وأين بيتــه

١٥ – قــام الخليفــة دونه فصبرت عنـــه ، ومــا قَليته

١٦ – ونهانيَ الملكُ الهمــا م عن النسيب ، ومـا عصيتــه

١٧ – لا ، بل وفيت ، ولم أُضع عهدا ، ولا وَأْياً وأيتـــه

الوأي الوعد . هذا بيت مهم ، لأنه يعني به أن طاعته لأمر المهدي ليست

خوفا منه ، بل رعاية لما كان بينهما من صداقة ، ووفاء بوعده الذي وعده ، وإن يكن الخليفة قد خرج الآن على عهد المودة القديم ، فبشار لا يزال مخلصا له .

١٨ ــ وأنا المُطلُ على العدا وإذا غلا علْقٌ شَريتــــــه

الشطر الأول يؤكد المعنى الذي رأيناه في البيت الماضي : أن بشارا لا يطيع الخليفة عن خوف ، فهو ليس من الجبناء ، بــل هو يجبه أعداءه ، ولا يفر منهم . العلق النفيس ، وشريته هنا بمعنى بعته . والمعنى في رأينا : إذا ضن عليّ صديق بصداقته واعتقد أنها أنفس مما أستحق زهدت فيها وأبت عليّ عزة نفسي أن أتشبث بها . وسيزداد هذا المعنى وضوحا في البيت التالي .

١٩ ــ أُصْفي الخليلَ إذا دنا وإذا نــأى عني نــــأيتـــه

أصفيه مودتي إذا تقرب إليّ ولم يتكبر عليّ . نأيته : نأيت عنه ، والعرب تحذف حرف الجر في شواهد كثيرة . وواضح أنه يعني بالخليل المهدي .

٢٠ ــ وأميل في أُنْس الند يم من الحياء ، وما اشتهيه

ليس ما ذكرت في البيت الماضي ناشئاً عن استخفاف مني بالصداقة وعدم اكتراث بها ، بل أنا على العكس : ما دام النديم مقارباً مني راغباً في مؤانستي فأنا أبذل جهدي في مؤانسته ، وأتصنع الطرب لطربه ، وإن كنت في حقيقتي لا أشتهي مجالسته . وذلك حياء مني أن أجاهره بصدوفي عن مجلسه .

٢١ ــ حال الصّفاءُ على الصفاءِ ولم يكن عُوداً بَرَيْتـــه

حال تحول وتغير . والمعنى كما نفهمه : فسدت الصداقات القديمة واحدة بعد واحدة ، ولم أكن المذنب في هذا ، لم أكن الذي يرى عود الصداقة استهانة بها .

٢٢ ــ فالأمرُ غير مُقصّــــر لو خفتُ صاحبي اتّقيتــه

الأمر هنا : أمري . اي لم يحدث ما حدث من انقلاب الصداقة بسبب تقصير مني ، بل صديقي القديم هو الذي خانني ، وما كنت أحسب أنه يفعل ذلك ، ولو عرض لي إمكان هذه الخيانة لما اتخذته صاحباً .

لست أدري كيف يستطيع قارىء ان يقرأ هذه القصيدة دون أن يحس بحزنها الصادق الذي يلتهب به كل بيت . وبحر الكامل الذي جاءت عليه ينسجم بكثرة حركاته (وقد سمى كاملا لأنه اكثر البحور عدد حركات) مع عواطفها الزاخرة المائجة المضطربة . ومجيئها على الوزن المجزوء منه (اي الذي يكتفي بأربع تفاعيل في البيت بدلا من ستة) يجعل من أبياتها القصيرة طعنات سريعة متتالية كطعنات المدية . والقافية المرفلة (أي التي أضيف إلى تفعيلتها سبب خفيف ، فصارت متفاعلاتن بدلا من متفاعلن) تختم كل بيت بطعنة زائدة شديدة الوخز . وبخاصة إذ تنتهي بالهاء الساكنة فتنفس عن زفرة ملتاعة شديدة اللفح للقلوب . والياء الساكنة التي تسبق الترفيل تصدر ما يشبه صرخة أليمة من صدر مجروح .

يعتذر بشار إلى صديقته عن إمساكه عن زيارتها ، ويؤكد لها أنه اضطر اليه اضطراراً . ويبدو أنه حتى الآن لم يكن يصرح لها بالسبب الحقيقي لعدم زيارته لها ،فكان يعتذر بمختلف الأعذار وهو يدري أنها غير مقنعة وأنها لن تخدعها، لكنه كان يحاول أن يؤجل إلى أبعد أمد ممكن مصارحتها بالحقيقة الأليمة : أنه لن يعود إلى صداقتها أبداً .ولعله كان أيضاً يكره البوح بما أصابه من جرح عميق اذ تنكر له صديقه القديم . أما الآن فقد طفح به كيل الحزن ، ومن هنا انفجاره بهذه النفثات الحارة . فهو يصدع أخيراً بالسبب الذي يمنعه من زيارتها ، ويقسم لها على ما نسلم له به دون حاجة إلى قسم منه : يقسم لها على وفائه للأصدقاء وتنزهه عن الغدر بل عن مجرد التفكير فيه. ويشرح لها ــ ولنا ــ لم أطاع الخليفة . لم يطعه جبناً ، فمهما تكثر عيوب بشار فليس الجبن احدها ، والذي أفسد عليه حياتــه لم يكن الجبن بل الجرأة الزائدة يتحدى بها شعور الناس وتقاليدهم وعقائدهم طول حياته ، حتى جعل معظمهم أعداء له .

لم يطعه خوفاً إذن ، فهو الطويل التحدي للأعداء : « وأنا المطل على العدا » . فلم أطاعه ؟

لا ، بل وفيت ، فلم أضـــع عهداً ولا وأيـــا وأيتـــــه

إنما أطاعه رعاية لحق الصداقة القديمة وإن يكن المهدي قد نسيها أو تناساها ، ووفاء لذكراها وإن يكن المهدي قد خانها . وهذا ادعاء من بشار لا شك عندي في صدقه ، وقد رأينا من قبـل مبلغ حرصه على الصداقة وإعزازه للأصدقاء . فإن صح ادعاؤه وتصديقنا فهذا يزيد غدر المهدي قبحاً . وقد تكرر الفصل مرة أخرى في تاريخ الأدب العربي حين غدر الأمين بصديقه القديم أبي نواس ، فحرم عليه شرب الخمر خوفاً من لوم الناس ، بعد أن كان من أقرب جلسائه في شربه ولهوه ومباذله . فقبل أبو نواس هذا التحريم لعين الدافع الذي وجدناه في بشار : وفاء للعهد القديم .[1]

على أن بشارا يحزنه ويؤلمه هجر المهدي إياه وإبعاده عن مجلسه وحرمانه صداقته بعدما طال ما استمتع بها . وهذا يحمله على أن يقول في أنفة واستهانة تدلان في صميمهما على حسرة عظيمة :

... ... وإذا غلا علق شريتـه
أصفى الخليـل إذا دنـا واذا نأى عني نأيتـه

يجب ألا تخدعنا كبرياؤه هذه عما يضطرم به من الألم والالتياع ، فما كان بشار بالذي يسهل عليه فقدان الأصدقاء ، ولقد كان يتحمل ما رأينا من قبل في سبيل الحفاظ عليهم ، وهو في هذه القصيدة نفسها يقول :

وأميل في أنس النديـ ـم من الحياء وما اشتهيته

---

(١) انظر كتابنا « نفسية أبي نواس » ، ص ١٦٣ – ١٦٦ ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٧٠. نقول : وقد تكرر نفس الحادث في تاريخ الأدب الانجليزي كما صوره شكسبير . فهنري الخامس حين كان لا يزال وليا للعهد وقبل أن يصير ملكا ، كان مسرفا في اللهو والعبث ، وكان من أقرب ندمائه وأحبهم إلى قلبه سير جون فالستاف ، الماجن الكبير في الأدب الانجليزي. فلما صار إليه الملك أبعده عنه ونفاه من بلاطه ، فكان لهذا وقع شديد الألم على فالستاف ، لكنه قبله عن طيبة خاطر ، وتقديرا لظروف الملك الجديدة. على أن هنري الخامس كان له من المعاذير ما لم يكن للمهدي أو للأمين ، خصوصا لأنه حين أبعد فالستاف عن بلاطه لم يحرمه عطاياه ولم يودعه السجن ، ولم ينهه عن حياة اللهو والمجون ، بل أجزل له العطاء وتركه حرا في حياته الشخصية .

فإن كان برغم هذا كله قد عقد الآن عزمه على أن يطيع المهدي حفظاً لواجب الصداقة القديمة فإن هذا يضاعف من روعته .

والغريب العجيب أن نقادنا ينصرفون عن ملاحظة هذا الوفاء حين يقفون ــ وقفات عابرة ــ أمام هذه القصيدة الجياشة ، فيحسبونها من نوع تلك القصائد التي كان بشار يحتال بها للعودة إلى الغزل ، متجاهلين بذلك حرارتها وصدق لوعتها ، وإذ يتجاهلون هذا يضيع عليهم المفتاح إلى فهم تجربتها وحرقتها الخاصة ، الناشئة من أن بشارا قد أدرك الآن أن المهدي جاد كل الجد في تحريم الغزل عليه ، وأنه لا عودة له إلى الغزل أبداً ، فلا تفوز من احدهم [1] إلا بما يلي :

« ونهاه الخليفة المهدي عن الغزل والتشبيب وحبسه قليلا فأمسك وهو كاره وخائف ولكنه كان لا يزال يحتال في القول . تأمل هذه الأبيات (ثم يروى ستة أبيات فقط) وإذا لم يكن هذا من الغزل الذي نهى عنه ، فلا ندري ماذا يكون الغزل ؟ »

قد نسامح واضعي كتبنا المدرسية اذا تناقلوا تلك الدعوى القديمة دون فهم أو تجديد نظر . لكن كيف نسامح ناقدنا الكبير ؟ هل تأمل المازني تلك الأبيات حقاً ؟ فإن كان تأملها فكيف غاب عن حسه النقدي ما فيها من صدق الجوى وإخلاص التحسر على الصداقة الضائعة ؟ أما سؤاله الذي سأله فالجواب الواضح عليه : يكون الغزل قصيدة مماثلة للقصائد الغزلية الماضية . وهل وصف بشار في قصيدته هذه محاسن محبوبته ومايفتنه منها بأكثر من قوله انه رأى من وجهها منظراً حسناً ؟ بل هي كلها تدور على وقع التحريم على نفسه اذ صدر عن خليله القديم . ليس في القصيدة غزل بالمعنى الذي نعهده في بشار او احتيال للعودة إليه . فكل ما فيها ذكريات مؤلمة وتحسر شديد على الحرمان الذي فرض عليه فكان شديد الوقع على نفسه . والقدماء يروون قصة تؤكد صدق عزم بشار حين يقول :

(١) المازني ص ٩٥ .

ونهاني الملك الهمـــــا م عن النسيب وما عصيتـــه

وهي قصة وجدت نقادنا يهملون الإشارة إليها ، في زعمهم أن بشارا لم يطع المهدي أبداً ، وأنه ظل يتحايل للعودة إلى الغزل . فيروي صاحب الأغاني [1] أنه لما نهاه عن الغزل :

« حضر مجلساً لصديق له يقال له عمرو بن سمان ، فقال له : أنشدنا يا أبا معاذ شيئاً من غزلك . فأنشأ يقول :

وقائل هات أسمعنا فقلت لـــــه   أنائم أنت يا عمرو بن سمان
أما سمعت بما قد شاع في مضر   وفي الحليفين من بكر وقحطان
قال الخليفة لا تنسب بجاريـــــة   إياك إياك أن تشقى بعصيان »

فالواضح من هذا ، ومن قصيدة أخرى في الديوان (١٥٧/١) ، أن بشارا بعد أن حاول الرجوع إلى الغزل ، ورأى إصرار المهدي على نهيه ، صدق عزمه بعد هذا ، فقدم إلى المهدي وعده المخلص ، ولم يعد إليه ، لذلك يقول :

لا تخش غدري ولا مخالفتي   كل امرىء راجع إلى نسبه

* * *

والقصيدة الثانية التي نظمها في هذه الفترة هي القافية الجيدة التي رويناها من قبل :

خليلي إن العسر سوف يفيـــــق   وإن يساراً في غـــد لخليق

وهي أيضاً شديدة الحزن واضحة الصدق ، ومعظمها شكوى من قطع المهدي

---

(١) طبعة دار الكتب ٢٢١/٣

عطاياه ورفضه أن يثيبه على مدائحه،ولكن حزنها لا يزال مختلطاً ببعض الأمل لم ينته إلى اليأس التام ، وفيها نرى ظاهرة جديدة في حياة بشار وفي شعره ، وهي إقباله على شرب الخمر بإسراف ، يحاول أن يغرق فيها أحزانه :

ذراني أشب همى براح فإنني أرى الدهر فيه فرجة ومضيق
وما كنت الا كالزمان اذا صحا صحوت وان ماق الزمان أموق

فالآن اذ حمق زمانه يريد أن يحمق هو أيضاً بالأسراف في السكر ، وهي ظاهرة سنزيدها تأملا في القصيدة القادمة .

* * *

أما هذه القصيدة فخالية من الأمل وخداع النفس بالأماني ، فيها يتم استيلاء اليأس على نفس بشار ، وهي قصيدة عظيمة الأسى وصدق عاطفتها أظهر من أن يحتاج إلى تدليل . ولكن اليأس قد انتهى بحزنها إلى الهدوء والتسليم :

يا بن موسى ماذا يقول الامام في فتاة بالقلب منها أُوام (١)
بت من حبها أوقّر بالكأ س ويهفو على فؤادي الهيام (٢)
لم يكن بينها وبيني إلا كتب العاشقين والأحلام
يا بن موسى اسقني ودع عنك سلمى إن سلمى حمى وفي احتشام
رب كأس كالسلسبيل تعللـ ـت بها والعيون عني نيام
حبست للشراة في بيت رأس عتقت عانساً عليها الختام (٣)
نفحت نفحة فهزت نديمي بنسيم وانشق عنها الزكام

(١) الأوام : حر العطش .
(٢) أوقر . أسكن . ويلي هذا البيت بيت لا تستطيع روايته .
(٣) بيت رأس : اسم القرية التي صنعت فيها الخمر .

وكأن المعلول منها إذا را ... ح شج في لسانه برسام [1]
صدمته الشمول حتى بعينيه ... انكسار وفي المفاصل خام [2]
وهو باقي الأطراف حيت به الكأ ... س وماتت أوصاله والكلام
وفتى يشرب المدامة بالما ... ل ويمشي يروم مالا يرام
أنفدت كأسه الدنانير حتى ... ذهب العين واستمر السوام [3]
تركته الصهباء يرنو بعين ... نام إنسانها وليست تنام
جن من شربة تعل بأخرى ... وبكى حين سار فيه المدام
كان لي صاحباً فأودى به الدهـ ... ـر وفارقته ، عليه السلام
بقي الناس بعد هلك ندامـا ... ى وقوعاً لم يشعروا ما الكلام [4]
كجزور الأيسار لا كبد فيـ ... ـها لباغ ولا عليها سنام
يا بن موسى فقد الحبيب على العين ... ـ قذاة وفي الفؤاد سقام
كيف يصفو لي النعيم وحيداً ... والاخلاء في المقابر هام
نفستهم على أم المنايا ... فأنامتهم بعنف ، فناموا [5]
لا يغيض انسجام عيني عليهم ... إنما غاية الحزين السجام

تأمل في الأسى العميق المذعن الذي يتخللها ، وقد اختار لها بحر الخفيف ، ولعله أكثر البحور العربية ملاءمة لهذا الحزن اليائس الجليل ، وهو البحر الذي اختاره ابو العلاء لداليته العظيمة «غير مجد في ملّتي واعتقادي ».ولقد يشتد به الحزن

---

(١) برسام : علة تسبب الهذيان .
(٢) خام : انخذال وضعف .
(٣) العين : الذهب . استمر : مضى كر . السوام : الإبل الراعية . أي أنفق فيها نقده ثم ما يملك من الحيوان الراعي .
(٤) وقوعاً : سقطاً مهملا لا قيمة له ولا غناء فيه . ما الكلام : لا ذكاء لهم ولا لهم حسن منطق وبيان ومسامرة .
(٥) نفستهم : حسدتهم .

فيصيح : « فأنامتهم بعنف » ، فنظن أنه عائد إلى ثورته القديمة ، ولكنه سرعان ما يعود إلى التسليم والاذعان : « فناموا » . ويقلع عن عناده القديم فيكتفي بالبكاء ويجد فيه أقصى ما يستطيع أن يفعل : « إنما غاية الحزين السجام » .

ثم تأمل الآن هذه الظاهرة الجديدة في حياته وفي شعره : يصف الخمر ويطيل في وصف مجلسها وفعلها بالشاربين . والسبب واضح وقد ذكره هو، فهو يلتمس فيها عزاء وسلوى عن مصائبه التي تكاثرت ، ويستعيض بوصفها عن الغزل الذي حجز عنه . كان بشار من قبل يشرب الخمر ويستلذها ، ولكن لم تكن تنزل من نفسه منزلة ممتازة ، ولم تكن إلا لذة واحدة من ضمن لذات متساوية ، أما الآن فهو يسرف في شربها يبغي النسيان ، كما نرى كثيرين من المفجوعين يفعلون . وهو في وصفه لها يأتي بهذا البيت الجميل نكاد نحس فيه بنشرها يهب على وجهنا :

نفحت نفحـــة فهزت نديمي　　　بنسيم وانشق عنهـــــا الزكام

استمع إلى اجتماع الحروف والتنغيم في قوله : « نفحت نفحة » وقوله « نديمي بنسيم » .

وقول بشار : « إن سلمى حمى وفي احتشام » يرينا مرة أخرى أنه لم يترك الغزل خوفاً من المهدي بل رعاية للصداقة القديمة وتقديراً لحرج موقفه . على أن الذي يضاعف من نكده في هذه القصيدة أن القدر اختار هذه الفترة الاليمة من حياته لينتزع منه نفراً من أعز اصدقائه إليه ، يروون أن خمسة منهم ماتوا واحداً بعد واحد،وهو في حالة نفسية هو أحوج فيها إلى الأصدقاء منه في أية فترة مضت. ووصفه لحرقته على فقدهم عظيم الجمال شديد التأثير في نفوسنا . ويبدو أن اجتماع هذه المصائب عليه في وقت واحد هو الذي اضطره أخيراً إلى الاذعان ، وهذا ما نراه في القصيدة التالية .

* * *

وهذه القصيدة هي أيضاً عظيمة الحزن تامة اليأس : [1]

وأخ فجعت به وكان مؤمــــلا   فمضى فتذكرك الحوادث ما مضى
ولقد جريت مع الصِّبا طلق الصِّبا   ثم ارعويت فلم أجد لي مركضا
وعلمت ما علم امرؤ من دهــره   فأطعت عاذلتي وأعطيت الرضى
فاشرب على تلف الأحبة إننــا   جزر المنيــة ظاعنين وخفضا
ما كل بارقــة تجود بمائهــا   وكذاك لو صدق الربيع لروضا
ومنيفة شرفا جعلت لها الهــوى   إما مكافأة وإمــا مقرضــا
حتى إذا شربت بمــاء مودتــي   وشربت برد رضابهــا متبرضا
قالت لتربيها اذهبــا فتحسسا   ما باله ترك السلام وأعرضــا
ويلي عليه وويلتي من بينــه   كان المحب وكنت حبا فانقضى
قد ذقت ألفته وذقت فراقــه   فوجدت ذا عسلا وذا جمر الغضا

وروى الضاد يكسبها مضاضة شديدة ويجعل لحزنها مذاقاً مريراً ، وترى فيها اجتماع النكبات عليه ، من تحريم الغزل ، ووفاة الأصدقاء ، وحرمان العطاء من المهدي يشير إليه في البيت الخامس ، فلا غرو أن يقبل على الشرب بإسراف ، ولا غرو أن يقوده اليأس إلى الاذعان . فهذا بشار الذي طال صخبه وضجيجه ، وامتد تحديه وعناده ، ينتهي إلى الرضوخ ، فيطيع العاذل ويعطى الرضى ، فقد أدرك بعد سبعين سنة ما كان خليقاً بأن يدركه من قبل : أن فرداً واحداً لا يستطيع تحدي المجتمع إلى الأبد :

وعلمت ما علم امرؤ من دهــره   فأطعت عاذلتي وأعطيت الرضى

أما أبياتها الخمسة الأخيرة فلا يظنها تحايلا على العودة إلى الغزل إلا من لا يعرف غزل بشار أي شيء كان ، فهذه ذكريات مؤلمة تعاوده على الرغم منه

(١) الخالدين ص ٢٥ و ٢٦ . وانظر أبياتاً أخرى من نفس القصيدة في الديوان ٤/٩٠-٩٤ .

فلا يجد لذة ولا إسعاداً ، بل تزيد من تعسه وتوجعه ، فأين هي من غزله القديم المطرب المرقص الذي رأيناه ...

* * *

ولكن ما كان بشار لينتهي إلى الاذعان والتسليم إلا بعد صراع عنيف مع نفسه ، تهم بالتمرد فيقمعها ، وتثور جامحة فيكبحها ، وهذا الصراع العنيف نجده مصوراً أدق تصوير في القصيدة الفذة الآتية :

والله لولا رضى الخليفـــة مـــا	أعطيت ضيما على في شجـــن
وربما خير لابن آدم في الـــ	كره وشق الهوى عـــلى البدن
فاشرب على أُبنة الزمان فمـــا	تلقى زمانا صفا من الأبن [1]
الله يعطيك من فواضلـــــه	والمرء يغضي عينا على الكُمن [2]
قد عشت بين الريحان والراح والـــ	مزهر في ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين يعـ	بور إلى القيروان فاليمن [3]
شعرا تصلى لـــه العواتـــق والـ	ثيب صلاة الغـــواة للوثن [4]
ثم نهاني المهـــدي فانصرفت	نفسي ، صنيع الموفق اللقن
فالحمد لله لا شريك لـــــه	ليس بباق شيء عـــلى الزمن

تأمل أولاً في البحر الذي اختاره لها . هو المنسرح . أي نفس البحر الذي نظم فيه رائيته « قد لامني في خليلتي عمر » ! وهذا من أقسى سخرية الأقدار .

فنفس الوزن الذي وجد بشار ضرباته المتقطعة ومقاطعه المضطربة ملائمة لما أراد التعبير عنه من خلاعة وتمايل متخنث ، يجده الآن بنفس الضربات والمقاطع ،

(١) الأبنة : الشر والعيب .

(٢) الكمنة : ظلمة بالبصر ، أو جرب وحمرة فيه .

(٣) يعبور : بلد في تخوم الصين . وتقرأ أيضاً يغبور وفغفور .

(٤) العانق : الجارية أول ما أدركت والتي لم تتزوج . والثيب : المرأة التي دخل بها زوجها أو ضد البكر .

ملائماً لاضطرابه الهائج، وتزلزل صدره بين ثورة وكظم، وتهدج صوته بين الغضب الذي يجيش به والصبر والهدوء الذي يرغم عليه نفسه .

لعل بحر المنسرح اشد البحور العربية اضطراباً ، وسبب ذلك توالى مقاطعه القصيرة والطويلة بكيفية لا يكاد يكون فيها نظام . فالعروضيون يقررون أن أصل البحر « مستفعلن مفعولات مستفعلن » في كل شطر ، ولكنه لا يأتي على هذه الصورة التامة أبدا، فعروضه دائماً مطوية (أي تتحول مستفعلن فيها إلى مفتعلن)، وضربه دائماً مطوى أو مقطوع (أي تتحول مستفعلن فيه إلى مفتعلن أو مفعولن) . أضف إلى ذلك أن « مفعولات » يكثر فيها الطي ، أي تتحول إلى مفعلات ، والخلاصة أننا إذا عبرنا عن المقطع القصير بعلامة « ب » والمقطع الطويل بعلامة (—) يكون هذا هو القالب الذي يكثر ورود الوزن فيه :

— — ب —   — ب — ب   — ب ب —

والذي يتأمل في توزيع هذه المقاطع لا يرى نظاماً او تناسقاً في تتابعها ، فليست منها مجموعة تتكرر فتكسب النغم ائتلافاً ، بل ينتقل اللسان من أحدها إلى الآخر بما يكاد أن يكون حركات متنافرة لا مجاوبة فيها ولا ترديد ، ولعل هذا هو السبب الذي يجعل الوزن شديد الصعوبة علينا في عصرنا الحديث ، فلست أتذكر قصيدة واحدة حديثة نظمت فيه ، وهو على أي حال يصعب علينا تقطيع أبياته تقطيعاً صحيحاً ويكثر فيه الخطأ . والقارىء الذي يقدر على النظم يستطيع أن يحقق هذا بنفسه بأن يحاول أن ينظم فيه بضعة أبيات ، فإنه قد يستطيع نظم البيتين أو الثلاثة ولكن إن زاد على هذا وجد صعوبة متزايدة واختلاطاً كبيراً .

وقد رأينا كيف لاءمت هذه المقاطع المضطربة ما كان يصوره في الرائية من تئن خليع ومن سرور يكتمه ويتظاهر بدلا منه بالحزن . فاقرأ الآن هذه القصيدة الجديدة بعناية وتأن وانظر كيف تصير كل ضربة من ضربات هذا الوزن صرخة مجروحة وطعنة واخزة ، والسبب أنه مهتاج شديد الهياج ولكنه يكبح انفعاله بعنف

فيخرج منه كل مقطع كأنه زفرة مختزنة تنفجر على الرغم منه في حرارة كاوية أو كأنه صرخة طال حبسه لها فهي تنطلق بحدة تطعن الصدر كالمدية .

في البيت الأول :

والله لولا رضى الخليفــة مـــا أعطيت ضيما على في شجن

يكرر بشار أنه لم يطع المهدي جبناً أو خنوعاً للضيم وإنما رغبة في إرضاء صديقه القديم . وهو بيت شديد الضغن عظيم المرارة . انظر كيف تتراوح عاطفته فيه بين نزوع إلى التمرد على الضيم ، فليس ممن اعتادوا على قبوله وليس ممن يرضون بالإيذاء دون احتجاج ، وبين جهده في قمع ثورته وقبول الضيم والشجن إرضاء للخليفة .

وفي البيت الثاني :

وربمــا خــير لابن آدم في الـ كره وشق الهوى على البـــدن

هذا هو العزاء الوحيد الذي يستطيعه ، يريد أن يتعزى بمعنى الآية الكريمة « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم» . ومن منا لم يلجأ في حياته أكثر من مرة إلى هذه الآية الرائعة الجميلة يجد فيها عزاءه الوحيد حين تشتد به مصائبه فيعجز عن تغييرها ويعجز عجزاً تاماً عن فهم الحكمة فيها فلا يرى لجروحه بلسما إلا التسليم التام بقضاء الله وإن ثقل عليه والقبول التام لعدله وإن خفي عليه وجه العدل فيما ألم به .

ثم ينتهي بشار إلى اليأس المطلق في البيتين التاليين :

فاشرب على أبنة الزمان فمــا تلقى زمانا صفا من الأبـــن
الله يعطيك من فواضلــــه والمرء يغضي عينا على الكمن

يئس الآن يأساً نهائياً من الناس جميعاً ، لم يبق له فيهم أمل ، فلم تعد أمامه إلا وسيلتان يستعمل بعضنا إحداها حين ييأسون ويستعمل آخرون الأخرى ،

ولكن بشارا في فداحة رزئه يستعملهما معاً، يقبل على الخمر يحاول أن ينسى فيها شجنه ، ويقبل إلى الله يلتمس فضله وكرمه ورحمته ، يرجو إن كان العرف قد ذهب من الناس فلن يذهب من الله .

ثم فكر في بشار يقضي سبعين سنة قبل أن يدرك هذه الحتميقة البسيطة : أن المرء لا يستطيع أن يظفر بمراده في كل حال، وأن ما من زمان يخلو من الشر والاقذاء ، وأن كلا منا مضطر في أحوال كثيرة إلى أن يقبل ما يكره ويذعن لما لا يستطيع تغييره . بشار الذي ظل طول حياته شديد الشغب عظيم الأنفة يضطر الآن إلى قبول نصيبه والاذعان لمقدوره . يدرك بعد طول العناد والتمرد أن فرداً واحداً بالغاً ما بلغت قوة احتجاجه وشدة صخبه لن يستطيع مقاومة المجتمع وتحدى الناس إلى الأبد ، فيرضخ ويذعن . وهذا سر ايلام هذين البيتين ، فسواء أأحببنا بشارا أم كرهناه ، وسواء أظننا أنه لقى جزاءه العادل أم ظننا أنه لقى قسوة زائدة ، فإن من آلم التجارب علينا أن نرى عزيزاً يذل ورجلا ذا إباء وشمم يضع أنفه في الرغام .

ثم تأمل هذا الأسلوب المجازي الذي اختاره بشار : « والمرء يغضي عينا على الكمن » ، ترى أله معنى أعمق مما أراد بشار ، معنى لم يدرك هو مغزاه الحقيقي ؟ أصار بشار أخيراً إلى قبول عاهته الطبيعية العظمى فيما يقبل الآن من نكبات ؟

ولكن هذا اليأس والاذعان لا يدومان طويلاً حتى يعود بشار إلى التحسر ، فيضاعف من عذاب نفسه بتذكر ما استمتع به حتى الآن من حياة لاهية طليقة لم يثنه عنها عذل العاذلين ، وما تغنى به من غزل حر نفس به عن خلجات صدره ولم يكبحه عنه شكوى خصومه من استهتاره وإفساده للنساء ثيباً وأبكارا :

قد عشت بين الريحان والراح والـ　　ـمزهر في ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين يعـ　　ـبور إلى القيروان فاليمن
شعرا تصلى له العواتق والـ　　ـثيب صلاة الغـواة للوثن

وهذه أبيات عظيمة الاضطراب والتزلزل ، وادعاء بشار فيها عن ذيوع

شعره لا شك في صدقه ، ومهما يكن رأينا الخلقي في بعض غزله فالذي لا مراء فيه أنه صور جانباً هاماً من المجتمع في عصره تصويراً صادقاً وفياً ، فكان هذا من أسباب رواجه ، وهناك من النقاد من لا يطالبون الأديب بأكثر من هذا ، ولكن انظر الآن كيف يعود بشار بعد هذه الصرخات المدويات إلى إرغام نفسه على الهدوء والتسليم في البيتين الأخيرين ، وكيف يرتفع فيهما على كل أحزانه ومصائبه فيصل ذروة السخرية الرفيعة التي يندر وجودها في الشعر العربي ، فيزعم أنه الآن قد ثاب عن غيه وأفاق من غفوته واتضح له نهج الهدى ونجا من هوة الضلال :

ثم نهاني المهدي ، فانصرفـــت   نفسي ، صنيع الموفق اللقن
فالحمد لله لا شريك لـــه !   ليس بشيء باق على الزمن

فإن ظننا أن قوله « فالحمد لله » معناه : الحمد لله على هذه الهداية ، فسرعان ما يأتي الشطر الثاني ليعطينا المعنى الحقيقي : الحمد لله على هذا المكروه ، لا يحمد على مكروه سواه . وهما بيتان يذكراننا بسخرية أبي نواس في موقف عظيم المماثلة (١) .

خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم .

---

(١) هذه أبيات أبي نواس :

أنت يا بن الربيع ألزمتني النسـك   وعودتنيـه ، والخيـر عاده
فارعوى باطـلي وأقصر حبـلي   وتبدلـت عفـة وزهاده
لو تراني ذكرت للحسـن البصـ   ـري في حسن سمتـه وقتـاده
المسابيح في ذراعـي والمصـ   ـحف في لبتي مكـان القلاده
وإذا شئت أن ترى طرفـة تعـ   ـجب منهـا مليحـة مستفاده
فادع بي ، لا عدمت تقويم مثـلي   وتفطن لموضـع السجـاده
تر أثراً من الصـلاة بوجهـي   توقن النفس أنها مـن عباده
لو رآهـا بعض المرائين يومـاً   لاشتراهـا يعدهـا للشهاده
ولقد طال ما شقيت ولكـن   أدركتني عـلى يديك السعاده

مجمل القــول في عبقريته الشعرية

ذلك هو بشار الرجل ، وبشار الشاعر . أما الرجل فقد انقضى وانقضت معه أرزاؤه واحزانه وخصوماته، ورجعت نفسه إلى بارئها يحل عليها عقابه أو تسعها رحمته ، وأما الشاعر فهو الذي يهمنا ، لأنه هو الباقي لنا منه ، وسيظل باقياً ما بقي على الأرض مهتمون بالتراث العربي . ونحن لم نعن بالرجل إلا لحاجتنا إلى فهمه كي نجيد فهم شعره ، ونحسن تقديره . فما خلاصة رأينا فيه كشاعر ؟

شعر بشار نوعان مختلفان: نوع فخم ضخم، ونوع سهل رقيق. وقد رأى القارىء أننا في معظم دراستنا هذه قد آثرنا النوع الثاني ، لأنه في اعتقادنا هو الاكتتاب الحقيقي الجديد الذي قدمه بشار إلى تراثنا الشعري ، فأضاف إلى غناه ، وساعد على تطويره .

لكننا لا نريد أن نغمط النوع الأول حقه الصحيح من التقدير ، فالحق أن ذلك القسم من ديوانه المفقود الذي استكشفه السيد محمد الطاهر ابن عاشور ، ونشره بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٦٦ ، يحتوي على عدد من القصائد التي يثبت بها بشار مدى امتلاكه لعنان اللغة العربية ، وسعة علمه بألفاظها وتراكيبها ، وقدرته على صياغة الأسلوب البدوي المتين . هذه القصائد تشرح لنا لماذا انتهى العلماء القدامى ــ بعد طول اضطهادهم له ، وغضهم من قدره الشعري ، ورفض بعضهم

لمجرد شاعريته — إلى الإجماع او ما يشبه الإجماع على تفرقه على سائر شعراء عصره ، والإعجاب القوي بفصاحته ، وإصدار الاحكام التي أصدروها على درايته بالعربية وعمق بصيرته في أساليبها وسعة اطلاعه على اشعارها واخبارها وحذق تصريفه لكلماتها وجملها ، حتى عدوه آخر المتقدمين من الإسلاميين الذين لا يطعن في لغتهم والذين يقبل منهم ما يأتون به من تصريفات وإجازات ، وظلوا حائرين متعجبين كيف يتاح هذا لمولى لم يكن خالص العروبة !

نقرأ الآن هذه القصائد فتروعنا بلا شك بجزالتها ومتانة سبكها ، وحكايتها الماهرة الذكية لدقائق الأساليب البدوية . فالديوان يتضمن مثلاً (٣٠٥/١) النص الكامل لبائيته التي يمدح فيها قيس عيلان مدحاً كبير الفخامة ، ومطلعها :

جفا وده فازورّ أو ملّ صاحبه

يبدأها بشيء من النسب ، ويتحدث عن الصديق المخلص الوفي ، ثم يصف الصحراء المقفرة ، وإجهاد السفر فيها ، وبعيره القوي الذي يتحمل ذلك السفر دون أن يلتوي نساه او تعتل عروقه ، ويشبهه في سرعته بالحمار الوحشي ، فيسرد علينا القصة المعروفة [1] لهذا الحيوان الوحشي مع أتنه ، والصائد الذي يكمن له ، ويصرعه بسهامه . كل هذا تفصيل يرينا مدى خبرته بما قاله الشعراء من قبله في هذه القصة المحببة اليهم ، ومقدرته على محاكاة غناهم اللفظي ومتانتهم التركيبية .

بعد هذا يخلص إلى مديحه العظيم لقيس عيلان ، الذي اشتهرت منه هذه الأبيات في وصف الجيش :

لألقى بني عيلان ، إن فَعالهم — تزيد على كل الفعال مراتبُه
أُولاكَ الأُلى شَقّوا العمى بسيوفهم — عن العين ، حتى أبصر الحقَّ طالبه
اذا الملك الجبار صعّر خده — مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

(١) انظر دراستنا لأهم عناصر هذه القصة في الفصلين الحادي عشر والخامس عشر من كتاب « الشعر الجاهلي : منهج في دراسته وتقويمه » .

وجيش كجُنح الليل يزحف بالحصى وبالشَوْل والخطّيّ، حُمرٌ ثعالبه

غدونا له والشمس في خدر أُمِّها تطالعنا ، والطـــلُّ لم يجر ذائبه

بضرب يذوق الموتَ من ذاق طعمه وتُدرك من نجّى الفرارُ مَثالبه

كأنّ مُثارَ النقْع فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبه

بعثنا لهم موتَ الفُجاءةِ ، إننا بنو المُلْك، خفّاقٌ علينا سبائبه

فراحوا : فريق في الإسار ، ومثله قتيل ، ومثل لاذ بالبحر هاربه

وأرْعنَ يغشى الشمس لون حديده وتخْلِس أبصارَ الكُماة كتائبه

تَغَصّ به الأرضُ الفضاء إذا غدا تُزاحم أركانَ الجبال مناكبه

كأنّ جَناباويه من خَمِس الوغى شَمام وسَلْمى أو أجيٌ وكواكبه

تركنا به كلباً وقحطان تبتغــي مُجيراً من القتل المُطلّ مقانبه

وهو وصف لا نجد ما يفوقه فخامة في شعر الجاهليين أو شعر المتنبي أو شعر ما بينهما من شعراء .

ونجد النص الكامل (١٠٧/١) لمدحه الجليل لعقبة بن سلم ، الذي لم نكن نعرف منه سوى أبيات قليلة متفرقةٍ . فإن شئت أمثلة أخرى لشعره المتين الرصين فتأمل قصائده الآتية :

تأبدت برقة الروحاء فاللبب (١ / ٢٢٩)

نأتك على طول التجاور زينب (١ / ٢٩١)

أصفراء ما في العيش بعدك مرغب (١ / ٣٤٠)

أقوى وعطل من فرّاطة الثمد (٢ / ٢٧٧)

أمن وقوف على شام بأحماد (٢ / ٢٩٧)

ألم يأن أن تسلي مودة مهددا (٣ / ٢٩)

مللت مبيتي بالقرين وشاقني ــ متباعد (٣ / ٧٥)

بكّرا صاحبيّ قبل الهجير (٣ / ٢٠٣)

تجاللت عن فهر وعن جارتَيْ فهر (٣ / ٢٧٢)

وكلها قصائد طويلة متينة الأسر ، مبرأة من الركاكة والتهافت ، وفي بعض أجزائها يصل الأسلوب العربي الى أكبر جزالة يستطيع أن يبلغها شاعر . ولكن لا تنس في هذا كله أراجيزه التي تروعنا حقا بمدى علمها الواسع الدقيق بمفردات العربية حتى أمعنها في الغرابة ، وتراكيبها البدوية حتى أبعدها في الوعورة ، فهو في هذه الأراجيز يتقن الأسلوب البدوي إتقانا قل أن يماثله راجز ، دعك من أن يتفوق عليه . انظر منها هذه الأمثلة الأربعة :

عوجا خليليّ لقينا حسْبا (١ / ١٣٤)

يا دار بين الفرع والجناب (١ / ١٤٠)

يا طلل الحيّ بذات الصمد (٢ / ٢١٨)

يا بِنْتَيْ جلا هل بكما تنكير (٣ / ١٧٨)

وفي هذه الأراجيز ، كما في القصائد السابقة ، كثير من الألفاظ والتصريفات التي لا نجدها في كتب اللغة ومعاجمها ، فهي تسبب الحيرة للشراح ، وقد تحدثنا في كتاب سابق عن نقص هذه الكتب والمعاجم ، وما بها من أخطاء كثيرة حاولنا تصحيح عدد منها [١] .

لماذا — اذن — أهملنا هذا النوع من شعر بشار الذي اختصه العلماء القدامى بتقديرهم ، ولا يزال يفوز من كثيرين بأكبر إعجابهم ؟لأنه — على أهميته الكبيرة في تسجيل اللغة القديمة — في صميم أمره لا جديد فيه من الناحية الفنية . لا يضيف الى تجارب الشعراء الذين سبقوه تجربة حيوية جديدة . ولا يزيدنا بصرا بتجاربنا الإنسانية الباقية ولا تعمقا في دفائنها واستجلاء لأسرارها أو رؤية لها من زاوية

---

(١) انظر دراستنا المفصلة لتسع من القصائد الجاهلية في الكتاب المشار اليه آنفا.

جديدة . فمعظم لذته لذة سطحية لا تتجاوز الأذن ، ولا تزيد على نشوة فورية فائرة بالسبك المتين والقرقعة الضخمة سرعان ما تخمد . فكله تقليد ، وبعضه واضح الأخذ (أو السرقة ، كما سماها النقاد القدامى) من الأشعار السابقة له . كما ترى في ميميته التي أعجبت الكثيرين من القدماء والمحدثين :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم (٤ / ١٦٩)

ففيها تقليد واضح لا خفاء فيه لميمتي الفرزدق وجرير [1] ، وبخاصة ميمية الفرزدق الزائدة الفخامة والضخامة ، فبشار يحاكي ايقاعاتها وتنغيماتها ، ويأخذ كثيرا من عباراتها أخذا سافرا ، خصوصا عبارات العجز التي تنتهي بالقافية .

قد يبدي بشار في هذا النوع من الشعر بعض الحذاقة في تقليب ما كانوا يسمونه « المعـــاني» ، لكن ليس فيها معنى من «معدن» جديد ، نعني أنه ليس فيها مضمون جديد من تجربة حيوية أو عاطفة صادقة . هذا اذا استثنينا بعض هجائه الذي صدر عن كره حقيقي ولم يصدر عن مجرد مباراة في السباب ، وبعض مديحه الذي صدر من إعجاب صادق بممدوحه ، وقد قدمنا أمثلة من هذا المدح والهجاء . لكن معظم مديحه وهجائه « أكل عيش» وما اضطره اليه أكل العيش هذا ، ونحن إن سامحناه عليه ، لأنه في حرمانه البصر كان الشعر نحلته الوحيدة في المعاش ، لا نقبله في الشعر ، أو لا نعلي درجته منه .

أما الأهمية الحقيقية لهذا النوع من شعر بشار ، الأهمية الكبرى ، فهي أنه

---

(١) وهما قصيدة الفرزدق التي قالها في مقتل قتيبة بن مسلم :

تحن بـــزوراء المدينة ناقـــتي حنين عجول تبتغي البو رائم

ورد جرير عليها :

ألا حي ربع المنزل المتقـــادم وما حل مذ حلت به أم سالم

وهما الميميتان اللتان يعنيهما القدماء ، دون غيرهما من القصائد التي جاءت على روى الميم ، حين يشيرون إلى « ميمتي الفرزدق وجرير » . وإنما نقول هذا لأننا رأينا كثيرين من كتابنا يخطئون ما يعنيه القدماء بالميميتين ، فيذكرون قصائد أخرى للشاعرين ، الأمر الذي يدل على تقصير محزن في علمهم بالأدب القديم .

يثبت قدرته عليه ، فإذا رأيناه لا يكتفي به ، بل يتجاوزه الى النوع الآخر ، وثقنا ثقة تامة من أن هذا لم يكن منه عن ضعف أو عدم اقتدار ، بل هو عن مشيئة عامدة وتفضيل أكيد (١) .

هذا التفضيل من بشار كان واضحا فيما تخيره صاحب الأغاني من أشعاره ، لكن الآن قد تم اتضاحه في القسم الكبير الذي استكشف من ديوانه المفقود ، فمن بين ٢٥٥ قصيدة ومقطوعة يحتويها هذا الديوان ، عددنا ١٠٧ تدور على المدح والفخر والهجاء ، وغيرها من الأغراض ، و ١٤٨ تدور على الغزل وما يتصل به من مشكلات ، وتتميز بالرقة والسهولة ، والاقتراب العامد من الأسلوب العامي ، أسلوب الحديث اليومي الحي . وكثير منها يتخذ الأوزان القصيرة الخفيفة المتراقصة ، كما ترى إذا قرأت الأمثلة الآتية :

ومريضـــــة مرض الهـــــوى	بكرت بعبرتها تعيب (١٧٣/١)
ألا يـــــا صنـم الأزد الـ	ـذي يدعونه ربا (٢٠٢/١)
ألا يـــا طيب قـــد طبت	وما طيّبك الطيب (٢٠٤/١)
أنت يـــــا نفس أنيبي	آبت الشمس فأوبي (٢٢٠/١)
دعـــــاك الحب بـــالشعب	من الذلفاء بالقلب (٢٥٧/١)
طـــــال في هند عتــــــابي	واشتيـــاقي وطـــلابي (٢٧١/١)
يـــا بـــان ضـــاق المذهب	وطريد أهلك أجنب (٣٥٧/١)
ألا يـــــا خـــاتم الملك الـــ	ـــذي أملك لو نلته (١٤/٢)
ألا يـــــا كـــاهن المصر الـــ	ـــذي ينظر في الزيت (١٦/٢)
منعت الغســـل في الحمّـــــــا	م والغسل له عـــاده (٦١/٣)

(١) في فصل من كتابي « قضية الشعر الجديد » (ص ٣٥٤ من الطبعة الثانية) عبرت عن رأيي في أن من حقنا أن نطالب كل ناظم على الشكل الجديد أن يقنعنا أولا بقدرته الكاملة على اتباع قواعد العروض التقليدية في نظم قصائد على الشكل العمودي ، وبهذا نثق من أن اختياره للشكل الجديد ليس عن ضعف وعدم اقتدار على الشكل التقليدي ، فننقذ شعرنا الجديد من كثير من الهذيان الهاذر والثرثرة الغثة .

وأمثالها كثير . أضف اليها ما جاء على أوزان تامة لكنها بطبيعتها خفيفة رشيقة ، مثل السريع ، والرمل ، والوافر ، والمتقارب ، وأضف اليها ايضا ما جاء من الغزل على بحور طويلة وهو مع هذا رقيق عذب . ثم أضف أخيرا ما جاء من نسيب كثير في مطالع قصائد المديح ، وبعضه يبلغ درجة كبيرة من السهولة . استمع مثلا الى أبيات النسيب الآتية التي جاءت في مطلع مدحته الفخمة لعقبة بن سلم ، وتأمل ما فيها من سهولة وحكاية لأسلوب الحديث الحي :

حيِّيـــا صاحبيَّ أمَّ العَلاءِ	واحذرا طرف عينهـا الحوراء
إن في عينهـــا دواء وداء	لمُلمٍّ ، والداءُ قبـل الدواء
رُبَّ مَمْشىً منهـا إلينا على رغ	م إزاءٍ ، لا طابَ عيشُ إزاء ! (١)
أسقمتْ ليلــةَ الثلاثــاء قلبي	وتصدت في السبت لي لشقـائي
وغداةَ الخميس قـــد موّتتني	ثم راحت في الحُلّة الخضراء
يوم قالت : إذا رأيتك في النو	م خيالاً أصبتَ عيني بداء !
واستخفّ الفؤادُ شوقـاً إلى قر	بك حتى كـأنني في الهواء
ثم صدّت لقول حَمّاءَ فينـا	يا لَقَومي ! دمي على حَمّاء ! (٢)

لسنا ندعي أن كل هذا الشعر على درجة واحدة من الإجادة ، فهو كبير التفاوت ، لكن الواضح أنه يجرب في كثير منه الأسلوب الجديد ، ويمرن عليه لسانه ، ويستكشف إمكاناته الجديدة في اللفظ والتركيب ، ويسعى في تطويعه للأغراض الحديثة ، وتحقيق انسجامه مع أسلوب الحديث اليومي والتقاطه لنبراته الحية . كما أننا نرى في بعضه أثر تقليده لعمر بن ابي ربيعة ، كما في قوله (١ / ١٧٧) :

ولقد لطُفْتُ لهـا بجاريـــة	روت القريضَ وخالطت أدبـا

---

(١) الإزاء : الرقيب والقيم والحارس .

(٢) حماء : سوداء ، فهو يعني أمة سوداء حرضت محبوبته على عصيانه. وقد تكون حماء اسم علم .

قالت لها : أصبحتِ لاهيـــةً   عمن يراك لحتفه سببـــــا
لومتِّ مـــات ولـــو لَطَفْتِ له   لرأى هواك لقلبه طربـــا [1]

وقوله (١ / ٢١٥) :

لمـــا مررت بهـــا مستّرة   في الحي بين خرائـــد عُرْبِ
قـــالت لنسوتهـــا على عجل :   أنّى لنـــا بمصدّعِ القلب !
لَسَماعهُ – إن كان يُسمِعنا –   أشهى الى قلبي مـــن العذب
فأجبنهـــا : إنّ الفتى غَزِلٌ   وأحبّ من يمشي على الترب
لا تُعْجِلينـــا أن نـــواعده   فيكونَ مجلُسنـــا على خِصب
ونـــالَ منـــه غيرَ واحدةٍ   إن السماع لأهـــون الخَطب

وانظر أيضا الأبيات في ١ / ٣٨٠ ، حيث تجد قوله : « أرسلت خُلَّتي من الدمع غربا » محاكاة لقول عمر : « أجمعت خُلّتي مع الفجر بينا».

فالحق أن عمر هو الذي فتح هذا الباب للشعراء ، لكن بشارا ولجه بقوة ، ومضى في استكشاف ما وراءه ، فبلغ آفاقا لم يبلغها عمر ، وكان هذا أمرا طبيعيا ، لكن المهم هو أن طبيعة بشار الشعرية كانت أخصب من طبيعة عمر ، وأكثر تعدد جوانب ، فقد حدت شاعرية عمر في نطاق محدود من فن الغزل ، وإن كان في حيز هذا النطاق قد أصاب إبداعا كبيرا ، أما بشار فقد تعددت ألوان الغزل الذي مارسه ، وتنوعت تجاربه فيه ، وقد درسنا في هذا الكتاب عددا من قصائده الغزلية نظنه كافيا في التدليل على تنوع تجاربه ، واختلاف شخصيات النساء التي رسمها في شعره ، وفي الإلمام بالخطوط الأساسية لعناصر تجربته ، ومناحي إبداعه ، وعلى ضوء ما قلناه في شرحها وتحليلها وتذوقها يستطيع القارىءأن يمضي في دراسة سائر شعره ، مستكشفا المزيد من غناه وإمتاعه .

---

(١) لطفت في أول هذه الأبيات (بضم الطاء) : تلطفت في الوصول إليها . ولطفت في البيت الثالث (بفتح الطاء) : رفقت من أجله .

أما الذي نريد أن نؤكده هنا فهو أن تفصيل بشار لهذا النوع الجديد من الشعر يقوم شاهدا على صدق عبقريته ، واصالة شاعريته ، فقد أثبت به أنه لم يكتف بما فعل من محاكاة القدماء ومنافستهم ، وعدم التقصير عنهم في الجانب اللغوي ، والتفوق على كثير منهم ، بل أراد أن يضيف الى التراث الشعري العربي شيئا جديدا ، وأن يدخل على الذوق الفني تبديلا جوهريا . واستمر في هذه المحاولة برغم ما لقي من الاحتقار والاستهانة ، والاتهام بالسقوط والغثاثة ، وبأنه شديد التخليط في شعره ، وأنه يجيء بالهجين المتفاوت ، وما سببه هذا من إنكار العلماء وذوي الذوق الجامد الرجعي من النقاد . وقد نجح بشار في هذه المعركة الشعرية ، وانتهى الأمر الى أنه كما عد آخر المتقدمين بمتانة شعره البدوي ، عد أول المحدثين . ولسنا نعد هذه الأولية مطلقة ، فقد سبقه اليها عمر كما رأينا ، لكنها أولية الإغنـــاء والإخصاب ، أو زعامة المدرسة الجديدة .

نجح بشار ، فتبعه كثير من معاصريه من الشعراء ، كما تبعه أكثر من جاء بعده من شعراء القرنين الثاني والثالث ، حتى آن الأوان لتجديد جديد ليس هنا محل النظر فيه . فإن كان معاصروه من العلماء قد تلكأوا في الاعتراف بعبقريته الشعرية ، فإن العامة قد فتنهم شعره فراج بينهم رواجا كبيرا . ولم يكن هذا بسبب سعي رخيص منه الى الرواج بين العامة ، بل صدر عن بصر صحيح بوظيفة الشعر الحقة ، وضرورة ربطه بالجماهير ، وتجديد الصلة بينه وبين الحياة المعاصرة ، وإعادته الى النبع الذي يجب أن يستقي منه كل شعر ، إذا أراد أن يحتفظ بصدقه ، ويجدد حيويته تجديدا متصلا : وهو نبع الكلام الحي الذي يصدر عنه الناس في واقع تجاربهم اليومية . فإن لم يفعل تردى في الكذب والبعد عن واقع الحياة ، وغلبه التصنع الزائف حتى يخنقه ويميته .

وهذا موضوع طرقناه في هذا الكتاب حين نظرنا في بيتيه المطربين « ربابة ربة البيت » كما زدناه تفصيلا في كتابين آخرين أشرنا اليهما . فلسنا نحتاج الى أن نزيده شرحا وتدليلا ، بل نكتفي بقصيدة قصيرة أخرى نعدها من أجمل الشعر واصدقه ، مذكرين القارىء بما قلناه من أن إليوت نفسه ، زعيم الشعراء الغربيين المحدثين

بلا منازع ، لم يستحي في بعض شعره من أن ينظم مثل هذا الشعر السهل البسيط .

ففي هذه المقطوعة (١ / ٢٠٦) يخترع فنا تام الجدة ، هو فن المراسلة الشعرية :

مــن المشهور بالحب   الى قــاسية القلب :
سلام الله ذي العرش   على وجهك يــا حبّي
فــأمّا بعدُ ، يــا قرّ   ة عيني ، ومُــنى قلبي
ويـــا نفسي التّي تسك   ن بين الجنب والقلب
لقد أنكرت يــا عَبْدَ   جفاءً منك في الكُتب
أعــن ذنب ؟ ولا والل   ـه ما أحدثت مــن ذنب
ولا والله ، مــا في الشر   ق من أنثى ، ولا الغرب
سواكِ اليوم أهواهــا   على جِدّ ولا لِعب

أولا يبلغ من صدق حكايتها لأسلوب الحديث أننا نسمع فيها نبرات حديثنا العامي المعاصر نفسه ؟ إن من يصم أذنيه عن سماع ما في هذه المقطوعة من نبرات حية متهدجة شخص يحتاج ذوقه الأدبي الى تعديل كبير . وقد تبعه في هذا الفن المبتكر عشرات الشعراء من بعده ، ومقطوعته هذه أساس ما وفق اليه البهاء زهير من أبيات تروعنا بصدق تصويرها لأسلوب لانزال نستعمله الى الآن ، نعني قول ذلك الشاعر المصري :

مـــن اليوم تعــارفنا   وننسى مــا جرى منا
فلا كان ، ولا صــار   ولا قلتم ، ولا قلنــا
وإن كــان ولا بــدّ   من العتب ، فبالحسنى
فقد قيــل لنــا عنكم   كما قيل لكم عنــا

هل تسمع مثل هذه النبرات الصادقة في أكثر شعرائنا المعاصرين أنفسهم ممن أصروا على المضي في تقليد الأساليب البدوية الضخمة في قرننا العشرين ؟

كم من شعرائنا المقلدين يجرؤ على أن «يتدلى» الى النظم في مثل هذه التجارب ؟ لكن ما أشد فقر الشعر الذي يخلو منها ...

قد قلنا إن هذا الشعر «سهل» وإنه «بسيط» . ولكن حذار من أن تخدعنا هذه هذه السهولة والبساطة البادية عن هذه الحقيقة : أنه يحتاج لإجادته وإتقانه ــ فضلا عن الشجاعة الأدبية التي أشرنا إليها ــ الى قدرة كبيرة على تطويع التراكيب حتى يتخلص شاعر من وطأة الاكلشيهات المحفوظة المكررة ويخرج منها الى مثل هذا التجديد الحي المنعش . فلنقرر هنا تقريرا سيدهش له كثيرون من القراء : أن تقليد الأساليب الضخمة أسهل بكثير من النجاح في مثل هذا الأسلوب «البسيط». لأن المقلد يجد من ورائه ذخرا واسعا يستطيع أن يستمد منه ويحاكيه ، أما هذا الأسلوب فيحتاج الى اصالة وتجريب في التقاط نبرات الكلام الواقعي . والتكلف أسهل دائما على النفس من البساطة . انظر الى نفسك حين تدخل غرفة فيها آخرون ، فانظر ايهما أسهل على نفسك : أن تتصنع «بوزا» معينا من الجد والوقار أو من الفكاهة والمزاح أو من التعالي والكبرياء ، أو أن ترسل نفسك «على راحتها» فتكون طبيعيا في موقفك وسلوكك وحديثك ؟ إن هذه «الطبيعية» لا تأتي عفوا ، بل تكون نتيجة تدريب طويل وثقة كبيرة لا يستطيعها معظم الناس . وبعد فالبرهان في يدي القارىء ، إن كان يستطيع النظم . فلينظر أيهما أسهل عليه : أن يؤلف نظما يقلد فيه أساليب الفحول السابقين ، أو أن يبتكر مثل هذا الحديث الحي «السهل البسيط» في نظم ينظمه دون أن يسقط في الغثاثة المخجلة ؟

لقد أدرك بشار بثاقب بصيرته ، وصادق عبقريته ، وأصيل شاعريته ، الحقيقة التي لم يدركها بعد كثيرون من نظامينا المعاصرين : أن تقليد الأساليب القديمة ، واجترار المضامين القديمة ، والاكتفاء بالتجارب القديمة ، طريق مسدود ، لا يوصل الى استكشاف جديد في تجارب الحياة الانسانية ، ولا يضيف الى تراثنا متعا جديدة تزيد من إخصابه وتضاعف من غناه ، بل هو في النهاية لا يفيد اللغة نفسها ، لأنه لا يجدد حيويتها ، اذ يجمدها على قوالب تزداد عن واقع الحياة بعدا ، فتزداد من العقم والتعفن والموت اقترابا . فأولئك «المحافظون» لا يحققون غرضهم ، المخلص او المدعي ، من الحفاظ على اللغة ــ بل هم لها شر قتلة ، لو كانوا يعلمون ...

فهرست

صفحة

صفحة

الجانب الثاني : نور

صفحة

القسم الثاني : الشاعر

الجانب الأول : ظلام

الجانب الثاني : نور

النهايـــة

محمد النويهي

شخصية بشار

دار الفكر – مكتبة الخانجي

هذا الكتاب

سادت الدراسات في تراثنا الأدبي مسلمات وعموميات ، خالطها في كثيرٍ من الأحيان الخطأُ وسوءُ الفهم .

ولعلّ أكثر هذه المسلمات ترددًا في كتب الأدب تلك التي تصور شاعر العصر العباسي الكبير بشارًا بصورة شيطانٍ مريد ، وعلى هذا الأساس تفسر شعره .

و « **شخصية بشار** » دراسة علمية دقيقة ، تبدأُ من شعر بشار لفهم نفسية بشار ، ولا تُغفِلُ الأخبار الواردة عنه ، لكنها لا تأخذها دون مناقشةٍ ، ونقدٍ داخلي للنصوص .

و « **شخصية بشار** » بالإضافة الى فهمه الجديد لشخصية الشاعر العظيم ، محاولة جديدة لتجديد وسائل فهم شعره ، والشعر العربي عامة . وطريقةُ المؤلف – وهو استاذ جامعي معروف – في إيصال المعنى الشعري الى القلب أثبتت نجاحًا في التجربة أثناء تدريسها للطلاب .

فلعل هذه الدراسة تكون مقدمةً لإعادة النظر في أحكام مبتسرة كثيرة .

الثمن : ٦٠٠ ق.ل.